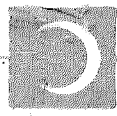
كتاب الهلال



ألوان من الحب

في الأساطير .. في التاريخ .. في القصص العالمي

عبد الرحمن صدقي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٣١ ـ صفر ١٣٩٠ مايو ١٩٧٠

No. 231 - Mai 1970

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهوريه العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسـدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية : فى الخـارج بتحويل او بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان هبة عنايت

عبد الرحمن صدقي

ألوان من الحب

في الأساطير • في التاريخ
في القصص العالمي

دار الهلال

الأساطير

- ميلاد ربة الجمال
- هيلين « فاتنة طروادة »
- شهر زاد

ميلاد ربة الجمال

في الصبـــاح البـــاكر ، من يوم ليس كمثله يوم فى وضاءة شمسه وحلاوة انسه ، فى الغرة من أيام الربيع ، فى أروع شبابه وأجد اهابه ، وقد هبت انفاس الربيع الحارة المطرة المنعشـــــة على البر والبحر ، جعلت الامواج تفور فورانا شديدا عجيب الشأن ، بالقرب من جزيره اقريطش بين الثلاثة الاقاليم : آسـيا وافريقيا واوربا ، فى العالم القديم ، وجعلت كل موجة فى سائر ارجاء البحر المتوســـط تعج وتضج ، وتنزو وتتوثب بحافز لا عهد لها به من نزوع الشوق وجنون الحب .

ان الــكون يتمخض الساعة عن آية يا لها من آية .

هى بضعة من جسم « اورانوس » رمز السماء ، فى أساطير الاغريق القدماء ، جبها ناقم عليه من ابنــائه فهوت فى المـــاء ، فلقحت منها ــ على حـــد قولهم ــ الدأماء . ودار الفلك دورته ، ولم يزل البـــحر بهذه البضعة الدامية تصفقها لجته ، حتى استكمل الحمل السماوى فى اللجة المصطفقة مدته .

وهذا هو البحر ، فى بكرة ذلك اليوم الأغر المـأثور من أيام الدهر ، يجيش بالقرب من أرض يونان ، بالغا من الجيشان أشده ، وقد تعالى على موجه المصطفق زبده ، وقبل أن يعلو النهــــار ويستوفى على البحر

شروقه ، تجلت من معجزات الخلق فى أول الخليقة هذه المعجزة الفائقة المرموقة ، فانشـــقت اللجة المصطفقة الراغية ، عن حسناء معبودة الحسن عارية ، كأنها من بياض الجسد ، صيغت من ذلك الزبد .

تجلت على ثبج المـــاء هذه المعبودة الحسناء ، آية التناسق والروعة والرواء : ممشـــوقة القد ، معتدلة الشطاط ، لطيفة التكوين ، مبتلة الاعطـــاف ، كاعب النهدين ، محطوطة المتنين ، مستديرة الردفين ، أملود الساقين ، غضـــة الشباب ، بضـــة الاهـــاب ، رفافة البشرة ، بديعة الملامح والقسمات ، الى آخر ما لايسبق اليه وهم ، ولا يعلق به خيال ، ولا يخطر وجوده على بال ، من المحاســـن التى لا يحصرها عد ، ولا تنتهى عند حد . ولا بدع أن تكون هـــذه المولودة الخالدة الاخيرة فى صـــورة الخلق وجهارة الحسن على هـــذا الـكمال ، فانها طلعت حين طلعت لتكون قالب الجمال ومثاله الاعلى الذى صيغ على غير مثال .

وكانت افروديت « وليـــدة الزبد » ــ وهو الاسم الذى عرفت به ربة الجمال فى صـــورة ذلك الجسد المستفرق لصفات الكمال ــ عارية متجردة ، حين طلعت من تلك اللجة المزبدة ، عارية متجردة تجرد الوليـــد ساعة ولادته ، وقد تلألأت محاسر جســـدها كاللؤلؤة اليتيمة العظيمة عريت من صدفها ، حاشا تلك الذوائب الفينانة من شعرها الطويل الذهبى ، المســترســـل على ظهرها المرمرى ، ضاربا الى حقويها ، ولو أنها شـــاءت التستر به لسترها بغير عناء ، ولكن أعفاها ان فضيلة الخفر والحياء لم تكن فى تلك الازمنـــة الاولى معروفة عند الاحياء .

ولم يشهد مطلع افروديت ربة الجمال ، وهى على تلك الحال متجرده الجسد عارية الاوصال فيما عدا أبويها الازليين : السماء والماء ، الا ثالث لا يخلو منه فضاء ، هو الهواء . هو ذلك الهواء الذى لايزال خافق الاحشاء ، دائم الانين ، منذ ذلك الحين الى أبد الآبدين.

وما كاد الهواء يراها ، حتى ضمها واحتواها ، وقد هاج هائجه وجن جنونه لفرط ما بلغ منه هواها. وجعل الهواء الولهان يعتسف السواحل مندفعا الى الاشجار المتفتحة النوار ، يهز الفروع ويهتصر الاغصان منتزعا أكاليل من ورقها العطر وزهرها الابيض الباهر ، يحملها مسافات من البر الى حيث افروديت عروس البحر ، فيرتمى متنهدا عند قدميها ، وينثر أزاهير العرس الناصعة حواليها ، حتى صارت الامواج فى تلك الناحية ، أشبه بقطع الرياض الحالية . ولم يزل الهواء — من فرط الهوى — تتوجه الى افروديت زفراته ، وتتتابع تنهداته ، فاذا افروديت تنساق الى تحت قدميها الناصعتين صدفة لؤلؤية عظيمة بيضاء ، وقد نشرت شعرها الاثيث الذهبى فى شعاع الشمس الذهبى الوضاء ، ربة الجمال الفرعاء ، فانسابت الصدفة بها فى لطف على الماء ، فى وجه هذه الانفاس المتنهدة المتصعدة من الهواء . ويظل الهواء العاشق كالمجنون يلاحقها بقبلاته ويدافعها بلمساته ، وهى على صدفتها مندفعة تمخر الماء فى لطف وخيلاء ، فتاخذ الماء فى طريقها قشعريرة لذيذة ، ورعدة ممتعة وجيزة . وتظهر على لجته ، فى حيثما مرت افروديت على صفحته رغوة منتفشة ومويجات مرتعشة ، وقد أقبل سكان الاعماق يتجمعون زرافات حول مركبها فرحين محبورين ، وقد

استخفتهم نشوة الطرب وأخذتهم هزة المرح ، افتتانا بهذا الجمال واحتفالا بمطلعه. فكانت الجنيات الحسان، من بنات آلهة البحر ، سابحات حول الصدفة العظيمة ممسكات حوافها بأيديهن الرخصة الناصعة البياض ، وكانت أفواج الخيلان من أبناء آلهة البحر — وادناها سمك وأعلاها انسان — تتقدم بين يدى الموكب المائى نافخة فى أبواق من الودع الكبار ، ترجع فيه الأذان فى اثر الأذان ، وتعلن البشائر فى لحن من أعذب الالحان وعلى مسافة قريبة ، تتوثب مسرورة محبورة ، دواب البحر من اطم لماعة الوبر ، حداد العيون طوال السبال، ومن دلافين طافية كالزقاق المنفوخة ، فضية الالوان منقوطة ، ومن ورائها جميعا حيتان البال ، ترسل الماء من نافورتى هامها ذاهبا فى الفضاء ، وكأنها من ضخامة الجثث كسلانة فى سبحها متثاقلة ، وهى من فرط فرحها تشق على نفسها فى السبح جادة متحاملة

وانسابت افروديت على هذه الصفة ، تهفو بها أنفاس الهواء المتصعدة ، حتى ساحل اقريطش وكانت الجزيرة فى ذلك الزمان لم يطأها انسان ، وانما هى برية أنف معطار ، وريفة الاشجار موشاة بمختلف الازهار، وكان فى استقبال المولودة الخالدة الجديدة للترحيب بمقدمها الميمون من قبل الارباب الخالدين الاقدمين جنيات الطبيعة الموكلات بتدبير الاطوار والاحوال ، المعروفات ب « الساعات » وهن صبايا من الحسان الناضرات متشحات بحلل من الزهر شتى الالوان والشيات ولما كانت افروديت عارية الا من شعرها الاثيث العبق ، فقد اقبلت عليها الساعات باللباس والزينة فأفرغت احداهن عليها غلالة من الشفوف بديعة الألوان ، يبدو لابسها من

رقة النسج بين المكتسى والعريان . وعكف بعضهن على ذوائب شعرها الفينان الذهبى ، تسرحه وترجله بمشط ذهبى . ثم تضفره غدائر مسترسلة كأمواج البحر اللجى ، ثم تضم الغدائر بعضها الى بعض باكليل من الورد الاحمر الجنى . وحمل بعضهن الاقراط الى أذنيها الصغيرتين والقلائد حول جيدها الاتلع ، والمرسلات على ترائب صدرها المصقول كالسجنجل ، وكلها من عجائب الحلى ، صنعة صناع عبقرى ، متخذة من الزمرد والياقوت والزبرجد الاصفر القبرصى ، ثم كان الختام أن أدير حول حقويها وشاح مفصل بالدر والجمان ، جاذب للنظر ، مستدع لكوامن الفكر ، كأنما ينطوى على أسرار غريبة ونجاوى غامضة عميقة . وهكذا تولت « الساعات » تعليم الربة الشابة ما فى الزينة من فتنة ، وما فى بعض الحجاب من استهواء .

ولما أن اجتمع فى افروديت الى سحر الحسن المطبوع غوايات الحسن المصنوع ، نظرت ربة الجمال نظرة متطلعة خفية ، الى مرآة من الفضة المجلوة ، عرضتها عليها ، ورفعتها اليها وصيفة من وصائفها القائمات على خدمتها . فامتلأت رضى عن نفسها واعتزازا بحسنها الذى جاوز الغاية وفاق النهاية ، ولم تملك أن سرت فى أعطافها خفة وشاعت فى وجهها اشراقة الغبطة ، فعاد قوامها فى اختيال ، وابتسمت فى دلال وتلفتت تتبين حواليها ، كيف يكون الافتتان بها والصبابة اليها . فراعها ما استبان لعينها من غلبة سحرها على الخليقة بأسرها . فهذا الهواء مدنف ، قد براه الهوى وشفه الضنى ، وعند قدميها نسيم الصبا ، خائر القوى متهالك طليح ، كالخمار الطريح . وهذا البحر عجاج

متلاطم الامواج منذ ان اخذه مخاضها لا يقر له قرار كالمتقلب على الفضا ، لهفة عليها واسفا على فراقها .
وهذه الشمس مضطرمة من الوجد، كلما أحست مغالبة الاسى توارت خلف نقاب من متراكب السحاب ، واجهشت بالبكاء والنحيب حتى ليحول الثرى الجديب من وابل دموعها وهو جد خصيب ، وهذا الفضاء الواسع الجنبات يجيش بالوف الالوف من الذرات التى تدق عن رؤية العين وتخف عن أن يقام لها وزن وهى مشوقة الى التكثر والتطور ، وهذه الدواب والطير والزواحف والهوام وسائر أنواع الحيوان من الهولات الجسام ذوات الاجلاد والجثث الضخام ، الى الدويبات الدقاق الميكروسكوبية الوحيدة الخلية . هذه جميعا قد دب فى اجسادها ــ لطيفة كانت أم كثيفة ــ هزة تنزع بها الى التعانق والتواصل والتخفف من فيض الحياة الذى حفلت به واكتظت حتى نسى الفرد منها ذاته فى سبيل استدامة النوع .. وانبعثت من هذه الخلائق جميعا غمغمة مبهمة لا يفصح بها اللسان ، ولكنها مستغنية عن اللفظ مبينة من غير بيان ، لانها تهليل الحواس وتكبير القلوب وهتاف الوجدان . وهى تتوالى على افروديت من كل صوب وتحفها من كل ناحية ، فتحتويها من هذه المشاعر المحيطة بها المحلقة حولها أمواج حارة مسكرة .

ووقفت « الساعات » من جلال الموقف خاشعة ساكنة ..

وأما ربة الجمال ، فقد لبثت جامدة فى وسط هذه الحلقة المغناطيسية ، وقد أطبقت جفنيها وغابت من على شفتيها ابتسامة الدلال الغريرة الصبيانية ، وتبين عليها التأمل العميق والخلوة الى النفس واستجماع

شوارد الفكر ، بعد أن بان لها سلطانها الرهيب وما يستتبه هذا السلطان من التبعات والاعباء .

وبقيت افروديت لحظة على هذه الحال تتنفس ــ وهى كالنائمة الحالمة ــ من خياشيمها المتفتحة الخافقة ، ومن فمها المنفرج المنفعل ، أنفاسا عميقة مطردة فى هذا الجو الحادث من حولها حتى تشبعت به أنسجة جسمها وامتزج بكيانها .

لحظة من اللحظات القدسية التى تتقرر فيها المقادير الكونية ..

لقد صارت افروديت ربة الجمال الذى لا يضارع ربة العشق الذى لا يدافع .

وأقبلت « الساعات » فوضعن على هامة الربة الجميلة الجليلة تاجا لا من الذهب والجوهر بل من النور تبلور وتجوهر .

ومضين بحرا وبرا بها والخلائق تضطرب وتجيش فى البحر والبر فى طريقها حتى أوفت الرحلة على غاياتها ، فعرجن بين يديها منفردات بخدمتها ، وهى فى الموكب الحافل من بهائها وفتنتها الى مشارف « الاولمب » منزل الآلهة ومتبوأ عروشها .

هيلين فاتنة طروادة

منـــذ اكثر من ثلاثين قرنا من الزمان ، طلع على الدنيا من أرض يونان ، المثال الاعلى للجمال فى صورة انسان ، وكان هذا الانسان : هيلين .

انها « هيلين » ابنة ملك اسبرطة « تيتداريوس » من زوجته الحسناء ليدا . وكانت الصبية اليونانية من الجمال بحيث زعم اليونان فى خرافاتهم ، ان أمها حملت فيها من كبير آلهتهم « زوس » نفسه ، حين زارها فى شكل طائر رائع من جنس البجع الطويل العنق الابيض الناصع

فى بلاط ملك اسبرطة اليونانى

ذاعت شهرة جمال هيلين فى أنحاء بلاد الاغريق ، فلم يبق أمير من امرائها الا تطلع الى زواجهـا ، فأخـذوا يتوافدون على أبيها ، وفيهم من غلب الابطال ببراعته فى الحرب وشجاعته ، ومن فاق الاقران بقوة بأسه ووثاقة بنيته ، ومن اشتهر بطائل غناه وثروته ، ومن زانه رونق صباه ووسامته ، والكل تحدوهم فكرة واحدة وتستحوذ عليهم رغبة واحدة : الظفر بملـكة ذلك الجمال النـادر المثال . وكان الشيخ ملك اسبرطة يطـاولهم ويماطلهم حتى أخذ يضيق صدرهم وينفد صبرهم يوما بعد يوم وسرى التذمر بينهم وظهر التململ منهم ، وأوشك أن يستبد بهم السخط وتنفجر مراجل غضبهم !

ولقـــد تنبه « عوليس » ملك جزيرة اتاكا الى خطر الموقف ، وكان أنفــذ أمراء الاغريق فطنة وابرعهم رأيا وأمكرهم تدبيرا ، فأشفق على الملك الشيخ فقصده وأسر اليه:

ــ يا عاهل اسبرطة العظيم ! ستحدث خطوب فى بلاطك الكريم اذا أنت لم تعجل باعلان قرارك فى شأن زواج ابنتك هيلين . . ان الخاطبين فى قلق يزداد يوما بعد يوم ، وانت أعرف بطباعهم من أن تتوقع صبرهم على هذه الحال .

ــ انت على حق يا عوليس الحكيم ولكن ما الحيلة ؟ لو انهم فى مثل حكمتك ورجاحة عقلك ما ترددت فى اعلان قرارى ، ولكنى مشفق ان أنا اعلنت اختيار أحدهم زوجا لهيلين أن أثير عليه حسد الآخرين وينشب النزاع وتحل بنا كوارثه أجمعين . فهل ترى لى من ذلك مخرجا ياعوليس

ــ من أجل هذا وخيت لقاءك ، فان عندى لك المخرج ، وهو غاية فى البساطة واليسر .

ــ أحقــا تقول ؟ هات اذن يا عوليس الحكيم ! . . وسأكون طوال العمر شاكرا معروفك ذاكرا لك حسن سعيك

ــ يا ملك اسبرطة ! هذه نصيحتى اليك :

واقترب عوليس من الملك الشيخ وهمس فى اذنه ما ارتآه من الرأى . وأخذت تنبسط من الشيخ المهموم غضون وجهه وتبرق أساريره . وما انتهى عوليس من همسه حتى كان محيا الملك يطفح بشرا ، وكاد على تمسكه ورغم شيخوخته يطير فرحا . واستأذن بعدها عوليس وانصرف والملك يردد :

«شكرا ياصديقى ، شكرا . . أرى اليونانيين لم يكونوا مبالغين حين قالوا انك خير الناصحين »

ودعا الملك رسله فأنفذهم الى أمراء يونان يعلمونهم

ان الملك قد اتخذ قراره فى شأن زواج ابنته هيلين ، ويدعوهم الى موعد الاجتماع فى قصره لاعلانهم بالقرار.

وفى الموعد المضروب ، اجتمع فى قاعة العرش فى القصر الملكى بأسبرطة طالبو الزواج من هيلين وهم خلق كثير كلهم من بيت ملك كبير . وكانوا من عظم الرغبة وفرط اللهفة يتساءلون فيما بينهم ، اذا كان قد نمى الى بعضهم علم ما انتهى اليه قرار الملك تينداريوس . فلم يشف أحد غليلهم . بيد انه لم يطل انتظارهم اذ طلع عليهم الملك الشيخ ومعه ابنته هيلين بيضاء هيفاء .. شعرها الذهبى بلون الشمس وعيناها النجلاوان لهما زرقة البحر ، وقد أفرغ قوامها فى قالب من الجمال لا يضارعه بين نساء العالم جمال . واستوى الشيخ على عرشه وهى الي جانبه . ثم تكلم فحيا الامراء الوافدين أطيب تحية ورحب بهم .. ثم قال :

ـ سأختار اليوم من بينكم يا أمراء يونان زوج ابنتى ولكنى اطالبكم قبلها أن تؤدوا اليمين بين يدى، فتصايحوا :

ـ أية يمين يا ملك اسبرطة ؟ ومن منا تريده على اداء هذه اليمين ؟

ـ أريدها منكم اجمعين .. اريدكم على القسم باغلظ الايمان الا يكون زواج هيلين مثارا بينكم للتحاسد والاضغان وأن تؤيدوا حق الزوج الذى سيختار منكم أيا كان وأن ترعوا حرمة هذا القران وتدفعوا عنه كل عدوان .

ولما لم يكن من الامراء واحد الا وهو كبير الامل فى ان يكون ذلك الزوج المحظوظ فقد هتفوا بصوت واحد :

ـ فلنقسم ..

وهنا أمر الملك الشيخ فجىء بالحملان والجديان ثم قدمت أقداح النبيذ للامراء الشبان . وعندها ارتفع صوت

الملك وهو قائم يبتهل : « نشهدك يارب الارباب ، وانت أيتها الالهة المنتقمة من الحانثين ، نشهدكم أجمعين على هذا القسم العظيم » .

وتلا ملك اسبرطة القسم ورده الامراء من بعده :

« نقسم باغلظ الايمان ، ان نؤيد حق الزوج الذى سيختار منا أيا كان ، وأن نرعى حرمة هذا القران وندفع عنه كل عدوان » .

وكان لاصواتهم — وهم يرددون القسم فى قاعة العرش — دوى عظيم رنان ترددت أصداؤه وتجاوبت بها الجدران

وعلى أثر ذلك نحرت الاغنام ، وشرب الامراء الشبان جرعة من أقداحهم ثم اهرقوا ما بقى على أرض المكان وهم يرددون فى صوت واحد : « هكذا فليهدر دمه من حنث بقسمه »

وبعدها ساد السكون وثقلت وطأته على هذا الجمع من المحبين ، وهم سكوت يتطلعون الى الملك الشيخ وقد تعلقت أبصارهم وقلوبهم بشفتيه وأخيرا قال :

— أيها الامراء ، انكم جميعا من شرف القدر وكرم العنصر وعلو الهمة والشجاعة ، بحيث يشق على المفاضلة بينكم واختيار واحد منكم أكون به أعجب منى بغيره فانا من أجل هذا أدع الخيار لك يا هيلين ! فاختارى زوجا من ترين .

ولما أتم الملك تينداريوس مقاله رفعت «هيلين» الفاتنة الذهبية ، وأجالت عينيها بزرقتها اللازوردية فى أيها الامراء ، وهم قائمون تجاهها يتابعون من الشمس المتنقلة شعاعها ، وكلهم ... شفاهها .

وبدت على هيلين الحيرة ، فأعادت الكرة ورددت الطرف

ثانية وثالثة فى صفوف الامراء ، فكان فى ذلك التكرار زيادة من حيرتها فى الاختيار • واخيرا وقفت بنظـــرها الحائر عند أحدهم والتفتت الى أبيها تقول فى صـــوت خافت : « اخترت الامير منلاوس »

كانت هذه كلمة هيلين وقد لبث الجميع من دهشة المفاجأة مبهوتين وكان أشدهم مفاجاة وأعمقهم اندهاشا «منلاوس» نفسه • فهو لم يكن ابرز الحاضرين شخصية ولا أكثرهم ثراء ولا أقواهم بأســـا ولا أجملهم رواء . وكان موقفه من هيلين كلما رآها أقرب الى العابد منه الى موقف الخاطب . ولكن هيلين قالت كلمتها والمشيئة فى ذلك مشيئتها .

ولقد ظهرت بوادر الاستياء على الأمراء ولكنهم ذكروا اليمين التى أقسموها واللعنة التىاستنزلوها على الحانثين

واحتفلت اســـبرطة بزواج هيلين واقيمت الاعراس بين الاناشيد وتحايا الاشعار وأكاليل الازهار • فلما أن أصبح الصباح أعلن الملك الشـــيخ انه نزل عن العرش لصهره بمثابة الهدية لعرسه .

ولم تمض سنوات حتى كان الشيخ قد مات تاركا على عرش اسبرطة صهره منلاوس والملكة هيلين وابنتهما الصغيرة هرميون والجميع فى وئام وسلام .

فى بلاط ملك طروادة الاسيوى

كان فى تجاه اليونان فى البـــلاد الواقعة شرقى بحر ايجه على الشاطىء الاسيوى مدينـــــة عزيزة الجانب شديدة المنعة قوية غنية هى طروادة • وكانت المدينـــة واقعة بين جبل « ايدا » الشامخ والبحر ، قائمـــة على رأس ربوة تشرف على الاودية الخصبة الناضرة عنـــد سفحها ، وتتحكم كالسيدة الآمرة الناهية فيمن حولها •

وكان الجالس وقتئذ على عرش هذه المدينة العظيمة « بريام » وهو فى قصره الممرد الفخم سعيد باستقرار ملكه الضخم ، فخور بأولاده الخمسين ، وكان أشجعهم « هكتور » واجملهم « باريس » .

وفى ذات ليلة رأت الملكة « هيكوبا » فى منامها قبل ولادتها «باريس» حلما عجيبا .. رأت نارا تندلع من بطنها ثم اخذت هذه النار تعظم ويمتد لهبها الى المدينة وتستشرى فيها حتى حرقت طروادة كلها . وهبت الملكة من نومها مذعورة وقصت على الملك رؤياها فجعل يسرى عنها وهو فى دخيلة نفسه ليس اقل انزعاجا منها . فلما أسفر الصبح دعا بالكهنة العرافين فتوافدوا واحدا بعد الآخر وهم جميعا كهول قد شابت لحاهم الطوال وشعورهم المسترسلة . فلما احتشد جمعهم واكتمل حفلهم دخلوا الى قاعة العرش حيث كان الملك والملكة فى انتظارهم فسلموا بالتعظيم ووقفوا فى انتظار الامر مطأطئين رءوسهم ضاربين بالاذقان صدورهم وأذن الملك لهم بالجلوس فى حضرته وأبلغهم السبب الذى استقدمهم من أجله . ثم دعا الملكة أن تقص عليهم رؤياها .

وأصغى الكهنة الى تفصيل الرؤيا فى صمت مطبق وسكون مطلق . فلما فرغت الملكة هيكوبا من روايتها . قام أكبرهم سنا وقال بصوته الخافت وهو ينغض رأسه الأشيب أسفا : « رؤياك أيتها الملكة رؤيا محزنة .. فالولد الذى سوف تلدين سيكون سببا فى حريق عظيم يدمر طروادة ، ذلك مبلغ علمى » . وقام على الاثر سائر الكهان فرددوا ما قاله كبيرهم وهم يهزون رءوسهم المبيضة أسفا ثم أخذوا ينصرفون .

فلما صار الملك والملكة وحدهما وخلت قاعة العرش الا منهما أجهشت الملكة بالبكاء .وكان الملك حزينا مهموما

ولـكنه اقبل عليها يحاول التسرية عنها . فلما هـدأ روعها قليلا سألته عما هو فاعل ؟ فقال :

ـ نحن ـ بحمد الآلهة ـ غير محرومين من الولد وعندنا منهم الـكثير . فلا بأس الا يكون لنا هذا الاخير فليس من الصواب فى شيء أن نحرص عليه اذا كان حريق طروادة على يديه .
ـ واذا كان الكهنة مخطئين ؟ واذا كان الوجه فى تعبير الرؤيا غير ما ذهبوا اليه ؟

ـ كلا ، الكهنة لا يخطئون وقد رأيت كيف هم على هذا التأويل مجمعون .. لا ، لا ، لايمكن أن نحتفظ بالوليد . سيحمل عند مولده الى الغابة البعيدة ويتـرك هناك وبهذا نكون قد كفلنا الخلاص لمدينتنا .
ـ ولـكن ماذا يكون أمر الطفل المطروح فى الغابة ؟ انه هالك لا محالة ونكون نحن سبب هلاكه .

ـ اننى المسئول عن هذا البلد والواجب يقضى على ان أقدم بلادى على أولادى . ان فجيعـتى فى ولدى واقعة على وحدى . اما الوطن فالفجيعة فيه تشمل الاجداد والابناء والاحفاد والاجيال المقبلة جميعا .

ولم تجد الملكة الحزينة المسكينة غير التسليم . ولما وضعت وليدها لفته فى قماط من الخز المطرز ودثرته بدثار من الصوف ذى الوبر واودعته سلة لطيفة كانت قد أوصت بصنعها ، ثم انحنت عليه وقبلته فى لهفة مرات ودفعته الى الملك وهرولت وقد تبادرت عبراتها وأغلقت عليها باب غرفتها تبكى وليدها وتفكر فى مصيره .

واحتمل الملك الأمير الصغير وأرسل فى طلب راع من رعاته الامناء وناوله الوليد قائلا : « هذا الطفل يجب هلاكه فاحمله الى جبل « ايدا » بعيدا عن المدينة وعن العمار

واتركه وحده على القمة ولا تعد اليه . هذه مشيئتى »

وأنفذ الراعى مشيئة الملك وعاد الى كوخه فى سفح الجبل . ومنذ ذلك اليوم تكررت على نظر الراعى ظاهرة غريبة ، فهو يرى من بعيد دبة من الدببة ترقى الجبل فى صباح كل يوم وتهبطه فى المساء . وقد بلغ من الراعى العجب أن دفعه الفضول ذات يوم الى أن يرقى الجبل خلفها ويقفو أثرها ، فاذا الدبة تبلغ القمـــة وتقترب من السلة المطروحة وترخم عليها لترضع الطفل ثم تعود أدراجها . وقد عجب الراعى مما رآه وكان لا يكاد يصدق عينيه . ولما عاد الى كوخه قص على امرأته القصة ، فقالت وهى لا تتمالك نفسها من العجب :

ـ هذا من خوارق المعجزات وهو دليـــل على ان الآلهة تريد خيرا بالامير الصغير ، فينبغى أن لا ندعه يهلك

وصادف هذا الكلام هوى فى نفس الراعى ، فذهب تحت ستار الليل الى قمة الجبل وحمل الطفل فى سلته الى الكوخ . وقام هو وامرأته على العناية بأمره على انـه ولدهما وقد أفعم بالسرور قلباهما أن يكون لهما ولد بهذا الحسن والرواء .

وشب الغلام على اعتقاد انه ابن الراعى وقد أطلق عليه اسم « باريس » . وكان حين كبر يتولى عن أبيـــه رعى الغنم ، كما كان يخرج أحيـــانا للطرد ويعود الى الـكوخ محملا بالصيـــد وكان يزيد مع الايام ريعانا وحسنا ويشتد عنفوانا وبأسا ، وكان عليه من نبـــالة السمت ووجاهة الشـــارة ما ينم عن الامارة ، وكانت تتعرض له الفتيات من بنات الرعاة وهو معرض عنهن ولم تقع فى نفسه الا الصبـــية « اينون » ذات القلب الحنون التى كانت تسكن على جبل « ايدا » فلقيته فى

صباح يوم رائق رقيق الهواء شفاف النور • وكانت مثل غصن الزنبق فى ثوبها الابيض تقطف الزهر البرى وتجعل منه كل زينتها فهو الطاقة فى يدها والتاج لشـــعرها والحلية لمنطقتها وكانت وسط هذا الـــزهر العميم تطفر وتغنى بصوتها الرخيم • وهكذا لقيها « باريس » أول ما لقيها فاستمالته وتولع به قلبها .

فى وليمة الآلهة على جبل الاولمب

تروى الاســـاطير أن آلهتهم كانوا فى معظم ولائمهم يغفلون دعوة الهة الخلف والشقاق « ايريس » حتى لا يعكر وجودها صفو اجتماعهم وكانت « ايريس » تنكر ذلك منهم وتضطغنه عليهم وتأخذها لهم حمية وحزازة. وقد بلغ الى علمها قيام حفلة شائقة من أبهى حفــلات الاعراس دعيت اليها الآلهة جميعـــا ولم يستثن من الدعوة سواها فانتهزت اجتماع الآلهة فى قاعة الاحتفال حول المائدة وألقت عليهن تفاحة ذهبية منقوشا عليها : « الى أجمل النسـاء » . فكان طبيعيا أن تدعى الحق فيها جميع الحاضرات ، ثم انتهى الامر بأن انحصرت المنافسة بين « افروديت » و « هيرا » و « بالاس اتينا » وقد طلبن الى كبير الآلهة « زوس » أن يكون الحكم ولكنه كان أحكم من أن يقضى بينهن لاسيما وفيهن « هيرا » زوجته ، وأشار عليهن أن يـــذهبن الى جبـــــل « ايدا » بالقرب من طروادة فيحتكمن الى ابن ملكها الأمير الشـاب « باريس » الذى يرعى هناك الاغنام جاهلا شرف محتده وما كان أشد تعجب الفتى ودهشته ، حين مثلت أمامه

وتجلت قيد عيانه هذه الصورة الرائعة للربات الثـــلاث وعندها أقبل عليه « هرمز » وكأنه يطير من خفة قدميه المجنحتين . وقال له فى لطف وايناس كأنه يعرفه منــذ

سنين طوال : « لا تعجب مما ترى يا « باريس
هؤلاء الربات الحسان انمـا هبطن من سمـاء ا
ليحتكمن الى البشر ايهن أبرع حسنا . وقد اختارل
الآلهة « زوس » لتكون الحكم ، فمن وقع عليها ا
بعد التأمل والروية فامنحها هذه التفاحة الذهبية

فجعل الفتى يتأمل الربات الحسان الثلاث وهو
لنفسه حتى يستجمع حسه ويصدر حكمه ، فتقـ
احداهن نحوه ولما صارت على خطوات منه أسرت

ـ تعال يا ابن ملك طروادة ، فأنا ربة المعرفة و
وسيكون عليك أن تكافح عن بلادك وتدفع العـ
أسوارها وتحمى ذمارها ، فاذا أنت منحتنى التف
الذهبية جعلتك من أهل التدبير والمعرفة ، وكنت
بلادك ونصيرتك على سائر المحاربين الابطال .

قالت « بالاس اتينا » ذلك ثم تراجعت الى
وتقدمت « هيرا » حتى صارت فى محاذاته وقالت

ـ أنا زوجة « زوس » أبى الأرباب ، وانت أ
وابن ملك كبير ، وفى مستطاعى اذا انت قضيه
بالتفاحة أن أجعلك ملـكا على آسيا كلها واضع فى
خزائنها وأجعل كلمتك فوق ملوك الارض أجمع
وأخيرا أقبلت عليه « افروديت » واقتربت منه
لاصقته ، وقالت فى دلال بصوتها الرخيم :
ـ انظر الى « افروديت » ربة الحب والمتعة .
انت واجد فى السيادة على الخلق أو احتـوائك
الارض ؟ انك أمير ، وابن ملك كبير ، ولا ينقصك
من علو النسب وشرف المحتد . فاذا انت جعلت
نصيبى التفاحة ، جعلت من نصيبك « هيلين »
نساء الدنيا ، فعرفت طعم السعادة التى لا تعدلها

وكان فى هذا العرض ما يغرى الفتى «باريس» الذى كان يقضى أيامه فى رعى الغنم ولياليه مع بنات الغاب مستسلما لحياة الدعة بعيدا عن مطامع الملك ومنافسات أهله . وزاد فى اغرائه ما تشيعه « افروديت » حولها من جو مشبع بالسحروالأشواق والنشوة الحسيةالغرامية

وهكذا لم يسع «باريس» الاأن يلقى اليهابالتفاحةالذهبية

ومنذ ذلك الحين تغير حال « باريس » مع فتياته ومنهن « اينون » التى كانت أحظاهن عنده فكان مع بقاء اتصاله بهن قليل الاقبال عليهن ظاهر الفتور نحوهن وصار يكثر من العزلة خاليا بنفسه يفكر فى السبيل الى العودة الى مكانه بين أهله .

واتفق أن أقيمت فى طروادة وقتئذ مباراة من تلك المباريات الرياضية التى جرت العادة باقامتها فى كل عام ، فاعتزم الفتى أن يشارك فيها . وودع الراعى وزوجته وكان الوداع شديد الوقع عليهما ، كأنما ألقى فى روعهما أن فى الأمر سرا وانهما هذه المرة يضمانه للمرة الاخيرة الى صدريهما ، وكذلك كان وداعه للصبية « اينون » وداعا أليما فاضت له دموع الفتـاة مدرارا وتصعدت زفراتها نارا وقد وقر فى نفسها انه فراق الأبد .

وكان قد أعلن فى انحـاء المملـكة دعوة الشبـاب الطرواديين الى المساهمة أجمعين فى المباريات ، فجاءوا افواجا دون تفرقة بين الاغنياء والفقراء ما داموا جميعا أصحاء البنية أقوياء . وكان فيهم من يعرفهم شهود المباريات السابقة اشتراكهم أكثر من مرة ، كما كان فيهم خلق كثير لا يعرفهم الجمهور لدخولهم المبـاراة للمرة الاولى . ولما بدأت المباراة كان بدؤها سباق العدائين وكانت جموع الناس تهلل لمن يعرفونهم كلما مروا بهم

هاتفين بأسمائهم . ولم يكن « باريس » من هؤلاء فلم يعره أحد التفاتا ، ولـكنه لم يمض القليل حتى ظهر تفوقه على المتسابقين فأخذ المتفرجون يسائل بعضهم بعضا : « من يكون ؟ » . فلما انعقد له النصر آخر الامر قاده المـكلفون بالمباراة الى المنصـة الملـكية فاظهر له الملك رضاه واثنى عليه ، وهشت الملـكة فى وجهـه وبان سرورها به وانجذابها اليه . ثم سئل عن اسمه ، فقال فى غير تردد ولا افتعال :

ـ أنا الأمير « باريس » بن بريام ملك طروادة وابن هيكوبا ملكتها . فلما ظهرت عليهما الدهشة ، اتاهما فى الحال بالسلة والغطاء ذى الطراز . وكان قد احتفظ بهما ، فتلقى الملـكان ابنهما الذى كان فى عداد الأموات فى أحضانهما ، وصاح المنادي على الملأ يعلن اسم الفائز: « باريس » ابن ملك طروادة وابن هيكوبا ملـكتها .

وتنـاسى الوالدان قصة الحلم وتأويله حين أبصرا وليدهما يرد اليهما فتى بلغ مبالغ الرجال ، قوى الاسر وافى النشاط رائع الجمال قد فاق على أقرانه واترابه وهو بعد فى ريعان الشباب .

وهكذا عاش « باريس » فى كنف والديه مع سـائر اخوته واخواته ، واخذ يتأدب عليهم ويتلقى عنهم حتى انسلخ عن عادات الرعاة الفقراء ، وصار مسلـكه فى كل شيء سلوك الامراء . وعندها فكر والده الملك أن يوفده فى بعض الاسفار ليفيد منها المعرفة والخبرة .

ولما كان الملك منذ مقتل أبيه على يد العملاق هرقل وسبى أخته الصغيرة وارغامها على الزواج من ملك جزيرة سلاميس غير مطمئن البال على مآل أخته بعد أن تواترت الاخبار بما تلقاه على يد زوجها اليونانى من المهانة وسوء المعاملة فقد فكر الملك أن يكون سفر ولده

« باريس » لزيارة عمته فى النـاحية الاخرى من بحر ايجه فلم يعتم الفتى أن أبحر على مركب كبيرة مجهزة ومعه من الهـدايا والالطاف كل نفيس ، وما برحت المركب تمخر به عباب الازرق اللجى حتى اذا بلغ مياه سلاميس ، قصد من فوره الى القصر الملكى حيث استقبله الملك على ماجرى به رسم استقبال الأمراء ، ولـكنه احس بما وراء ذلك من الجفاء ، وعلى الرغم من أنه لم يقض فى ضيافة عمته الا يومين ، فقد لمس ما تلاقيـه الملـكة المسكينة من الفظاظة والضيم ، فلم يطب له أن يطيل المقام عندها . ويضاف الى ذلك انه طوال رحلته فى البحر كان يسرح بخاطره مع الأمواج المتـدافقة المطردة الى أرض هيلين فى جنـوب شـبه الجزيرة اليونانية فكيف يطيل مقامه فى سلاميس بعيدا عنها ، وليس يفصله عنها الا مسافة يوم أو بعض يوم .

غواية هيلين

رفعت المركب مراسيها من ميناء سلاميس وانطلقت منشورة الشراع متجهة الى اسبرطة وكانت الريح مواتية ولـكن « باريس » لم يكفه من المركب انتفاخ شراعها ، بل أمر بالمجاديف ليزيد من سرعة اندفاعها . فما وافت الظهيرة حتى كانت رسله قد تقدمته على ظهور الخيل بالهدايا تستأذن له فى مقابلة ملك المدينة .

وبعد لحظة اقبلت عجلة يجرها جوادان من عتـاق الخيل وكانت جوانب العجلة موشاة بالذهب ومن داخلها بطانة الديباج ويستقلها فارس جميل الصورة فى حلة فاخرة وزينة باهرة . وكانت نظرة واحدة الى مظهره تدل على انه أجنبى قادم من الشرق الفنى .

واستقبل الملك منلاوس فى مظهره المخشوشن البسيط

ضيفه الملكي القادم من الشرق الغنى • وبعد أن بادله التحية وسأله عن موطنه وعن البلاد الآسيوية ، دعاه فى غير كلفة الى مائدته . فقدمت الجوارى أقداح النبيذ والخبز الابيض وقطع اللحم المشـــوى ونحو ذلك من المـأكل البسيط . فما أن فرغا من الطعام ورفعت آنيته اذا بامرأة أشبه بحور الجنان تدخل وعليها مسحة من السأم الحزين وتلقى الى ملك اسبرطة قولا يبدو أنها كانت قد كررته عليه منذ هنيهة : « ألا تزال معتزما السفر ؟ وهل لا تزال عند رأيك فى السفر وحدك ؟ »

وينظر منلاوس الى زوجته كالمنكر لدخولها مع وجود غريب فى حضرته • ولا يسعه الا أن يبادر بتعريف الاثنين ثم الاعتذار لها بأن الوحدة تثقل عليها . وهو مضطر للرحيل الليلة ، فهى تحاول أن تثنيه عن السفر أو تقنعه بالذهاب معه .ولما كان كلا الأمرين متعذرا فهى عاتية غاضبة تكاد من الغضب تنسى نفسها وتخرج عن طورها وما كاد « باريس » يرفع نظره اليها حتى راعه جمالها واضطرم قلبه هياما بها . وما كان هـذا الاضطراب ليخفى على هيلين • ولقد أعجبها ذلك وراقهـــا وأرضى كبرياءها التى جرحها الزوج برفضه اصطحابها واظهاره الصبر على بعادها • وقد زاد من ارتياحها فى هذه اللحظة الى ما أحدثه جمالها فى نفس الغريب من الروعة أنه كان أنضر من زوجها شبابا وأفض اهابا وأجمل طلعة وأفخر حلة وأبهى زينة .

ولما كان منلاوس على أهبة السفر بعد قليل ، فقـــد استجمع « باريس » بقية عزمه وتحامل على نفســـه واستأذن فى الانصراف ، وعلى الاثر خرج ملك اسبرطة فى زمرة من أتباعه بعد أن ودع زوجته وابنته قاصدا الى جزيرة كريت فى زيارة لملـكها فى شأن من الشئون.

وبقيت هيلين فى الدار وحدها خالية بنفسها تفكر فى حالها مع زوجها وانصرافه الى شواغله الكثيرة التى لا آخر لها . ثم تتذكر موقفها الاخير منه والحاحها عليه فى السفر معه ، وتتخيل دخولها عليه وفى حضرته ذلك الغريب وعندها تتوقف بتفكيرها عند هـذا الغريب فيستحضره خيالها فى عنفوان شبابه وريعان حسنه وجماله وحفل زينته وهندامه . وهى لا تنى تصرف هذه الصورة عن مخيلتها ، ولكن الصورة كانت لا تنى تعاودها وتتشبث بها .

وكان اليوم عيد « افروديت » والناس يحتفلون به كافة وقد ازدحمت بهم الطرقات وطافت جموع الفتيات والفتيان ينشدون ويرقصون ، وتتجه مواكبهم الى معبد الربة وقد ازدان تمثالها بقلائد الجوهر واسماط الدر واكاليل الزهر .

ولم تلبث « هيلين » حين جن الليل ان أحست فى نفسها حاجة الى التعبد للربة ، فذهبت ومعها بعض جواريها يحملن القرابين . فما كادت تضعها على المذبح وتستغرق لحظة فى ابتهالهـا حتى كان الى جانبهـا « باريس » يسأل الربة أن توفى له بوعدها .

وقامت « هيلين » فاذا بها و « باريس » وجها لوجه . واذا هو يمسك بذراعها فلا ترده ، واذا هو يخرج بها من المعبد فتنقاد له ، واذا هما تنطلق بهما العجلة كالشهاب الهاوى الى الميناء . وسرعان ما ينشر الشراع للهواء وتتحرك المجاديف فى الماء . فاذا السفينة الطروادية تغادر الارض اليونانية حاملة معها آية الجمال ، حتى اذا صارت السفينة فى عرض البحر تراءى على ظهرها تحت القمر عاشقان متعانقان وكأنهما فى عناقهما الحار شعلة نار .

اول حرب بين الشرق والغرب

شعلة نار كان ذلك الحب ، فهـــو الذى أضرم للمرة الاولى نار الحرب بين الشرق والغرب .

غضبت يونان كلها للمهانة التى لحقت بها فحمـــل السلاح نحو مائة الف يونانى بقيادة أخي الزوج المغصوب « اجاممنون » ملك ارجوس ومشاركة غيره من ملوك المدن اليونانية • وقد أقلتهم الف مركب مجهزة ابحرت بهم من ميناء « اوليس » عابرة بحر ايجة الي الساحل الآسيوى حيث تقوم على مقربة من مضيق الدردنيـــل « طروادة » العظيمة .

وهنا وقع الصدام الذى تغنى بأحداثه العظام أول الرواة المنشدين « هوميروس » واليه فليرجع من شاء من القارئين . أما نحن فحسبنا ان نذكر هنا على سبيل الاختصار ان المدينة الحصينة امتنعت على جيـــوش اليونانيين ولم يسفر القتال المرير بينهم وبين الطرواديين عن انتصار مبين لاحد الفريقين فاعتمد اليـــونان على الحصار آخر الأمر واقاموا علي ذلك سنوات عشرا ، ولولا ركونهم الى الخيانة والحيلة لما كان لهم الى طروادة من وسيلة • وهؤلاء هم قد دخلوها خلسة واخذوا اهلها على غرة فنهبوا أموالهم وســـبوا نساءهم وأمعنوا فى رجالهم وأطفالهم تقتيلا ، ثم أضرموا النـــار أخيرا فى المدينة ، فلم تزل نار الحريق ترعى فى نواحيها وتأتى على أسوارها ودورها ومغانيها حتى صارت أثرا بعد عين

ولقد فقـــد اليونانيون فى هذه الحرب الـكثير من رجالهم وفجعوا فى معظم ابطالهم ، ولـكنهم عادوا ومعهم هيلين آية الجمال العديمة المثال لتشرق من جديد على اسبرطة وعلى يونان كلها فى ذلك الحين ، ثم من بعده حتى اليوم والى أبد الآبدين فى مخيلة العالمين جيلا بعد جيل

شهرزاد

- ١ -

رسالة شاهانية

« يا شقيقى وحبة قلبى ! لقد انقضى زمان طـــويل ولم تشرق فى سمائنا شمس طلعتك وانى وكافة الشعوب من رعيتى لنرغب اليك الشخوص الينا ، الى أخيــك شهريار الذى يحبك ويجلك . فتعال يا أخى واقض بين ظهرانينا أياما كلها نور وحبور .. »

تصفح شهرمان الرسالة الرقيقة ، واسترســل فى الذكريات . تمثل السنين الخوالى وكيف آثرت أمم الفرس والهند والصين مبايعة أخيه شهريار الباســل المقدام والفارس المغوار ، المشرق الطلعة الرائع الحسن. اما هو شهرمان ... ولــكن هــذه أمور اندثرت وعفا أثرها ، ففيم انبعاثها ! ان شهرمان متربع على عرش سمرقند ، متملك على أمة قانعة سعيدة ، تقاسمه الجاه زوجة معبودة الجمال ، وهو مشغوف بها حبا .

ولقد شاء شهرمان ان يطلع فى كامل ابهته على أخيــه شهريار . فأمر بتهيئة القافلة وتحميل التحف والهدايا. وأزفت ساعة الرحيل فذرفت السلطانة البهية المحبوبة

(*) اهداء هذه الترجمة الى مؤلف القطعة الفنية المسرحيــة الموسومة بهذا الاسم الأستـــاذ توفيق الحكيم

هتونا من الدمع مدرارا ، وطوقت زوجها الملك ، وجعلت تقول وهي تمزق شعرها وتدق صدرها :

ـ يالله ! اتحرمني يا صاحب العظمة من نعيم اتملاه فى رنة صوتك ونظرة طرفك أواه ! ما أطول أيامى فى بعادك !.. أواه !.. ماذا أنا صانعة من غير حبيبى ؟ !

وطفقت السلطانة تنتحب ، وطفقت السلطانة تتوسل :

ـ ابق ، يا مولاى أحب السلاطين ! ابق !

فقال شهرمان فى نفسه :

ـ شهريار أخى جميل الصورة ، شهريار أخى مليك موفق على ممالك ثلاث . أما أنا فأملك سمرقند ، وأملك تركستان ، وأملك فوق هذه وتلك سلطانتى ، ابهى المليكات طلعة وابهرهن رواء . الا أنه لابد مفارق سلطانته ، برغم هذين الذراعين اللذين يطوقانه

- ٢ -

الخيانة الاولى

ورحل شهرمان فى قافلة ممتدة طويلة ملبيا دعوة شهريار . حتى اذا اجتاز أبواب سمرقند ، أبوابها المشيدة من المدر والقرميد الوردى اللون ! واخذ الشفق يضرج قباب المدينة ومساجدها ويكسوها بمثل مطارف المخمل القرمزى ، تذكر شهرمان فجأة أنه نسى على احدى المناضد الخاتم الفيروز وهو خاتم ذو فص كبير الحجم اعده هدية لأخيه . فخطر له أول الامر أن يعهد الى أحد رؤساء الجند بالذهاب لاحضار الخاتم ، غير أن شيطان السوء الذى يلازم الازواج الظاعنين ـ وللأزواج الظاعنين عن زوجاتهم شيطان سوء يلازم ـ زين له أن يعود بنفسه لتفقد الخاتم . وبذلك يتاح له ايضا أن يتملى برؤية سلطانته فضلا عن انها ستكون

مفاجأة يانس مقدما حسن وقعها فى نفسها ، اذ تأخذها ولاشك هزة الطرب عند رؤية السلطان شهرمان . وعلى ذلك قفل شهرمان الى المدينة دون أن يشعر به أحد . ووسوس له شيطان السوء بعينه الذى يلازم الازواج أن يربط جواده فى سكون الى شجرة فى الحديقة ، وأن يجوب فى سكون مفارش العشب ومسالك القصر حيث تقع خطاه لينة من غير صوت موقع خياله المنكس على لجة الماء فى الحياض المفروشة بالمرمر .

ثم أفضى من سلم خلفى الى مخادع السلطانة ولم يتكلف الطرق على الباب بل فتحه على آخره فاذا مشهد فظيع ينكشف لعيانه ، سلطانته يراها رأى العين متبهرجة فى أفخر ثيابها وفى حال منادمة مع كبير من ضباط قصره

حيال هذا المشهد هاج هائجه ، واستل حسامه ، وأطاح بضربة مرعبة رأس الآثمين ، وترك الهامتين حيث سقطتا غارقتين فى دم الاثم والقصاص . وانكفأ فى حلة من الدم القانى الى جواده فركبه ولحق بالقافلة .

لكنه كان ملتاع النفس طافح القلب بالحسرة ، يذكر ما فعلت من قديم أمم الفرس والهند والصين وكيف آثرت شهريار عليه هو نظرا لدمامته ، وها هو ذا للسبب عينه ولاشك قد خانته زوجته . وعز على شهرمان تمالك غضبه ومضى محنقا يبدى ويعيد فى نفسه كما يلوك الجواد لجامه .

- ٣ -

لقاء الشقيقين

اقام شهريار أفخم الاعياد والافراح اكراما لشهرمان ، فلما أن وافى كانت حفاوة أخيه بالغة منتهى الحب والحنان ، فتعانقا طويلا وتبادلا وابلا من الأسئلة . غير

ان شهرمان قلما يجيب على أسئلة الماجد شهريار الذى ما أنفك اغر الطرف ، أوطف الحاجبين مقوسهما ، عريض المنكبين متوازنهما ، مرهف القامة ، بل كان يسرح طرفا فاترا فى هذا الصرح وهو صرح أبويه وفيه قضى ايام الطفولة الصافية الوضيئة . ولا غرو فنفسه تخيم عليها سآمة واى سآمة .

وامرشهريار بالمزاهر والفتيات والراقصات البارعات والاغانى المطربات والوجوه الملاح ليسرى عن شهرمان .

وكان هتاف الجموع المحتشدة فىالخارج يدوى ويتجاوب صداه ، الا أن شهرمان ما برح حزينا لا يغلب على حزنه

فتساءل شهريار عما به ؟.. ثم سأله :

ـ كيف مملكتك ؟

ـ مملكتى مزدهرة ازدهار البستان فى الربيع

ـ وكيف شعبك ؟

ـ سمرقند فى رخاء وعز ، ورعاياى يحبوننى حب العبادة ، ويقبلون مطارح ظلى على ارض مجلسى الرفيع

ـ واولادك ؟

ـ يركضون مئات فى حدائقى الغناء التى تبلغ المائتين ، من عذارى فاتنات وفتيان مهرة فى الرماية ، أصطحبهم فى غزواتى البعيدة لفرط شجاعتهم جميعا .

فقال شهريار فى نفسه : اذن فى الأمر امرأة .

ولكنه لم يجرؤ على سؤال اخيه فى هذا الصدد . فان شريعة الحياء فى الاسلام تنهى الرجل عن التحدث فى هذه الأمور ، والواجب أن تظل هذه عندهم أشبه بالمصابيح المستورة لا تفضى بنورها وحرارتها الا لمن لهم حق الاقتراب منها .

وعدل شهريار عن تسلية شهرمان من هذا السبيل ،

وعرض عليه آخر الأمر نزهة طرد وقنص فاعتذر شهرمان وقال :

ــ سامحني يا أخي واجز لي البقاء في القصر أجوس مدى النهار عرصاتة الرحيبة فاني في هذه الدار الفخمة لاستجمع ذكرياتي القديمة ، ولربما فهمت قليلا من هواجسي.

فلم يسع شهريار حيال هذا الرجاء الا أن يستجيب له ، وانصرف . ودوى نفخ الابواق وركض المطـــايا والجياد ، ثم اخذت الاصوات تخف على تطاول المدى.

ــ ٤ ــ

الخيانة الثانية

واذ ذاك جعل شهرمان يجوب عرصات القصر دون ان يدير ناظره فيما حوله ، وانتهى به الحال أخيرا الى رواق فسيح طويل مفروش بالقرنفل والياسمين. وفي نهاية الرواق لمح شهرمان نافذة بلغ مسامعه منها اصوات رخيمة لاغطـــة ، وضحكات رنانة نافمـــة ، ووسوسة الحلي والقلائد ، فادرك شهرمان أن هـــذه ولا شك النافذة التي يتطلع منها شهريار الى حريمه والى رقصـــهن وأفانين دلالهن . فتراجع تسترا منه وحكمة ، ولـكن دفعه الفضول ــ وعلى الاخص ذكرى سلطانته ورغبته في أن يرى أن كان بين أولئك النسوة من تضارعها ــ ونظر شهرمان فكان المنظر السانح لعينيه يفتن الالباب حقا ، فثمة حشد من النساء من أقاليم ممالك شهريار الثلاث ، من فارسية مزججة الحاجبين لدنة المعاطف ، وهندية مفتولة الجسم مذهبة البشرة ، وصينية محدبة الجفون اسيلة الخد . وكن يتضاحكن جميعا ويطفرن ، وعلى حين بغتة ساد السكون . لقد جلست بينهن ابرعهن حسنا ــ السلطانة ذات الحظوة

ولاشك ــ على مقعــد مرتفع مغطى بديباج مزركش بالذهب ، ورفعت ذراعيها البضــتين وصفقت بكفيها فاذا جميع أبواب الحريم العديدة تنفتح ويدخل منها دخول الوحوش الى الحرم فوج من العبيد ضخام الخلقة أشداء • فارتفع من النساء عند رؤية العبيد تصفيق عال وتهليل • ودارت بينهم وبين النساء شر الملابسات

حيال هذا المشهد جاش مرجل الغضب فى صــدر شهرمان وامتلأ غيظا متميزا وحنقا ونقمة مستطيرة ، فان الذى عاينه هذه اللحظة من المنكر يتعدى كل شناعة أخرى ، حتى الذكرى الكريهة المطوية فى قرارة قلبه عن الخيانة التى ابتلى بها . وهم أن يامر بقتل العبــيد والنساء معا ، وانطلق ... الا انه وقف فجاة : وكما ينساب خيط من الماء بين صخرتين وعرتين فقد بدأت بادرة سرور سرعان ما استفاضت حتى غمرت مشاعره

يالله : حتى شهريار الجميل ، شهريار ذو القامة الوافية والعيون النجل والحواجب الوطفاء ! ذو الخصر المستدق يتيه صاحبه بأنه ليمسك ويحتويه بين ابهامه وسبابته ! شهريار المحبب الذى رغبت فيه كل هذه الامم ، شهريار هو أيضا .. يا لله ! يا لله !

تأسى شهرمان ، وابتهج وطابت نفسه . ولما كان لم يشته الطعام ثلاثة أيام متوالية ، وقلما تذوق الألوان التى كانت تحفل بها مأدبة أخيه ، فقد أصدر الامر بأن يمد له سماط فاخر فى الحال ، وجلس الى الصحاف ، والتهم كل ما قدمه اليه الخدم المبادرون ، ثم غط يديه فى السلال الحافلة بالفواكه والثمر الجنى ، واكب عليها مستأنفا الاكل! وعلى هذه الحال من الانبساط والمرح ، وفى عنفوان هذا الانس الفاه شهريار عند عودته من القنص

فوقف شهريار تجاه هذا الموقف مبهوتا ، ثم قال :
ـ ماذا دهاك يا أخى ، وفيم هذا الطرب المفاجىء بعد كل ما كنت عليه من الـكآبة التى أبيت الا أن تخفى عنى سرها ؟

أما شهرمان فانبرى يسأله متأدبا (وهو لايتمالك نفسه من الضحك) ؟

ـ والصيد ؟ ها ! ها ! ها ٠٠هل أصبت رمايا كثيرة ؟
الصيد ؟.. ها ! ها ! ها ! اللاهى .. الجمال ، ها ! ها ! ها !

فتساءل شهريار : ياسبحان الله ! فيم هذه الاسئلة المنبتة الصلة ، وهذه الضحكات التى تشف عما تحتها »

ومضى شهرمان يضحك لأقل كلمة. ولم يهتد شهريار الى تفسير اللغز فألحف على أخيه بالاسئلة :

ـ وبعد كل هذا ، الا تجيبنى ؟ انى لا أطيق احتمال الاستهزاء أكثر مما احتملت . فلما أن ابصر شهرمان أخاه على وشك الغضب ، قال :

ـ أما سبب كآبتى الاولى فلا يصعب شرحها ومن السهل تحديثك عنها . وأما سبب انشراحى بعد ذلك فاسمح لى يا أخى بكتمانه عنك

ولكن الح شهريار ، فروى له شـــهرمان قصـــة الخيانتين . ولمـــا ان انتهى طأطأ الأخوان الحسيران هامتيهما المتوجتين

- ٥ -

مذبحة فى الحريم

ولكن شهريار لم يشأ تصديق هذه المخزية النكراء . وقال فى نفسه وهو ينظر مرآة خياله :

ـ محال ! هذا غير ممكن ! انشهرمان واهم ولا شك،

كما انه يحتمل اختراعه المنكر يلصقه بسلطانات حريمى ليركبنى الخزى كما ركبه ، واستشعر الصغار مثلما استشعره واذ ذاك قال شهرمان :

ـ عليك بالحيطة التى يتدرع بها الناس فى مثل هذه الطوارق . واصطنع الحيلة التالدة ، الحيلة القديمة العهـــد قدم الهواء والكواكب ، ذلك ان تتظاهر بأنك سوف تتغيب أياما ثلاثة ثم لا تكاد تنصرم ساعتان حتى تعود أدراجك على حين غفـــلة . وافتح وقتئذ نافذة الرواق مثلما فتحتها وانظر عبث نسائك

وعمل شهريار بنصيحة أخيه ، وانطلق ، ثم عاد وقد شاهد المنظر الفظيع .

ولقد جن جنونه من الهول والاستنكار ، وســارت سورة غضبه ونقمته فأمر فى الحال باعمال القتل فيهن جميعا ، واشترك فى المذبحة مشمرا محتدا ، يقتل بيديه طعنا بالسيف العريض الصفحتين ، وبالخنجر المطرور، وسنان الرمح ، يقتل ، ويقتل من غير رحمة نساء حريمه المنكودات • وفاض رشاش الدم من القصر ، وقد استحال الى مجزرة• وتصاعد الانين ثم أعقبه سكون الموت الرهيب

- ٦ -

المرأة تغلب الشيطان

ارتاع شهريار وشهرمان نفسهما من هذا المشهد ، فوليا عنه معرضين ، ومضيا يتمشيان معـــا بمحــاذاة شــاطىء البحر حيث تقبـــل الامواج جائشة زاخرة الغوارب ، وتموت عند قدميهما • وكأنما جلبة العباب وعليه أشعة الشمس المتكسرة المرفرفة كالفــراش على ذوائب اللجج قد سحرت انظار هـــذين التعسين وأنامت خواطرهما الثائرة المعذبة •

فاذا بهما يبصران عمودا هائلا أسود يرتفع من جوف البحر العميق ويتعالى مقبلا عليهما تصحبه زمجرة كزمجرة البركان ، فداخلهما شيء من الفزع على رغم شجاعتهما المتهودة . ولما كان العمود يتابع الاتجاه صوبهما وتزداد جلبته شدة على شدتها ، ركنا الى الصعود فوق شجرة ينتظران ما يجرى .

انشق العمود على مقربة من الشجرة التى اعتصم بأعلاها الملكان ، وخرج منه جنى هائل ، عملاق ، فظيع المنظر ، حتى لقد ارتجفت الشجرة من شدة ارتجاف الملكين الشقيقين لدى رؤيته . وكان المارد يحمل فى كفه صندوقا كبيرا مغلقا بسبعة أقفال لكل منها سبعة مفاتيح . واقبل المارد على صندوقه يفتحه فى عناية ورفق بمفاتيح لا يدخل عددها تحت حصر ، واخرج منه علبة من البلور تشف عن أفتن مخلوقة يتصورها الخيال. وأشرق وجه الجنى وهو مكب عليها ، يتأمل عينيها الدعجاوين المتطلعتين كعين الطفل الغرير ، وابتسامتها الحلوة الصافية كالوردة المفترة . وقال لها بصوت حنون :

ــ ياسيدة الحرائر ، اخرجى من خدرك

وفتح لها ابواب العلبة وهى ايضا ذات مراتيج ومغالبق

ــ اخرجى ، واجلسى على الرمل ومدى ساقيك لأوسدهما رأسى المتعب فانى أريد النوم . ياسيدة الحرائر التى قد اختطفتها ليلة عرسها !

فخرجت الغادة ومدت للجنى ركبتها وسرعان ما استغرق فى النوم ، واختلط شخيره المروع بهدير البحر

واذ ذاك سرحت الغادة الفاتنة حولها بصرا متحيرا ، ثم رفعت عينيها الى أعلى الشجرة فلمحت هنالك الملكين ، فرفعت من فوق ركبتها رأس الجنى وأوسدته الارض ، ووقفت تحت الشجرة تشير اليهما بالنزول .

ولكن الملكين كانا من التحرز والعقل بحيث خافا ان هما نزلا أن ينتبه المارد النائم على حين فجاة ، فأشارا الى تلك الفـــادة المجهولة بأنهما يخشيان رفيقها ، فألحت الغادة الفنانة عليهما من غير حياء وأومأت اليهما بالطمأنينة وبأن الجنى فى سبات عميق لايوقظه فى هــذه الساعة موقظ . ولم تزل بهما حتى نزلا من الشجرة وأشبعا شوقها اليهما . ثم قامت الى العلبة التى كانت رهينة فيها فأخرجت حلقة من البللور نظمت فيها خواتم عدة وأخذت تهزها وتسمع لصليلها ، كأن لرنين هذه الخواتم عندها لذة لا تعادلها لذة • وكان عدد الخواتم يربو على المائة خاتم

والتفتت الى الملكين وقالت :

ـ هذه الخواتم هدايا من السادة الأمراء والمغمورين وكافة من لاقيتهم من الرجال ولهوت واياهم على غفلة من هذا المارد . لقد اختطفنى ليلة عرسي وحبسنى فى هذه العلبة واودع الصندوق قاع البحر العجاج المتلاطم الامواج • ومع كل هذا تمكنت كل هذه المرات من التغلب عليه • ذلك أن المرأة ـ يا سادة ـ لا تغلب على مآربها • فاعلموا ذلك • ومن ذا يستطيع أن يحول بينها وبين ماتريد اذا هى أجمعت رأيها وبيتت نيتها عليه ؟ فالغدر حشـو ثيابنا • والرجل المعتوه من يخال انه خرج سالما موفوز العرض بعد دخوله فى أسرنا ، ووقوعه فى شباك غرامنا •.

فقامت فى شهريار وشهرمان عند سماع هذه الكلمات كراهية عامة للمرأة ، وأضمرا لها المقت الشديد والنقمة التى لا مثيل لها .

- ٧ -

فعل اليأس

وفى هــذه الحالة النفسية من زوال الايمان بعهود

النساء أجمعهن استأنف شهرمان طريقه الى ملكه .

اما شهريار فعاد الى قاعدة سلطنته ، وامر باصدار مرسوم يعلن أمم الفرس والهند والصين بأن ارادة الملك شاءت من اليوم أن يتخذ كل ليلة عروسا جديدة ، وفى الصباح يكون مصيرها الى الجلاد . وهذه العروس يختارها فى أول الأمر من بين بنات خاصة البلاد وعليتها ، ثم من كل أسرة فيها فتاة فى ميعة الصبا وريعان الحسن .

فلما ذاع هذا المرسوم من مملكة الى مملكة ، ومن مدينة الى أخرى ، ومن بلد الى آخر ، ضج الناس وعم العويل وغسلت الأمهات بالدموع أعتاب المنازل ، وضرب الآباء كفا على كف توجعا والتياعا ، وأصعدت الفتيات الزفرات فى اثر الزفرات ، وأجهشن فى النحيب ما اسعفهن النحيب . ولكن لا سبيل الى معارضة شهريار الذى يعبده رعاياه ويدينون له . وجرت الأمور على حكم القانون الجائر فكانت تدخل الى مخدع السلطان كل ليلة عذراء فى حجابها ، ممتلئة بحرارة الحياة ووقدة الألم ، لتخرج فى الصباح من الباب الآخر وتنزل الى غيابة القبر باردة برد الأبد .

وكان الجلاد فى قصر شهريار جالسا طيلة الليل على سلم الباب الخلفى للمخادع الملكية وكم رأى الراءون تحت اضواء القمر أو لمحات النجوم بريق فأسه المتربصة ، المتعطشة للدم .

وقد طم العباب القانى ، واجتاحت اللجة القصور ومنازل وجوه المملكة وكبرائها ، وهى الآن تطرق أسوار بيت الوزير .

والوزير يعلم الا مطمع له فى رحمة السلطان وتجاوزه على الرغم من حسن تقديره له ، وانه لا مندوحة مقدم

الى الملك ابنتيه واحدة بعد الاخرى شهر زاد الحسناء التى ليس لها شبيه يضارعها ، واختها الصغيرة دنيا زاد . وكان الوزير يتخاذل وتخور قواه عندما يتمثل هذا الخاطر ، ولم تعد شفتاه المتقعتان تفتران عن كلمة
فسألته ابنته الكبرى شهر زاد :
ــ يا أبتى ، ما بالك ساكتا هذا السكوت ؟ وما هذا الوجوم ، حتى ليغيب عن بنتك معرفتك لتغير سماتك الوضيئة ، وخفوت نغم صوتك المحبوس ؟ !
فلم يحر الوزير جوابا .
فرفعت شهر زاد هامتها وقالت :
ــ أنا عالمة .. أنا عالمة بعلة همك وانشغالك .
وكانت شهر زاد غزيرة العلم متبحرة فى كل شىء . تحفظ عن ظهر قلب نيفا وعشرة آلاف قصيدة ، وقد جمعت عشرين ألف كتاب من كتب التواريخ والسير ودواوين الشعر والقصص . كما أنها تعرف أساطير أمم ايران والصين .
واستطردت شهر زاد :
ــ أنا عالمة يا أبى السبب فى فرط حزنك . أنا عالمة به ، وانى متمنية عليك شيئا واحدا ، وهو أول سؤال أسالك اياه فى حياتى ، خذنى هذه الليلة الى قصر الملك شهريار ..
ــ ماذا تقولين يابنتى ! أو تقدمين نفسك للجلاد ، ألا تنتظرين لعلى موفق فى اخفائك والنجاة بك من حكم هذا المرسوم المهلك ؟ !
فقالت شهر زاد :
ــ كلا يا أبتى ، لست أنتظر . ينبغى على انقاذ أخواتى فى الاسلام ، يجب أن أقى جنسى من الفناء . فاما أن أكون آخر من تعرضت لملاقاة الموت على النطع ، وأول من عاشت ونسخت حكمه ، أو أكون الحلقة

التى تختم سلسلة هذه الفظائع فأفتدى بحياتى حياة الألوف المؤلفة .

فناداها الوزير :

ـ بنيتى ! بنيتى ! اذكرى ما سوف تجلبينه علينا من الألم المضيض ، وطرحت دنيا زاد الصغيرة بنفسها عند قدمى شهر زاد متوسلة ولكن شهر زاد بقيت راسخة لم يتزلزل عزمها . هى نفحة من عند الله لابست هذه العذراء الفارسية فانبعثت فيها روح التضحية فى أعلى مراتب ناموسها ، وهو أن يضحى الفذ من صفوة الأفذاذ نفسه من أجل الدهماء والسواد الاعظم . من أجل الجميع .

ـ ٨ ـ

شهر زاد

هذه شهر زاد قريرة النفس مطمئنة رافلة فى ثيابها الشرقية ، لم تتدرع من أسلحة النساء ووسائلهن الى امتلاك القلوب والألباب بتبرج ولا بدلال وانما تدرعت بأمضى اسلحتهن وانفذها الى الصميم : حسن الحديث ورخامة الصوت .

هذه شهر زاد تدخل قصر الملك فيطلع اليها شهريار.

وكان عبير الورد يسرى بنشوة المدنف ، والقمر يفضض الشرفات الممتدة ، والياسمين يعبق والبلبل الولهان يناغى الليل بهتفاته الحارة .. وثمة الفتاة الحسناء الفضة الصبا عند قدميه ، فى مخدع حافل بالرياش ، يتضوع فيه شذا بخور المجامر المدلاة .

أتنعم النفوس التى شاع فيها الخيال الشرقى بمنظر من مناظر السعادة أبهج من هذا ؟! ومع هذا فالموت ماثل

بين معالم تلك السعادة وشاراتها يقول للفتاة الفضة الشباب:
ـ غداً مع مطلع الفجر سيكون لى جسمع اللذيذ ، وأنفاسك العاطرة ، ووميض عينيك النجلاوين ، فى الفجر ستكونين لى ! أنا الذى سأضمك وأنيخ على صدرك

ويوسوس الى الملك الشاب الجميل :

ـ لك الشكر أيها السلطان ، على ذلك القطاف اليانع الذى تسمح لى كل يوم بجنيه . ولم ترتعد شهر زاد وهى تتخطى عتبة المخدع ولم ترتجف ، مع انه نذير الحمام ودنت الى الملك شهريار فأجفل وقال فى أعماق طويته :

ـ ياللصبية الحسناء ! كأنى بها لا تخاف ! سنرى .

وضحك . وذكر السلطانة التى خانته ، فأحس من جديد بالقسوة المبرمة ، وشهر زاد ـ كغيرها ممن سبقن ـ تستل ضغنه .

وكانت جالسة . وهى تلاعب عقداً طويلا من الزمرد فتصطدم حباته بحبات الكهرباء « الكهرمان » فى سبحة السلطان فتبسم لذلك . وهى غير خائفة .

وبعد قليل شخصت اليه بعينيها الطاهرتين وهمست فى دلال :

ـ مولاى لى رجاء اليك قبل أن يعالجنى الحمام المنتظر ... وهو اذن باحضار أختى الصغرى لتكون قبل الموت الى جانبى . فأنا أحبها وقد وعدتها أن أقص عليها حكاية هى من زمان طويل متشوقة الى سماعها .. واريد أن أبر بوعدى قبل أن ألاقى حتفى فأذن لأختى بالمجىء

فتعجب شهريار لهذا الطلب ، واندهش لجرأة شهر زاد وسكونها ، وأمر بدافع الفضول باحضار الصبية

وأقبلت دنيا زاد . وقالت كما سبق أن أوصتها أختها :

ـ يا أختي ، قصي على الحكاية التى حدثتنى عنهـا منذ هنيهة قبل مفادرتنا .

فانشغل بال السلطان فجأة ، وســاءل نفسه عما ينطوى وراء كلمات الاختين . أهو شرك ؟ أهى مؤامرة ؟

واستأذنت شهر زاد فى الحديث ، فأباح لها فاستهلته ببيانها الساحر وصوتها الرخيم .

- ٩ -

نجاة الف عذراء وعذراء

وادرك شـهر زاد الصبـاح ، فسكتت عن الـكلام المباح ، وكانت قد بلغت فى حكايتها الى أدق المواقف واشدها تشويقا الى ما بعدها .

فقالت دنيا زاد فى طهر وغرارة لاختها :

ـ يا أختى ، ما أطيب حديثك وأعذبه ، وما أشـد فجيعتى أن يطلع الصباح ويحم نذيره ، وأحرم أبد الدهر من تتمة حكايتك ، ولكن ! لعل السلطان يبقيك لمدة أخرى

فتحير السلطان وتقاسمته الأفكار ، ولكن غلبت عليه الرخامة الساحرة فى صوت شهر زاد وخلابة بيانها فى استحضار أشخاص الحكاية أحياء أمام عينيه ، فجاد عليها بمهلة ليلة أخرى واحدة .

وتلاحقت حكايات شهر زاد متصلة متداخلة بحيث لايدركها الصباح فتسكت عن الكلام المباح ، الا والقصص مقبل على أهم ما يتطلع الى معرفته السامع ، والمتعة به على طرف اللسان ، لم ينقطع منها أرب المستمتع .

وتعرف الملك لأول مرة فى حكايات شهر زاد ، رعيته فى شتى خصالها وألوانها ، رعيته المسكينة الدائبة على العمل ، الغنية الخيال ، الواسـعة الحيلة ، المقحام

المقدام ، الساخرة الماجنة ، الكدود ، رعيته الشديدة البأس المفتولة العضل . تلك الشعوب التى عاشت فى آسـيا فى القرون الوسطى وخلدت ذكرها فى النقوش والصناعات ، والتى لايستعرض حيـاتها جيـل من الأجيال التى قدمت بعدها فى الغرب أو الشرق .

***

أبصر السلطان شهريار فى هذه الحكايات ـ كأنه منها أمام مرآة سحرية ـ أحوال الأمم التى وكلت نفسها الى رعايته ، وأحس أنهم جميعهم على اختلاف طبقاتهم أهله وعشيرته ، بل أقرب من ذوى قرباه . فكيف يورد بناتهم وأفلاذ أكبادهم حياض المنية !

ولان شهريار شيئا فشيئا ، واستطردت الحكايات يوما بعد يوم . أما الوزير والد شهر زاد فقد بكر الى ديوان الحكم فى صبيحة الليلة الاولى يحمل الكفن لابنته وحضر الملك ، وولى من شاء الى آخر النهار ، وانفض المجلس ولم يخبر الوزير عن نعيها .

وفى اليوم الثانى بكر الوزير الى الديوان ومعه الكفن، وكذلك فى اليوم الثالث والسـلطان يتغاضى ولا يشير بكلمة الى مصرع شهر زاد . فترك الوزير الـكفن فى احدى زوايا بيته ، وعلت وجهه ابتسامة الزهو والحبور

وكانت شهر زاد تعد على أصابعها .

واحدة ، اثنتان ، ثلاث ، خمس ، سبع ، تسع ، مائة ، مائتان ، ثلاث مئات ، ألف بنت وبنت نجون ! نجت عذارى ايران ، نجون على يدى !

وعقـد الملك قرانه على شهر زاد استجابة لرغبة شعبه ، وتلبية لداعى حبه ، وأصبحت شهر زاد مليكة مسيطرة على قلبه وعلى الممالك الثلاث

التاريخ

ـ سلامبو عذراء قرطاجنة

ـ حورية الغابة « مدام بومبادور »

سلامبو عذراء قرطاجة

من الدول التى قامت على شواطىء البحر الابيض المتوسط منذ قديم : دولة شرقيـة فينيقيـة هى « قرطاجة » فى شمال افريقية ، كانت فى القرن الثالث قبل الميلاد اعظم واغنى دولة تجارية ، بفضل أسطولها البحرى الضخم الذى ملكت به السيادة على هـذا البحر، واخضعت لسلطانها معظم جزائره حتى الشاطىء الاسبانى ، فضلا عن بعض الموانى الاسبانية ـ ودولة أخرى غربية لاتينية هى « روما » التى تمت لها بفضل فيالقها البرية الغلبة على سائر شبه الجزيرة الايطالية

وكان الحكم فى كل من الدولتين وقتـذاك يتولاه مجلس من الشيوخ أو القدماء ، الى جانبه فى قرطاجة مجلس يتألف من مائة ـ وقيل بعض مئات ـ من الاعيان الاغنياء ، وكان الحاكم ينتخب كل عام ويسمى فى روما « قنصلا » ، وفى قرطاجة « صوفيت » والحاكم فى كل منهما اثنان . وكان الحكم فى الجمهوريتين تحت اشراف هذه المجالس وبتوجيه منها

وفى ظل هذا النظام ، مضت كل من الدولتين تتزايد قوتها ، وتتسع رقعتها ويسـتفحل امرها وتقوى شوكتها ، حتى أدت المنافسة بين الدولة الفتية الغربية والدولة الفنيـة الشرقيـة ، على مد نفوذهما وراء

حدودهما ، وبسط سلطانهما على غربى البحر المتوسط ، الى أن وقع بينهما مالابد من وقوعه من التصادم فى البر والبحر ، ونشوب تلك الحروب الطاحنة التى استغرقت اكثر من المائة عام ، وكان انتهاؤها رهنا بالقضاء على احداهما ..

وجدير بالذكر هنا ، ان قرطاجة على الرغم من طائل ثروتها ومظاهر قوتها كانت تكمن فيها مواطن ضعف ، خلت منها روما غريمتها

وفى مقدمة هذه المواطن الضعيفة فى قرطاجة ، أن أهلها كانوا فى شغل بالتجارة الواسعة ومكاسبها الوافرة عن الاضطلاع بحمل السلاح ومعاناة القتال فى الحروب التى تخوض قرطاجة غمارها ، اعتمادا على قدرتها المالية على تعبئة الجيوش التى تحتاجها من بين ألوف المقاتلين الاغراب المرتزقة ، كأنما الولاء والاخلاص والاستبسال مما يمكن شراؤه بالمال . فكان المشاة فى جيوشها من الغاليين والاسبان ، وكان النوميديون من بدو الجزائر هم الفرسان ، ولا أحد من أبناء قرطاجة غير القادة ، وهؤلاء الجند المرتزقة من شأنهم اذا كتب لهم الانتصار أن يأخذهم الاغترار الى حد التبجح حتى ليس تؤمن بادرتهم ، واذا استشعروا الهزيمة والانكسار سارع اليهم التخاذل حتى لتخشى خيانتهم

وغير خاف ان مواطن الضعف هذه وغيرها ، كان يصرف الانظار عن عوارها ، ويرجىء ظهور معقباتها وآثارها ، ما كانت تدره على قرطاجة تجارتها المتوغلة فى شتى الاقطار وفيما وراء البحار من الارزاق . والمكاسب الطائلة ، وما كان يحمله اليها أسطولها من مستعمراتها المتعددة المنتشرة — قريبها وبعيدها — من الفضة

والمعادن ، فضلا عما جاد به الزمان عليها ـ فى تلك الحقبة التاريخية ـ من الرجال ذوى العبقرية الحربية النادرة المثال ، حتى شهد لهم أعداؤهم الرومان أنفسهم بالبطولة فى القتال ، مثل « هاميلكار برقة » الشهير ، ومن بعده ابنه الاشهر «هانيبال» الذى تبارى المؤرخون الرومان فى وصف ما كان من زحفه على روما ، عابرا اليها جبال الالب الشاهقة بألوف الرجال ، ومعه الكثير من عدة الحرب والافيال

كانت هـــذه الحال بخيرها وشرها ، حال قرطاجة القديمة حين وقع أول صدام بينهما وبين روما الفتية

وكانت روما هى البادئة فى تعجيل هذا الصدام حين عبرت فى ربيع سنة ٢٦٤ ق.م . المجاز الضيق الذى يفصل بين آخر حدودها الجنوبية فى الجزيرة الايطالية ، وبين صقلية التى كانت قرطاجة تحتل معظمها وتعتبرها داخلة فى حوزتها

وهذه الحرب من اجل صقلية ، تعتبر صفحة جديدة فى تاريخ روما الحربى ، لانها كانت أول الحروب البحرية التى اشتبك فيها الرومان ، اذ لم يكن للرومان حينذاك أسطول . فلما ادركوا مبلغ الحاجة اليه ، بادروا الى بناء ما يربو على مائة سفينة فى شـــهرين . وحاربوا القرطاجيين فى البحر بالقرب من « ميليس » وهى ميناء من موانىء صقلية سنة ٢٦٠ ق.م. فسجلوا انتصارهم البحرى الاول . ثم دامت الحرب بينهما سجالا عدة سنين . ولكن نكبات الاسطول الرومانى اخذت تتكرر المرة بعد الاخرى بسبب العواصف والانواء وهياج البحر واعتلاج امواجه ، حتى رسخ فى الجيش القرطاجى فى صقلية فى هذه المرحلة الاخيرة من الحرب ، قائد نابغة

خلد التاريخ اسمه ، وهو هاميلكار برقة

ولقد واصلت رما توجيه الفيـــــالق بعــد الفيالق لمحاربته على أرض صقلية ، فكان يرد قادتهم مدحورين ، الواحد بعد الآخر ، واخيرا أخذ الاثرياء الرومان على انفسهم بذل الوافر الكثير من ثرواتهم لبناء أسطول كبير اتاح للقائد الرومانى أن ينتصر على القرطاجيين فى معركة بحرية تاريخية فاصلة بالقرب من جزائر « ايجانيس » سنة ٢٤ ق.م. وهذه السنة تعتبر نهاية الجولة الاولى للحرب بين روما وقرطاجة . وفيها تم الصلح على أن تنزل قرطاجة للرومان عن جزيرة صقلية كلها

وكان الفريقان مع ذلك يعلمان أن هــذا الصلح لن يدوم ، وانما هى هدنة الى حين

ولكن قرطاجة فوجئت بعد الهزيمة بما هو شر منها ، وهو خطر الثورة فى عقر دارها ، على أيدى الالوف من جندها المرتزقة الذين يطالبون ـ قبــل تسريحهم ـ بالاعطيات المتأخرة لهم ، وكانت خزائن الدولة التى استنزفتها الحرب تعجز عن الوفاء بحقوقهم

ونحن اذا ذكرنا ما يعقبه الانكسار عادة من سقوط هيبة الحكم والحاكمين ، لم نعجب من انفساح المجال وقتذاك لظهور شخصيات بين الثوار بارزة السمات غير عادية الاطوار . ولقد عنى المؤرخ القديم « بوليبيوس » بتدوين أسمائها وذكر طرف من فعالها ، ولكن التاريخ لا يذهب الى أبعد من ذلك ، بل يكتفى بذلك وأقل من ذلك ..

وهنا ، لا نجد أمامنا ـ نحن المتأخرين ـ غير مؤلف القصص التاريخى ، فهو وحده الذى يحتفى بأمثال هذه الحقبة التــاريخية ، مســتعينا بما أوتى من قوة

الاستحضار ، والقدرة على التصوير ، ودقة التحليل وروعة التعبير ، فضلا عن الخيال المبدع الخلاق ، لاعادة كتابة التاريخ بعد ملء الفجوات ، وترميم المتكسر هنا وهناك ، واستكمال مقومات الحياة . فاذا الحقبة التاريخية التى لا نذكر منها غير أسماء الأعلام وأرقام التواريخ ، قد أصبحت حقبة حية ، جياشة بالحياة ، موصولة بنا ، ممتزجة بحياتنا ، مخلوطة بنفوسنا ، حتى لتفشى فى النوم أحلامنا ، ولا تكاد فى اليقظة تفارق اذهاننا . وهذا كله بفعل التعاون الوثيق بين القصة والتاريخ ..

بين التاريخ والقصة

هذه الحقبة التاريخية الخطيرة التى قام فيها هؤلاء الجند المرتزقة فى قرطاجة بثورتهم الدموية المثيرة ، اجتذبت اليها الروائى الفرنسى الشهير « جوستاف فلوبير » وكان وقتئذ تحت تأثير الملل من استغراقه أربع سنوات طوال اختنق فيها بالجو الواقعى الثقيل الذى صحبه زمانا فى نورمانديا بأقصى فرنسا الشمالية ، حيث كان يقضى سنوات حياته فى قراءة الادب وحيث تمثل شخصيات تلك الآية الاولى من رواياته وهى « مدام بوفارى » القصة الواقعية العصرية التى استقبلت حين ظهورها عام ١٨٥٧ أسوأ استقبال من القراء والقضاء معا ، وان كان تعرض القضاء للمؤلف كان بمثابة الاعلان للقصة التى ذاع بعد ذلك أمرها ، فتكرر نشرها وتعددت طبعاتها ، وترجمت الى سائر اللغات العالمية ، ومنها ترجمة كاملة باللغة العربية للأستاذ بولس غانم فى سفر كبير

ولما كان فلوبير تقترن فى طباعه ، مع الروح الواقعية

ممثلة فى ملـكة الملاحظة ، روح الرومانتيكية ممثلة فى النزوع الى الخيال ، فقد كان الجو الواقعى العصرى للقصـــة الاولى « مدام بوفارى » دافعا للمؤلف على التطلع بعيدا عن جوها ، الى آفاق أبعد ، الى عوالم مثل عوالم الأحلام لفرط بعدها فى المكان والزمان ، مثل مصر القديمة التى زار آثارها سنة ١٨٤٩ على أمل تأليف قصة قديمة من وحيها . ولـكن ، أنى له بمعرفة مصر القديمة حق معرفتها وليس بالامكان الاحاطة بتاريخها الطويل وآلهتها الـكثيرة ، وعلى الاخص فنها العظيم فى آثارها الخالدة العظيمة ، مع ما عليه فلوبير من عمق الشعور بصدق القول المأثور « الفن بعيد الشقة والحياة قصيرة المدة »

وسرعان ما انصرف الروائى الفرنسى بتفكيره عن مصر الى غيرها من بلاد الشرق الى فارس وأشور ، هنالك حيث يرمز الى الجبروت الملـكى بتلك الثيران المجنحة وعلى رأسها التيجان المثلثة ، ثم الكهان وعليهم الطيالسة ذات الأهداب المذهبة ، والعلماء الاعلام من حملة الاقلام ذوو اللحى المصفرة المزرفنة فضـــلا عن تلك الصفوف الكثيفة المدججة السلاح من المقاتلة . ولكن الباحثين من أهل التخصص الأثريين كانوا لم يفرغوا بعد من نفض الغبار عن معظم الآثار فى العواصم القديمة الفارسية

واخيرا تراءت لخيال المؤلف الفرنسى من وراء ذلك المرتفع الداخل فى البحر الابيض المتوسط ، تلك المدينة البحرية القديمة «قرطاجة» التى كانت وروما الخصمين اللدودين طوال اكثر من مائة عام استحكم فيها بينهما كالقدر المحتوم ذلك الخصام الذى لا سبيل معه الى السلام بعد أن تملـكته شـــهوة الانتقام . واذا كانت

قرطاجة آخر الأمر قد خرت صريعة ، فانها ما زالت في سجلات التاريخ الروماني ذلك الكابوس الجميل المخيف الذي يتبارى في وصفه أعلام المؤرخين اللاتين وكأنه لايزال يتحدى وراء غياهب الماضي بلادهم فيملكهم الاعجاب والروعة والهول معا ، وهم يستحضرون عظمة هذا العدو اللدود ممثلة في أساطيلها البحرية وجيوشها البرية وفي طليعتها الافيال الافريقية تحت امرة هذا أو ذاك من عباقرة الحرب ، وبخاصة العملاق « هاميلكار برقة » وابنه « هانيبال » بطل الابطال

وكذلك ما كان من مظاهر الثروة عند هذه « العدوة الفنية » التي تزهو بما يزين عاصمتها من ضخام المعابد وفخم القصور ، ويعيش تجارها الاغنياء في النعيم البالغ حد الترف والبذخ في الارجوان والذهب ، بما يحوزون من خيرات البلاد وما يحمل اليهم من أقاصي المستعمرات ..

أمام هذه الصور من القوة والثروة التي كانت تمثلها ذكريات قرطاجة لم يكن يجد مؤرخو الرومان متنفسا لما لا يزال يأكل صدورهم من الحقد القديم الا أن يبالغوا في تصوير أعدائهم القرطاجيين في أبشع صور ذوي الشهوات المنحطين وأهل الغدر والقسوة المتوحشين ، لكي تظهر دولة روما الى جانبهم ، مهما ارتكب سادتها من المظالم في حق الرعايا المحكومين ، ومهما أنزل قادتها من الويلات بالأعداء المهزومين ، في مظهر المتميزين وحدهم بالحضارة والقانون ، والمتميزين فوق ذلك بأنهم أهل المروءة وصفوة الكرماء المتسامحين

ولم يكن للروائي الفرنسي « فلوبير » مندوحة من الرجوع الى تواريخ هؤلاء المؤرخين الرومان ، لعدم

وجود غيرها بين يديه ، وخاصـة ان المؤرخ القرطاجى الذى كان يمكن المطالبة بالرجوع اليه غير موجود . ولكن فلوبير الذى لا تخلو موضوعاته العصرية الواقعية من عنصر رومانتيكى فى الصميم من مفاهيمها الخفية ، ما كان ليسعه الا الاستجابة للرومانتيكية كل الاستجابة امام موضوع يرجع تاريخه الى الزمن القديم ، وفى حقبـة بطولية يحمى فيها القتال بين العمالقة الابطال من شتى الأجناس ، ويلعب فيها الحب والجمال دورهما الفعال

لا عجب اذن أن يستجيب فلوبير الرومانتيكى أشـد الاستجابة للرومانتيكية ، فيتحول من الكاتب الروائى الى الشاعر الملحمى ، من الروائى الذى واجبه الاول الملاحظة وتسجيل الواقع ، الى الشاعر الذى له فوق ذلك حق الابداع والخلق . وليس الابداع والخلق هنا من العدم ، كما قد يزعم لأنفسهم بعض أهل الفن ، بل من المواد الـكثيرة المتفرقة التى عكف الفنان على جمعها ، وبعد جمعها أطلق العنان لنفسه لاظهار كل ما يكنه من النزوع الرومانتيكى ، ولو بلغت به شطحات الخيال الى المدى القصى ، واشـتدت به الانفعـالات الى الحد الهستيرى ..

ولقد اعتمد فلوبير فيما جمعه من معلوماته التاريخية عن ثورة الجند المرتزقة التى قام عليها صرح قصـته « سـلامبو » على المؤرخ الرومانى « بوليبيوس » ، ــ وهو أقرب المؤرخين الأقدمين عهدا بتلك الثورة وما بعدها ، وأوثقهم مصدرا لتاريخها بالنسبة الى المصادر الاخـرى ــ ولـكن الروائى الفرنسى لم يجد فى هذا المصدر المتحفظ الوقور غير الخطوط العريضة العامة لمشروعه القصصى ، فأخذ يتصيد المعلومات عن قرطاجة

خاصة والشرق عامة من سائر المؤلفين ، من الأقدمين اليونان واللاتين ومن المحدثين الفرنسيين سواء أكانوا مؤرخين أم جغرافيين ، أو من علماء التاريخ الطبيعى أو الشعراء أو المتخصصين فى الفنون الحربية وغير الحربية ، أوذوى الخبرة بالحجارة الكريمة أوالمشتغلين بالطب ، فضلا عن الرجوع الى تقارير الحفريات والكتابات الأثرية والموسوعات الكبرى

هذا جميعه فرضه المؤلف على نفسه ، ولكن هذا جميعه لم يكن كافيا لاقناع ضميره فتكلف السفر فى ابريل سنة ١٨٥٨ ليرى بعينى رأسه موقع قرطاجة شمالى تونس ويطيل التأمل فى آثارها ويتجول فى ضواحيها وأطرافها ، يسرح طرفه فى طبيعة أرضها وصفحة سمائها ، متنسما لوافح رياحها التى تسفو رمال الصحراء وتحمل وقدة رمضائها . وامتدت اقامته بين آثار قرطاجة ثلاثة اشهر طوال ، فلما عاد بعدها الى باريس قال وهو راضى النفس مطمئن البال : « انى الآن أعرف قرطاجة حق المعرفة »

وعكف فلوبير منذ ذلك الحين أكثر من أربع سنوات على كتابة قصته عن قرطاجة أثناء ثورة الجند المرتزقة ، معتمدا بوجه عام — كما أسلفنا القول — على الاحداث التاريخية التى رواها المؤرخ القديم بوليبيوس ، مع الاحتفاظ بالشخصيات التاريخية فى أدوارها الحقيقية سواء فى ذلك زعماء الثورة أو القادة من سادة قرطاجة نفسها أو بعض الحلفاء من زعماء فرسان البادية الكبرى الذين يعرفهم التاريخ باسم النوميديين

وحتى الشخصية النسائية التى أدار عليها العقدة الروائية فانها كذلك حقيقية من حيث كونها ابنة للقائد

القرطاجى العظيم هاميلكار والزوجة التى وعد بها حليفه زعيم فرسان البادية الأمير نارهوا

وأما ما عدا ذلك من تفصيل للوقائع التاريخية ، ورسم الملامح الجسدية والسمات النفسية للشخصيات التى لم يسجل التاريخ غير أسمائها وأدوارها الرئيسية ، ثم الكثير مما قيل فى وصف المظاهر الحضارية والحياة الاجتماعية وسائر ما يتعلق بالوقائع العاطفية والقصص الغرامى ، كل هذا من نصيب فلوبير ، وهو ـ كما قلنا ـ لم يخلقه من لا شىء ، بل هو من قبيل التأليف الفنى للصور التى جمعها عن قرطاجة وما يشبه قرطاجة من الشعوب القديمة السامية ، نفخ فيها المؤلف بعد تأليفها من روحه الشعرى وخياله الرومانتيكى وتصويره الحسى ..

ولم يكتف بذلك بل أكثر من المؤثرات ، فكان من تكديسها مع المبالغة فى أحجامها وألوانها ما جعل اللوحات الوصفية العظيمة لهذه القصة القرطاجية شبيهة بالديكور المسرحى ، ثم جاءت مواقف الحب فيها كذلك ذات تأثير ميلودرامى . وهذا يفسر لنا ما نالته هذه القصة العظيمة من نجاح عظيم حين أعدت بعد ذلك للاخراج على المسرح الغنائى ، ثم تضاعف بعد ذلك نجاحها حين أخرجها على الستار الفضى أعلام الفن السينمائى ..

وليمة فى قصر هاميلكار

وراء أسوار قرطاجة فى حدائق قصر القائد هاميلكار فى ضاحية « ميجارا » ، يقيم المجلس الاعلى وليمة من قبيل الاسترضاء والتهدئة للجيش الجرار من : الجند المرتزقة من شتى الاجناس الذين تعذر على الدولة أن

تؤديهم اعطياتهم المتأخرة ..

وقد أقيمت الوليمة فى غيبة هاميلكار وان كانت على نفقته ، وذلك تحت شعار الاحتـــفال بالانتصار الذى أحرزه مع جنوده بالاستيلاء فى غربى صقلية على المدينة الحصينة « اريكس » التى اتخذها مقر قيادته ، وأقام مع جنوده اربع سنوات بها يقطع الطريق على الرومانيين

وكان من الطبيعى فى مثل هذه الوليمة أن نرى هؤلاء الجند المحرومين الناقمين يفرطون فى الأكل وخاصة فى الشراب ، ومن بعدها يأخـــذون فى العربدة فيشـــعل بعضهم النار فى أشجار الحديقة ، وينشل بعضهم السمك المقدس من البركة وينضجونه ويأكلونه امعانا فى انتهاك الحرمات ، وينقض آخرون على سجن الأسرى العبيد يطلقونهم ، وما الى ذلك من ضروب الشغب والتخريب

ويصل هذا الى مسامع ابنة هاميلكار فى القصر .. وهى سلامبو الفتاة العذراء المحتجبة عن الناس المنعزلة ، ذات النزوع للتصـــوف الدينى ، المنصرفة الانصراف الـــكلى الى عبادة « تانيت » الهة القمر ، فلم يسع ابنة هاميلكار الا الخروج الى الجند لتزجرهم عن ســـوء فعالهم وتهدىء من ثورة نفوسهم

وها هو ذا القصر فجاة أضىء من أعلى سطوحه ، وفتح الباب الاوسط ، وبدت على عتبته فتاة حسناء متشحة بالثياب السود ، ثم أخذت تهبط درج الطابق الأعلى ، فالذى بعده ، ثم الذى يليه ، حتى استقرت على الشرفة التى تعلو سجن العبيد

وهنا وقفت محنية رأسها ، لا حراك بها ، تنظر الى الجنود . وكان يقف وراءها وعلى جانبيها كهنة الربة « تانيت » ، وهم ممدودو القامة ، شـــاحبو اللون ، لا

لحى لهم ولا شوارب ولا شعر ، انهم من الخصيان ، تتلألأ الخواتم فى أصابعهم ، وفى أيديهم عيدان يوقعون على موسيقاها التسابيح الدينية للربة

وبعد فترة تحركت سـلامبو للنزول الى الحديقة يتبعها الكهنة ، فمشت متباطئة ، سالكة طريق أشجار السرو ، ما بين موائد الضباط الذين كانوا يوسعون لها فى مرورها وهم يرمقونها

واخذت سـلامبو بنت هاميلـكار تمشى الهوينى ، محنية الراس ، ممسكة بيسراها بعود صغير من خشب الابنوس ، وهى تردد التسابيح للربة بصوت مهموس

وكان الجنود يتجمعون حولها وينصـتون . كانوا لا يفهمون ما تقول ، ولكنهم كانوا معجبين بملامح محياها وجمال حلاها . فالقت عليهم واحدا بعد واحد نظرات ملؤها الرعب ، ثم مدت ذراعيها وصاحت بهم كالمعاتب مرارا :

ـ ما هذا الذى فعلتموه ؟ ما هذا الذى فعلتموه ؟

واشـتدت نبرة صـوتها ، واتقد خداها فى غضب وتقريع :

ـ أين انتم هنا ؟ أفى مدينة مغلوبة على أمرها ، أم أنتم فى قصر سيدكم ؟ السيد ، وأى سيد ! والدى الزعيم هاميلكار خادم الآلهة الكبار . هل عرفتم قائدا فى أوطانكم يساويه حنكة فى تسيير الجيوش وكسب المعارك . انظروا الى سلالم قصرنا هذه تروها مليئة بآثار انتصاراتنا

ثم اخذت تتغنى بأساطير الآلهة وامجادها ، ولم يكن يفهمها الجنود الافريقيون من قبائل البربر ، فقد كان كل اهتمامهم منصرفا الى الفتاة ينظرون اليها ، وكان

أكثر هذه الجموع التفاتا وتحديقا اليها أمير شـــاب من النوميديين يجلس الى مائدة من الموائد ولم يكن من الجند المرتزقة بل ضيفا من الضيوف الممتازين. وكانت منطقته مشكوكا فيها عدد من الحراب القصار ، وكان رداؤه الثمين يخفي وجهه فلا يبدو منه الا بريق عينيه المحدقتين فى الفتاة

وغير بعيد منه ، فى صف آخر من الموائد ، ضابط من المرتزقة ليبى ، مديد القامة ، ضخم الهيكل ، جعد الشعر ، لحيته قصيرة لايرتدى الا سـترته الحربية التى كانت النصال الحديدية المثبتة فيها تمزق ارجوان المقعد المتكىء اليه . وقد تدلت على صدره قلادة تضل فى كثيف شعره ، وكان متكئا على مرفقه محملق العين ، يبتسم فاغر الفم

وكان هذا الضابط الليبى « ماتو » أسرع الجنود المرتزقة انعطافا اليها واقبالا عليها ، فتقدمت ابنـة هاميلكار بحركة لا ارادية وقد مازجت كبرياءها عاطفة من عرفان الجميل ونزوع الى حسن السياسة . فصبت له فى كأسه خمرا وقالت : « خذ واشرب » . فما كاد يهم بتنـاول الكأس حتى انتصب الأمير النوميدى « نارهوى » واقفا ، واخرج من منطقته حربة ورمى بها « ماتو » فمرت وهى تصفر بين الأكواب ، ونفذت من ذراع الليبى الى السماط فسمرتها فيه تسميرا . فاسرع « ماتو » بانتزاع الحربة ، وحمل المائدة المثقلة بالصحاف والمـأكولات بكلتا يديه على الرغم من اصابته ، وقذف بها ناحية « نارهوى » . وبين ذلك الحشد من الجموع الذى اشتد فيه الهرج والمرج حاول « ماتو » أن يشق طريقه الى حيث كان الأمير ، ولـكنه كان قد

اختفى ، كما اختفت كذلك سلامبو

ومنذ ذلك الحين ، والفتى الليبى لا تفارق عينيه صورة سلامبو فى أبهتها وكبريائها ورقة جمالها وغموض سحرها ، وقد صار ما به فى الحب لها ، أقرب شىء الى الجنون ..

وكان الجند المرتزقة حين ثارت ثائرتهم ــ بعد ما كان من سكرهم وعربدتهم فى الوليمة التى اقيمت لهم فى حدائق قصر هاميلكار أن هجموا ــ كما قدمنا ــ على سجن الأسرى العبيد واطلقوا سراحهم . وكان من بينهم أسير قصير القامة ماكر ذكى ، يجيد عدة لغات منها اللغة القرطاجية ، كما يعرف الكثير عن قرطاجة ، وهو الاغريقى « سبنديوس » الذى شهد مع من شهدوا اصابة الضابط الليبى « ماتو » بالجرح البليغ فى ذراعه ، من جراء اعجابه بالعذراء سلامبو ابنة هاميلكار فتبعه بعد الحادثة متطوعا بتضميد جرحه . وانتهز هذه الفرصة للتقرب منه بخدمة غرامه الجنونى ، ليتمكن من الاستيلاء على مقاده للبلوغ الى غرضه الحقيقى من وراء ذلك ، وهو الثأر لنفسه من قرطاجة ، وشفاء ما يأكل قلبه من الحقد على هاميلكار قائد القرطاجيين

وفى أثناء سيرهما أخذ سبنديوس يصف للضابط الليبى ما فى قرطاجة من الخيرات ، وما عندها من ثروات . ثم انتقل من ذلك الى التلميح ثم الى التحريض الصريح :

ــ ان معك هنا رجالا أقوياء أشداء بلغ بهم الحقد الذى يحملونه لقرطاجة حده الاقصى ، وأوشك مرجل هذا الحقد ان ينفجر ... ولا غرو « فلا شىء يربطهم بها : لا الأسرة ولا الآلهة ولا الايمان المغلظة. فاذا أردت ،

اصبحنا حكام الاقاليم نروح ونغدو فى ثياب الارجوان. فماذا تنتظر ؟ تنتظر جزاءهم لك بالنعيم المقيم فى يوم من الأيام أو على الأقل بالراحة ؟ أجل ، قد يكون ذلك يوم ينزعون عنك درعك ليلقوا بجثتك طعاما لجوارح الطير، أو يوم تخرج من قتالك من أجلهم تتكىء على عكاز وأنت أعمى أعرج عاجز ، تقرع الابواب متسولا تقص أحاديث شبابك على الصغار وعلى بائعى السمك .

ـ ان رجلا شجاعا مثلك لو يفعل ماهو الأجدر به لكان له السلطان والثروة ومعهما الحياة الهنية فى مقاصير القصر يستمع الى الأنغـــام الشـــجية ، ومن حوله المضحكون ، وفى أحضانه أجمل النساء . فما يمنعك ؟ ما الذى يقف فى وجهك ؟ ان هاميلكار بعيد متغيب وكل من عداه هنا من الضـــعاف الجبناء . فسر على رأس هؤلاء المرتزقة المتذمرين من المماطـــلة فى دفع متـــأخر أعطياتهم والخلف بالوعود المبذولة لهم . كن لهم نعم القائد ، فانهم ليأتمرون بأمرك . هيا بنـــا ننقض على قرطاجة ، تكن قرطاجة لنا

ولحق الاثنان بالجند المرتزقة ومعظمهم من البربر. وكانت السلطات فى قرطاجة قد أمرت بأن ينقد كل منهم قطعة من ذهب ، على شرط أن يرتحلوا عن المدينة ، ويعسكروا بعيـــدا فى الجنوب الغربى منهـــا فى بلدة « سيكا » ـ (وهى المعروفة الآن بالـكاف) ـ بعد أن منوهم أجمل الأمانى ، وزادوهم من معسول الوعود

فى أرض المنفى

انخدع الجند المرتزقة بحيلة الحكام القرطاجيـــين وارتحلوا ، وكان خروجهم صفوفا ولـكنها كانت صفوفا غير منتظمة ، اختلط فيها الحابل بالنابل ، والفرســـان

بالمشاة ، والضباط بالجنود من شتى الاجناس ، وقد ملأوا الشوارع حتى ضاقت بهم ، وحتى كادت تتقوض جدرانها وهم يمرون كتلا متراصة أمام البيوت

وخيم الليـــل ، وتراءت للجند أنوار قرطاجة وقد غادروها فى طريقهم البعيد الى منفـــاهم « سيكا » . وأخيرا بعد مسيرة سبعة أيام فى ثنايا الجبال ، داروا جهة اليمين ، فاذا بصف مديد من الأسوار قائم على صخور بيض ، ووراءه مدينة سيكا المقدسة . وكان معبـــد الربة « تانيت » يشرف من أعلى ســـيكا وقد ارتفعت أعمدته الحديدية وسطوحه الـــذهبية • وكأن طبيعة الارض هنا بوهادها ونجادها ، وتقلبات مناخها وغرائب نباتها وأشكال أزهارها ،وخاصة جبالها ••وكأنها صدور النساء عارية بارزة الاثداء ••• كل هذه المشاهد كانت مظاهر التجلى فى هذه البلاد لروح « تانيت » ربة الحب بمختلف أسمائه وأوصافه

فى هذه المدينة ، اضطربت نفس الضـــابط الليبى « ماتو » ، وصارت تغشاه نوبات من الذهول ثم أخذت هذه النوبات تطول .

وأخيرا رفع السيد رأسه ومال نحو تابعه الاغريقى بعينين زائغتين ، وقال له بصوت خفيض أجش وقد وضع سبابته على شفتيه :

ــ ان ما بى من غضب الآلهة . ان ابنة هاميلكار تقتفى خطاى . لاشك فى انى ضـــحية محرقات وعدت بها الآلهة . انها تربطنى بقيد خفى غير منظور . اذا مشيت مشت ، واذا وقفت وقفت . ان عينيها تحرقانى . انها تحدق بى ، انها قد حلت بى وملكتنى ، لقد أصبحت هى ذات نفسى . ومع ذلك فانى أحس أن بينى وبينها

أمواج بحر محيط لا حد له ولا قرار ... »
فقال « سبنديوس » مشفقا على مولاه :

ـ كن رجلا قويا يا مولاى . يعز على أن أراك تبكى . الا يحقرك أمام عينيك أن تتعذب وتتلوى فى سبيل امرأة ؟

ـ لا . لا . ليس فيها ما بغيرها من بنات الانس . أرأيت عينيها الكبيرتين تشعان تحت حاجبيها المقوسين كالشمس تبدو من تحت أقواس النصر . ألا تذكر ساعة طلعت فى الحديقة أثناء الوليمة كيف تضاءلت أنوار المشاعل واصفرت ؟ ألا تذكر تلك المواضع العارية من صدرها بين ماسات عقدها كيف كانت أشد لمعانا ؟ ثم شذا المعابد الذى كان يتضوع وراء أذيالها المجرورة ؟ لقد كان ينبعث من كيانها كلها ، من كل ما فيها ، شيء ألذ سكرا من الخمر ، وأشد هولا من الموت ...

وظل مشدوها جامد الحدقتين ، ثم صاح :

ـ انى لأكاد أموت شوقا وحنينا اليها . واذا تخيلت أنها بين ذراعى أضمها ، تملكتنى من سورة الفرح هزة لا قدرة لى على احتمالها . ومع ذلك ، فانى أمقتها ، وبودى لو أوسعها ضربا . لقد قلت لى يا « سبنديوس » انك كنت عبدا لها ، وانه كان فى امكانك أن تلمحها وهى تصعد كل ليلة على سطح قصرها فى قرطاجة لتتعبد للربة تانيت ، للقمر الذى أعارها شحوبها ، أليس كذلك ؟ قل لى اذن ، أما رأيت ـ ليلة ذاك ـ الحجارة تهتز شوقا تحت قدميها ، أما كانت الكواكب تنحط لتنظر اليها ؟

وكان البربر يقضون الايام ، وهم يعيدون حساب مالهم عند حكام قرطاجة من الاجور ، يعيدون حسابها خطوطا على صفحات الرمال ، أو عدا على أصابع اليد ، انتظارا

للمندوب الذى وعدوهم بايفاده من قرطاجة ، يحمل اليهم السلال على ظهور البغال ملؤها الذهب ..

واخيرا سمعت جلبة تقترب من المعسكر ، ولاحت محفة كبيرة مكسوة بالارجوان ، ومزدانة الجوانب بريش النعام . ونزل منها متساندا على اثنين من العبيد ، رجل ضخم الجثة منتفخها ، جامد الحركة بطيئها ، عرفوا فيه الزعيم الاخر القرطاجي « هنون » الذى كان جموده وبطؤه سببا فى خسارة معركة جزائر « أجات » ، وجعل يخطبهم بالقرطاجية التى لا تفهمها جموعهم ، واخيرا انفرد بالضباط ، واخذ يبسط لهم المسئوليات والاعباء الملقاة على عاتق الجمهورية بعد الهزيمة التى انزلتها بها روما ، وكيف ان الفرامة الحربية التىفرضها عليها العدو المنتصر قد أفقرتها وتركت خزائنها خاوية

وما أن علمت جموع البربر بفحوى ما كان يقول ، حتى نفد صبرهم ، وعلت أصواتهم بالتذمر والاحتجاج .. ثم جاءتهم الاخبار بما هو شر من ذلك ، وهو ايقاع القرطاجيين بمن تخلفوا من زملائهم الجنود البليار فى قرطاجة ، وتقتيلهم خيانة وغدرا ، ففلت مراجل غضبهم ، ونادوا بالزحف على قرطاجة وقد جن جنونهم . فأخذوا ينتزعون عمد الخيام ، ويشدون أمتعتهم ويسرجون خيلهم . ولبس كل منهم خوذته ، وتقلد سيفه أو اعتقل رمحه . ودخل سبنديوس العبد الاغريقى على « ماتو » فى خيمته ، وصاح بأعلى صوته :

ــ هيا يا مولاى ، لقد انعقد الاجماع فى المعسكر كله على السفر

ــ الى أين ؟

ــ الى هناك ، الى قرطاجة

فوثب « ماتو » من مكانه الى حيث كان ينتظره جواده، فامتطاه ، والى جانبه سبنديوس على جواده ، وانطلقا

حصـــار قرطاجة

بلغ من شدة غضب الجند المرتزقة الثائرين أن قطعوا المسافة بين سيكا وقرطاجة فى ثلاثة أيام

وكانت العاصمة ذات أسوار منيعة ، أوصدت أبوابها الضخام فى وجه هذه الجموع

وكانت تحصيناتها تمتد على طول البرزخ ، كما كان من حولها خندق ، وعلى أســوارها أبراج ذات شرفات للمدافعين ..

ومن وراء هذه السدود المانعة ومعدات الدفاع الرادعة تبسط المدينة بيوتها ذات الاشكال المكعبة ، وترتفع بينها المعابد الفخمــة الرائعة ، وتتعرج الشــوارع العــديدة الضيقة ، وتنفسح الميادين الرحبة الواسعة فضلا عن الاسواق العامرة . والمدينة كلها تعج بالناس حتى ليسمع عجيجهم خارج الاسوار

وكان منظر قرطاجة بصورته تلك يهيج البربر ٠ كانوا يعجبون بها ويكرهونهـــا ، كانوا يتمنون فى وقت ما أن يمحوها من الوجود ، وأن يسكنوا منها فى مثل الفــردوس الموعود ..

وفى مثل هذه الحالة النفسية بل أشد منهـــا كان « ماتو » المهتاج الاعصاب من النقمة على طول الحصار والبقاء خارج الاسوار

وفى ذات مساء ، مضى سبنديوس ومعه سيده ماتو الى شاطىء البحيرة ، وهنا قال له :

اذا كنت مقداما شجاع القلب ، فانى سأقــودك الى حيث تكون داخل قرطاجة ٠ وفى اليوم التالى بعد مغيب

الشمس ، كان الاثنان عند القناطر الحجرية للقناة التى تشق الجبل حاملة المياه الى قرطاجة . فانحـــدر اليها الرجلان ، وألقيا بنفسيهما فى التيار • ولم تلبث القناة ان ضاقت ، فصارت تصطدم صخور جانبيها بجسميهما وتمزق جلودهما ، وفى بعض المواضع كان سقف السرداب يطبق عليهما ، فيضعان راسيهما تحت ابطيهما ويغوصان فى الماء حتى القاع . وبعد خطوب لا عداد لها ، ولا يتسع المجال لوصف هولها ، انتهز الرجلان بلوغهما آخر القناة واجتيازهما بعض المنافذ التى تغطيها شبكة من القضبان الحديدية ، فعالجـاها حتى انفتـح جانب من الشبـكة الحديدية ، فاذا بهما على درج سلم ، صعـدا منه الى حيث امتلأت رئتاهما بالهواء الطلق ، وكان الليل ساكنا وقرطاجة كلها نائمة .

معبد تانيت

وسار الرجلان يجرران أرجلهما ، فاذا هما أمام معبد تانيت . فأراد « ماتو » أن يمضى قدما نحو قصر هاميلكار حيث سلامبو ، فاستوقفه الاغريقى وقال :

ــ أيها السيد ، ان فى قدس هذا المعبد ، معبد تانيت ، وشاحا هبط من السماء يغطى الربة ، وهذا الحجـاب مقدس لانه جزء منها لا يتجزأ

ــ انى أعلم ذلك

ــ اذن ، فاعلم انه اذا كانت قرطاجة قوية ، فلأنها تملك هذا الوشاح

ولم يكن هذا الذى قيل صادرا عن اعتقاد سبنديوس ، بل صادرا عن اقتناعه بأن القرطاجيين بحكم اعتقـادهم الراسخ فى الوشاح سيتملكهم اليأس لا محالة ويستسلمون للهزيمة اذا صار وشاح الربة الى غيرهم

كان هـــذا هو الهـدف البعيـد الذى من أجله مال « سبنديوس » ناحية سيده ، وهمس فى أذنه :

ـ لقد جئت بك معى لتخطف هذا الوشاح

ـ اثم فظيع !

ـ ان قوة قرطاجة ستصبح بين يديك

عندها صاح ماتو :

ـ اذن هيا الى المعبد

وكانت الفرصة مواتية فى تلك الليلة ، لأنها ليست من الليالى المقمرة ، كما أن الطقوس فى مثل هذه الليالى تكون معطلة والمعبد خاليا من القائمين على خدمته

ولم يكن يدور فى خلد أحد فى قرطاجة ، ان فى الامكان أن يتقدم انسان أيا كان على نزع الحجـاب عن الربة . ولذلك لم تتخذ أدنى حيطة لمنع مثل هذه المغامرة لاستحالة وقوعها ، بل مجرد خطورها على الاذهان . ان الرهبة من الالهة فى كل مكان تحمى المعابد أكثر مما تحميها الجدران، وخاصة الرهبة من الربة « تانيت » وذلك الرعب الشديد من لعنتها الكبرى التى لابد فى العاجل القريب أن تميت المخطىء شر ميتة

ولكن ذلك العدوان الذى لم يكن فى الحسبان قد وقع . لقد امتدت يد المارد الجبار « ماتو » بتحريض القصير المكار « سبنديوس » الى نزع الحجاب المقدس عن الربة ، وكان وشاحا خفيفا شفافا ، يبـــدو فى وقت ما أزرق كالليل ، أصفر كالفجر ، أرجوانيا كالشمس

وها هو ذا الوشاح المقدس الذى ما كان يجسر أحد أن ترتفع اليه عيناه قد انتزعه « ماتو » . ولما أصبح فى حوزته أدخل رأسه فى فتحته ، ثم لفه حول جسده فاتحا ذراعيه ليزداد تأملا فى بهائه وتمتعا برؤية لألائه

وقال سبنديوس : « والآن ننصرف »

وظل ماتو فى وقفته وهو يلهث وعيناه محملقتان ،وفجأة تحرك وكأن خاطرا وثب الى باله :

ـ ولكن ماذا لو ذهبت اليهـا ؟ انى لم أعد أخشى جمالها .. ما الذى يمكن أن يكون فى مقدورها الآن ؟ انى الان أكثر من رجل . سأقتحم النيران ! سأمشى على موج البحار ! انى أحس بدافع يدفعنى ... سلامبو ! سلامبو! أنا سيدك

وكانت قامته كأنما طالت على طولها ، وكان صـــوته يدوى كالرعد . وفجأة سمع وقع خطوات تقترب ، وفتح باب ، وولج منه كاهن يتطلع الخبر ، فعوجل بطعنة خنجر قاتلة . وتسلل ماتو وتابعه الى خارج المعبد

فى مخدع سلامبو

وكان على سبنـديوس أن يتجـه مع ماتو الى قصر هاميلكار . وكانت آثار عربدة الجند المرتزقة ابان الوليمة لا تزال بادية فى الحديقة . واتجه الرجلان فى حذر نحو القصر ، ورفع ماتو رأسه فخيل اليه أنه يلمح بصيص نور فى أعلاه ، فاندفع الى السلم وعبثا حاول « سبنديوس » أن يستوقفه . وأخذ يرتقى الدرج حتى بلغ الطابق الاخير الذى كان يبدو فى ضيقه كأنه قمع الخياط فوق ذرى السطوح ..

وهنا دار ماتو شديد الحذر متمهلا .. وما أن وقع نظره على بصيص من احدى الكوى فى جدار مقصورة ، حتى عرف انها مخدع سلامبو ، ووثب قلبه فى صدره . ولكنه دفع الباب فانفتح

وكان فى أقصى الغرفة سرير من ذهب ، فوقه كلة زرقاء شفافة ، وعليه فرش أحمر ، وقد انعكس النور الخافت

على قدم عارية شديدة البيـاض ناحلة . فتناول ماتو المصباح بلطف ، وأدناه من السرير . فاذا سلامبو ابنـة هاميلكار « عـذراء تانيت » نائمة وخـدها على يدها ، والذراع الاخرى مبسوطة ، وشعرها الاسود متهـدل منشور حولها . وقميصها الفضفاض أبيض من نسيـج ناعم ينسدل عليها فى طيات تتناسق مع تقاطيع جسمها المبتل الاهيف . فوقف « ماتو » عاكفا على النظر اليها وبيده المصباح ، فاذا النار تشب فى الكلةالزرقاء الشفافة وتنطفىء فى الحال . فتهب سلامبو من نومها . وقبل أن تنبس بحرف ، تكون على بصيص المصباح قد لمحت الوشاح أمامها ، فتهمس كالحالمة :

ـ ماهذا الذى أراه ؟

ـ وشاح الربة ؟

فتصيح مرددة مستنكرة « حجاب الربة »

وقد اتكأت على قبضتى يديها ومالت الى خـارج السرير وهى ترتعش . فيجيب « ماتو » متوددا :

ـ لقد جئت به من قدس المعبد . وهل كان فى امكانى أن أجترىء على الدخول عليك لولاه ... لنرحل ، يجب أن تتبعينى ، أو أبقى هنا اذا لم تريدى اتباعى ... أنا أحبك . .

فتمتمت العذراء ، وهى تحدق النظر فى الوشـاح ، ونور الفجر قد لاح :

ـ اعطنيه . .

واقتربت فى قميصها الأبيض الضافى الذيل ، وعيناها الكبيرتان محملقتان الى الوشاح ، و « ماتو » حيالهـا يحملق فيها مبهورا بجمالها ، ثم مد اليها بيديه طرف الوشاح وقد هم فى اللحظة نفسها أن يحتضـنها ،

فدفعت ذراعيه . ولبثا برهة مبهوتين صامتين يتبادلان النظرات . وكانت لاتدرك كنه مايريده منها فى تلك اللحظة ولكن غلب عليها الـــرعب والاشمئزاز ، فقطبت مابين حاجبيها النحيفتـــين ، وضربت ــ وهى تنتفض ــ على نحاســة معلقة تطلب الموكلين بخدمتها ، وصاحت بملء فيها :

ــ الى الوراء أيها الدنس المرذول !. الى الوراء أيهـا الكافر الملعون !

وأقبلت الجوارى فأخذن يولولن ، فجاء على صراخهن الخدم والعبيد يهرولون الى المخدع ، وبأيديهم الحــراب والهراوات . وهموا بالانقضاض عليه ، ولكنها استوقفتهم فى جزع :

ــ لا تلمسوه ، فهذا حجاب الربة

وخطت نحوه خطوة وقد مدت ذراعيها العاريتين ثم صاحت به :

ــ لتحل اللعنة عليك يا سارق تانيت . لتنزل الربة بك مالا طاقة لك به ، من البغضاء والالم والارزاء ومن بعدها الموت الزؤام كافظع ما يكون الانتقام

فأرسل « ماتو » صرخة كمن أصابته ضربة سيف

وعادت سلامبو تكرر صارخة « اذهب .. اذهب »

وانتحى الحشد الحاشد من الخدم والعبيد ناحيته . ومر « ماتو » بينهم بخطا وئيـــدة وهو منكس الرأس . ولكنه توقف عند الباب اذ علق ذيل الحجـاب ببعض النجوم الذهبية المسمرة فى البلاط ، فشـــده بعنف . وانحدر الى السلم ومنه الى الطريق العام

وما لبث الناس أن شاع بينهم الخبر وعرفوا حقيقة ما وقع ، فشملهم السخط والغضب وعلت جلبتهم ،

ولكنهم على الرغم مما تسلحوا به من الفئوس والعصى والسيوف . لم يجرءوا على مد أيديهم اليه . وهو متلفع بوشاح الربة الذى يؤمنون بأن رؤيته اثم كبير ، وملمسه موت مهلك ..

وعلى هذه الحال بلغ ماتو الباب الكبير ، فاذا به مغلق . كان من خشب متين ، كما كان متناهيا فى العلو . فحل به اليأس حتى أحس بالدوار وكاد يغيب عن وعيه . ولكنه لم يلبث أن لمح سلسلة الحديد الطويلة التى يتخذها الموكلون بالباب لشد المزلاج . فوثب « ماتو » اليها وتعلق بها موترا عضلاته . وبعد لأى انفرج الباب الضخم ، فانفلت منه الى الخارج

ولما صار فى الخارج ، خلع الوشاح المقدس عن رقبته ورفعه عاليا فساعدت الريح على انتشاره ، كما ساعد نور الشمس على تألقه ولمعانه . وفى هذه الحماية القدسية سار « ماتو » فى أمان حتى بلغ خيمته فى معسكر الثوار ، بينما كان شعب قرطاجة فوق الاسوار ينظر الى كوكب سعد قرطاجة موليا مع وشاح الربة ، مؤذنا بأن حظهم منذ اليوم فى انحدار وادبار

الحلف الكبير

كان الجيش قد حيا « ماتو » بالهتاف العظيم لما عاد وهو يحمل حجاب الربة ، حتى ان أولئك الذين لا يدينون بالديانة القرطاجية ، أحسوا وهم يشتركون فى الهتاف أن هنالك ربة أقبلت عليهم

وعند المساء ، خلا « ماتو » فى خيمته بتابعه « سبنديوس » ، وكان قد ألقى الوشاح فى ركن من أركانها ووضع فوقه جزة من الصوف ليخفيه

وسرعان ما سمعت همسات ، وبدت مشاعل تتقدم

فارسا بعد ترجل ، وترجل معه ثلاثون من الاعوان ، وكانوا يرتدون اردية من الصوف الابيض ، ويتمنطقون بخناجر طويلة ، والجميع مقبلون على خيمة « ماتو » حيث وقفوا على العتبة منكفئين على رماحهم ، على حين دخل رئيسهم ، وكان رئيسهم أرشقهم قامة وأجملهم شكلا : تزين ذراعيه النحيلتين سيور رصعت باللآلىء ، ويحيط برأسه اكليل من ذهب يتدلى من تحته على كتفيه اللفاع الحريرى . وهو يبتسم ابتسامة مريضة تكشف عن بريق اسنانه البيض النضيدة ، كما تلتمع عيناه حادتين كرءوس السهام . وكان مظهره فى جملته ينم على اليقظة وخفة الحركة ..

لم يكن هذا الرئيس الفارس الذى قدم الساعة على «ماتو» الا ذلك المزاحم الذى لقيه فى الوليمة ، وكان بينهما ما كان عند مرور سلامبو بين صفوف الضباط فى الحديقة . انه أمير النوميديين « نار هوى » يعلن أنه جاء للوقوف الى جانب جيش المرتزقة الثائر لان قرطاجة ما برحت ماضية فى سياستها التى تهدد ملكه فمن مصلحته مساعدة الثائرين عليها وامدادهم : « سأمدكم بالمؤن والسلاح لتشددوا الحصار ، سأمدكم بالافيال ، وبالالوف من الفرسان ، واذا كنت يا « ماتو » أوجه الكلام اليك فذلك أن استيلاءك على حجاب الربة قد جعلك المقدم الاول بين رجال الجيش . فلنكن صديقين حليفين »

وأظهر ماتو الموافقة ، وأجريت الرسوم المعتادة توثيقا لهذا الحلف ..

واجتمع ماتو ، ونار هوى وسبنديوس ، وأرسلوا الوفود الى جميع القبائل النازلة فى البلاد القرطاجية للانضمام الى الثورة . وكانت قرطاجة تضرب على هذه

البلاد فادح الضرائب ، وكان التكبيـــــل بالاغلال فى السجون أو قطع الرءوس بالفئوس أو الموت البطىء صلبا، هو عقاب المتأخر عن الوفاء ، ومثله التساكى المتذمر سواء بسواء • ولهذا كانت هذه الدعوة الى الثورة مستجابة

وهكذا تكاثرت الجموع الوافدة للانضــمام للثورة ، فتعاظمت قوتها ، وأصبح لا مناص من تقسيمها الى ثلاثة جيوش توزع على القيادات الثلاث • وبلغ بذلك عدد الثائرين ثمانين ألفا على وجه التقريب

الكاهن الاكبـر

شدد الجند المرتزقة الحصار على قرطاجة فاشــــتدت مطالبة أهلها بعودة الزعيم « هاميلكار » أكبر قوادهم الى العاصمة ليتولى بنفسه الدفاع عنها

وما أن رست سفينة هاميلكار على شاطىء قرطاجة حتى احتفل بمقدمه أهل قرطاجة احتفال الانتصار . وبالفعــل استفتح هاميلكار أولى معاركه مع الثــوار فكان النصر حليفه • ولكن النصر لم يدم ، فقد تلاه الانكسار بعـــد الانكسار ، على الرغم من تقديم القرابين ، حتى الادمية منها — الى ملك الالهة البعول « ملوخ » ومن ثمـــة عاد الشعب يردد القول بأن فقدان قرطاجة وشاح ربتهــا « تانيت » وانتقاله الى حوزة الثوار هو علة ما حــل بالقــرطاجيين وهاميلكار أكبر قوادهم من تلك الهزائم المتكررة ..

وكان على الكاهن الاكبر للربة « تانيت » أن يجــد السبيل الى علاج أزمة اليأس التى استولت على القرطاجيين وافقدتهم الثقة بأنفسهم وبالنصر ، منذ فقدت قرطاجـــة حجاب ربتها ، رمز الخصب والحياة ، ولم يكن هنــالك بطبيعة الحال اى سبيل لاستحياء الأمل الميت ، واعادة

الثقة المفقودة الا باستعادة الحجاب المقدس بأية حيلة أيا كانت الوسيلة

وكانت ابنة هاميلكار « سلامبو » أولى عذارى الربة « تانيت » • فهى واقعة تحت تأثير كاهن الربه الاكبر « شاهبريم » وهو كهل واسع المعرفة ، مطلع على أسرار الالهة ، حتى لا تكاد تخفى عليه خافية ، ثم هو قد أفنى جسده بالعبادة والتهجد حتى أصبح شديد النحول والذبول ، جلده بارد الملمس ، وجهه أصفر وجمجمة الرأس معوجة • يكاد الناظر اليه يحسبه من الاموات لولا عينان له تلتمعان كسراجين معلقين على قبو

فلا غرو ، اذا اتجه تفكير الكاهن الاكبر الى سلامبو العذراء خادمة الربة فى هذه الازمة ، فأخذ ينتقل فى الحديث معها مستدلا بما يجره تدنيس الاشياء المقدسة من الكوارث ، ثم انتقل فجأة الى التحدث عن الخطر المحدق بوالدها القرطاجى الذى تهاجمه الان ثلاثه جيوش يقود أكبرها « ماتو » الذى أصبح فى نظر القرطاجيين شبه ملك على البربر لحيازته الحجاب المقدس •

واخيرا استطرد شاهبريم الكاهن الأكبر وقال :

ـ ان سلامة قرطاجة ، واخلاص أبيك هاميلكار يتعلقان بك وحدك ..

فقالت فى دهشة : « بى وحدى .. كيف ؟ »

فأطال الكاهن السكوت وهى تعيد السؤال وأخيرا قال :

ـ اذهبى الى « ماتو » فى معسكر البربر ، واستردى الحجاب المقدس

تحت الخيمة

كان الدليل الذى أمره كبير الكهنة بمصاحبة سلامبو ،

رجلا من أهل ثقته من خدمة معبد « تانيت » يعرف معالم الطريق • وقد امتطى كل منهما جوادا وانطلقا فى بكرة الصباح لا يتوقفان • وقد غطت سلامبو شعرها ، وأدارت بقبة الغطاء على هيئة اللفاع على وجهها الشاحب ، فكانت تبدو كالغلام المريض فى صحبة الدليل • ولما خيم الليل كان المبيت على سروج الخيل تحت قبة حظيرة فى الخلاء لامرأة ساحرة • ثم استأنفا السفر من بكرة الصباح • وما زالا يركضان الخيل طوال النهار ، حتى اذا أقبل الليل وكاد ينتصف كانوا على مقربة من معسكر أبيها هاميلكار ، فمالا بعيدا عنه • وأسرعا حتى تجاوزاه الى معسكر بعيد فى مواجهته ، يبدو أكثر عددا ، وان لم يكن أكثر عدة ..

انه معسكر البربر ..

هنا تركها الدليل تتقدم وحدها • وكان فى أعلى برج الحراسة ديدبان جعل يأمرها بالوقوف ، فلما لم تقف رماها بسهم طويل أصاب أسفل معطفها ، فظلت تصرخ فظنها قد أصيبت ، فاقترب . فقالت له :

ـ أريد التحدث الى القائد « ماتو » • وأردفت ذلك بقولها : « انى هاربة من قرطاجة »

وانتظرت سلامبو طويلا ..

وأخيرا كان القائد أمامها يسألها ما تريد ، فقالت :

ـ لا أستطيع الكلام هنا • خذنى الى خيمتك

فلما صارا فى الخيمة ، قال ماتو : « من أنت ؟ »

فلم تحر جوابا • بل أخذت تقلب طرفها فيما حولها ، فرأت فى أقصى الخيمة على سرير من سعف النخل شيئا صافى النور متألق اللمعان . فتقدمت نحوه بخطوات سريعة وبدرت منها صرخة • فابتدرها ماتو محتدا :

ـ من جاء بك ؟ ولم قدمت ؟

فأجابت وهى تشير بيدها الى الحجاب المقدس :

ـ جئت لآخذه

وباليد الاخرى نزعت الغطاء الذى كان يغطى رأسها وجانبا من وجهها

وما كاد يراها « ماتو » حتى ارتد الى الوراء فاغر الفم مدهوشا ..

وأحست سلامبو بقوة الربة تمدها بالتأييد ، فنظرت اليه وجها لوجه غير خائفة ولا مذعورة . وطلبت منه الحجاب بقول عذب طلى غنى بالمعانى . ولكن ماتو كان لا يسمع ، بل يرمق ويحدق ويتأمل . لقد اختلط فى ناظريه جسمها وملابسها وحليها . فكان نسيج أثوابها يتموج ومعه لالاء بشرتها الناعمة ، وهو لالاء خاص بهـا ليس لامرأة غيرها . وعيناها وماس حلاها يلمعان ويشرقان معا . وكانت فصوص الخواتم التى تغطى أصابعها ان هى الا امتداد لمخضوب بنانها ومصقول أظافرها . وقد استوقف نظرة خاصة هذان المشبكان المفروزان فى غلالتها اللذان يرفعان قليلا نهديها فيتقاربان. هنا سرح به فكره ،فاذا به يضل بين ذينك النهدين ، حيث تدلى شريط يحمل صفيحة مرصعة بالزمرد كالتعويذة تختفى فى صدرها وراء غطاء شفاف من الحرير البنفسجى ..

ووقف ماتو مأخوذا يرنو ، ويرنو

ومثل طفل يدفعه الفضول ، مد يده وهو يرتجف ،ولمسها فى أعلى صدرها بأطراف أصابعه لمسا خفيفا ، فانطبعت فى جسدها أطراف أنامله بعد مقاومة لينة لطيفة . هى لمسة تكاد تكون غير محسوسة ولكن أثرها تجاوز حسه ، وسرى الى نفسه فهز كيانه كله ، فأمسكها بقبضتى يديه وجذبها

اليه ، وجلس فوق درع بقرب سريره المصنوع من النخل المغطى بجلد أسد ، وصار يرمقها وهي ناصبة القوام أمامه ، كالتمثال يسنده بساقيه المضمومتين ، وهو يصعد فيهـــا النظر ويصوبه مرددا : ما أجملك ! كم أنت جميلة

وكانت عيناه في اطالتهما التحديق بها ، تسببان لها عذابا وضيقا • فأخذها منه نفور جعل يزداد حدة ، حتى كادت تصرخ لولا استمســـاكها ، وتذكرها وصية الكاهن « شاهبريم » لها ، بالاحتيال على استرداد الوشاح بالملاينة الى حد طرح المقاومة ، والاستسلام

وظل ماتو ممسكا بيديها الصغيرتين ، وهي تحاول من وقت الى اخر — على رغم ما أمرها به الكاهن — أن تفلت منه بشد ذراعيها • وهو كالغائب عن وعيــه ، يفتح منخريه ليتلذذ بشم العطر القوى المتصاعد من جسمها المثير للدوار كبخور المجامر

وكان لا يصدق عينيه وهو يراها بالقرب منه تحت خيمته رهن ارادته • كذلك كان لا يريد التفكير في أنها انما جاءت لاخذ الوشاح المقدس ، فلم يتمالك أن رفع صـــــــوته يسألها كالمتكر :

— لا ، أنت لم تأت طلبا للوشاح

فصاحت في وجهه وأسنانها مطبقة ومنخـــــــاراها يرتعشان :

— لكأن كل ما ارتكبته في المعبد من انتهاك الحرمات المقدسة لم يكن كافيا ، فاقتحمت مخدعي ليلا وأنا نائمة ، وتعرضت لي والوشاح المقدس يغطيك ، لم أفهم ما كنت تقول ، ولكني أحســست بأنك آت لتجرني الى شيء فظيع رهيب ، لتلقي بي الى أعماق الهاوية

فصاح ماتو :

ـ لا ، لا . انما جئت لاعطيك اياه ، لارده اليك ، لانه خيل لى أن الالهة جميعا نازلة لك عن أثوابها ، وأن وشاح الربة قد أصبح ملكا لك سواء أكان الوشاح فى معبدها أم فى بيتك . ألست مثلها صاحبة الحول والسلطان . العذراء التى لا عيب فيها ولا دنس . الجميلة المتلألئة مثل تانيت ؟ ..

ثم استدرك وهو يلقى عليها نظرة ملؤها العبادة التى ليس لها حد :

ـ .. الا اذا كنت أنت تانيت نفسها

وتمتمت سلامبو تحدث نفسها « أنا تانيت ! »

وسكتا لا ينبسان بحرف . وأخذ الرعد يدوى من بعيد ، وسلامبو ترتعد فرائصها للعاصفة . وعاد ماتو يقول :

ـ آه ! اقتربى منى ، اقتربى ولا تخافى شيئا ، ماكنت فيما مضى الا جنديا مغمورا من حثالة الجند ، بل كنت وديعا متواضعا أحمل الحطب على ظهرى للاخرين فماذا يهمنى اليوم من أمر قرطاجة ؟ ان رجالها عندى غبار يثور ، كالغبار المتطاير تحت نعليك . أن جميع كنوزهم واقاليمهم واساطيلهم ومستعمراتهم لاتستهوينى كما تستهوينى شفتاك واستدارة كتفيك . لقد كنت أريد تدمير أسوارها حتى أصل اليك فاستحوذ عليك

« وفى انتظار ذلك صرت انتقم . صرت أسحق الرجال كانهم أصداف ، وارتمى على الكتائب ، وأنحى بيدى الرماح ، واوقف الجياد ممسكا بخياشيمها ، حتى المجانيق صارت لا تقوى على قتلى

« آه ، لو كنت تدرين كم أفكر فيك فى ساحة الوغى كلما استحر القتال . انى هنالك أرى عينيك فى قاذفات النار ، وأسمع صوتك فى صليل السيوف ورنات التروس

ثم التفت فلا أراك . عند ذلك اعود فاخوض فى حومة المعركة ومعمعة القتـــال أطيح بالرقاب وأفلق هامات الرجال » ..

وكان ماتو يرفع ذراعيــــه ، فتبدوان حيث تتوتر العروق ، كاللبلاب على جذوع الدوح الضــــخام . والعرق ينصب من صدره ويسيل فى شـــعره وبين عضلاته . وقد اشتد تنفســه حتى كان يهز خاصرتيه المشـــدودتين بحزام تتدلى سيوره على ركبتين كالفولاذ صلابة . وكانت سلامبو التى اعتادت رؤية الخصيان من عبيدها وخدام الربة مأخوذة بقوة هـــذا الرجل ، يخيل لها أنه « مولوخ » نفسه بجبروته وسلطانه ولفحات نيرانه ..

وكانت أنوار المصـــــباح ترتجف من هبوب الريح الساخنة . وكان البرق يومض المرة بعد الاخرى فتتخلل ومضاته فترات ظلام مضاعف السواد ، فلم يكن فى هذه الظلمة المضاعفة الا انسانا عينى « ماتو » تتقدان كأنهما جمرتان فى فحمة الليل .. كانت سلامبو العذراء تحس بالخطر المحدق بها ، وكانت تحس فى الوقت نفسه أنه كالقدر المحتوم نازل بها ، لا معدى عنه ولا مهرب منه . ومع ذلك حاولت أن تتحامل على نفسها ، وأن تقــاوم وتبذل ما بقى عندها من جهد . فتقدمت الى حيث كان الوشاح المقدس ومدت يدها لتمسك به . فصاح بهــا ماتو :

ـ ما الذى تفعلينه ؟ وماذا تنوين ؟

ـ اعود الى قرطاجة

فتقدم نحوها وهو مصلب يديه على صدره ، وقد بدا مظهره مرعبا جمدت سلامبو لرؤيته :

ـ تعودين الى قرطاجة اه ! لقد جئت لتأخـــذى الوشاح لتكونى الغالبة ، ثم تذهبين متعالية . لا ، لا انك تملك لى ، ولن يقـــوى بشر على انتزاعك من يـدى

وهذا « ماتو » جاث على الارض أمامها ، وذراعاه ملفوفتان حول قامتها ، ورأسه الى الوراء ويداه تائهتـان فى الفضاء ، وصـفائح الذهب المعلقة بأذنيه تلمع على رقبته السمراء ، والدموع تنهل من عينيه كأنهـا كرات من فضة ، وهو يتنهد وكأن تنهداته مداعبات وملابسات، ويهمس وكأن الفاظه نسمات الليل بل أحن منها وألطف

وهذى « سلامبو » قد تملكتها فترة من التضعضـع واللين فقدت معها كل احساس بوجودها ، وكأن هناك شيئا خفيا وامرا علويا يدفعانها الى الاستسلام وكأنما احتوتها غيوم تعلو بها ، وتعلو بها حتى فقدت الشعور والسيطرة على نفسها . فانقلبت خائرة القوى بين لبد الاسد الذى يغطى السرير المصنوع من سعف النخل . وأمسك بها ماتو فانقطعت السلسلة الذهبية بين عقبيها، وتطاير طرفاها كأنهما حيتان تفران ، وهوى الحجاب المقدس الذى كان قد احتوته يداها ، فغطاها . وفجأة ازاحته عن وجهها وأطلت من خلاله عيناها ، فرأت وجه « ماتو » منحنيا فوق صـــدرها ، فتمتمت وهى بين الواعية وغير الواعية :

ـ انك تحرقنى بنار يا مولوخ !

وكانت قبلاته المتنقلة لتشملها كلها اشـــد التهابا والتهاما من النار ، اما هى فكانت كأنها محمولة على اعصار ، مأخوذة بقوة الشمس

واستسلم بعد « ماتو » الى النوم . وأفاقت سلامبو الى نفسها ، وأفلتت من بين ذراعيه . والقت فى نزولها

من الفراش باحدى قدميها على الارض ، فتنبهت اذ ذاك الى أن السلسلة التى كانت تربط عقبيها قد تحطمت .
وكانت كبار الاسر فى قرطاجة تلزم بناتها العذارى بالتزام هذا القيد والمحافظة عليه فريضة مقدسة من مقدسات الدين • وذلك ما ذكرته فى هذه الساعة « عذراء قرطاجة » ودار فى رأسها الصفير فاحمر وجهها ، ولفت حول ساقيها قطعتى السلسلة الذهبية . وكان عند راس السرير خنجر صغير موضوع على منضدة من خشب السرو . فأضرم فيها مشهد الخنجر نار شهوة دموية جامحة ، وطنت فى أذنيها من بعيد مناحب قادمة فى جنح الظلام ، وكانها توحى اليها بما يجب عمله الان . فاقتربت من المنضدة وقبضت على مقبض الخنجر .. واذا ماتو يفتح عينيه وقد سمع حفيف ثوبها ، فأدنى فمه من يديهما ليقبلهما فتراخت قبضتهما وسقط الخنجر

ومضت لحظة واذا بصرخات تعلو ، واشعة مخيفة تتوهج وراء الخيمة ، ورفع ماتو الستر ، فوقع نظره ونظر سلامبو على نار عظيمة تحرق خيام الليبيين ، والفيلة والابقار والخيل تعدو بين الزحام ، فتدوس الرجال والامتعة والذخائر الحربية . وكانت الابواق تنفخ والجند ينادون : « ماتو ! ماتو ! » ثم تقدم الى الخيمة رجال يحاولون الدخول وهم يصيحون : « هلم عجل ! هذا هاميلكار يحرق المعسكر »

فقفز ماتو الى الخارج

وبقيت سلامبو وحدها فى الخيمة • فأخذت تتفحص الحجاب المقدس ، وأطالت فحصه • وآذا بها تصاب بخيبة أمل ودهشة لعدم شعورها بتلك السعادة التى كانت تتخيلها فى الحصول عليه

وظلت مكتئبة حزينة برغم أن حلمها قد تحقق

ولفت سلامبو الحجاب حول قامتها ، والتقطت بخفة براقعها ومعطفها ولفاعها . وفرت لا تاوى على شيء . ولم يعترضها أحد ، فقد كان الجميع فى شغل بالحريق

وعاد ماتو بعد برهة الى خيمته ، وكان المصباح يدخن ولا يكاد يضيء . فنادى سلامبو ولا من مجيب . فانتزع جانبا من ستر الخيمة ليرى على نور الفجر ، فلم ير أثرا لها ، كما اختفى الحجاب المقدس معها .

هزيمة ماتو

لم تمض على ماتو فى الخيمة لحظات بعد استيلاء ابنة القائد القرطاجى هاميلكار على حجاب الربة المقدس، واذا بالارض تهتز من شدة هرج الزحام ووقع الاقدام وارتفاع الصياح ، وصهيل الخيل ، وجلبة الصدام، وقعقعة السلاح ، فضلا عن نفخ الابواق مؤذنة باقتراب القرطاجيين بزعامة هاميلكار المعروف بهجماته الثائرة كالاعصار ، الخاطفة كالبرق المستطار

عندما ثارت ثائرة ماتو ووثب الى اسلحته فتقلدها واندفع من الخيمة واذا صفوف طويلة من البربر منحدرة من الجبل على غير نظام وكانما الجبل نفسه يتحرك وراءها بما عليه من المربعات القرطاجية الزاحفة فى أعقابها تطاردها وتضرب فى اقفيتها . وفى ناحية اخرى من الافق يظهر الامير « ناهورى » على رأس جند كثيرين من قومه النوميديين وقد مدت الخيل رءوسها وهى مطلقة الاعنة وقد اشتد عدوها حتى كادت تلمس الارض بطونها . وتنبسط أسارير ماتو المتقبضة حين يرى حليفه قادما لنجدته . ولكن مابال هذا الحليف يتوقف ثم ينحرف عن وجهته . وعلى حين فجاءة يقصد الى الخطوط الامامية لجيش هاميلكار ، وبطلب

الى رجاله الانتظار خارجها ، ويتقدم هاميلكار ، وهنا جثا أمامه وقال :

ـ يابرقة ! جئتك برجالى . الكل فى طاعتك وتحت رأيتك ..

وكان الامير « نارهوى » حتى هذه الساعة يتظاهر بنجدة البربر وهو يخذلهم فلما رأى كفة هاميلكار ترجح، وقدر أن سيتم النصر له فى اخر الامر ، وجد الفرصة سانحة للمجاهرة بالانضمام اليه ، بدافع من طمعه فى ولاية المزيد من الاقاليم ، فضلا عما يكنه من الحسد والبغضاء لماتو الذى أصبح زعيم الثائرين ، وربما كذلك لانه كان يعلل نفسه بتحقيق حلم غرامى قديم .

وادرك هاميلكار بثاقب نظره ما لمثل هذا الحلف فيهذه اللحظة الحاسمة من شأن فقام الى الامير وضم صدره ثلاث مرات علامة على ما صدر بينهما من العهد والميثاق ثم قال :

ـ لا أدرى ما سوف تكافئك به قرطاجة ولكن هاميلكار لا يجحد جميلا ، على كل حال عد الآن الى جندك ، ومر فرسانك بمدافعة مشاة البربر الى مابين افيالك وأفيالى ، حتى نحصرهم ولا نبقى على احد منهم

وفى هذه اللحظة ، وصلت سلامبو على حين فجأة الى معسكر أبيها . وقفزت عن جوادها وفتحت معطفها واخرجت منه الحجاب ، فلعبت به الريح ونشرته على مرأى من جميع الجنود فارتفعت من القرطاجيين صيحات المهللين استبشارا بنصر مبين . وفى الناحية الاخرى ارتفعت من صفوف البربر صيحات أخرى معبرة عن الكمد الأليم والاستنكار والسخط العظيم ، على من كانوا سببا فى ضياع الوشاح مع التهديد بعقابهم وانزال شر النكال بهم

وكان هذا الذى فعلته سلامبو مفاجاة لابيها القائدالاعظم هاميلكار . ولكنه لم يسعه الا ان يشكرهاباشارةمن رأسه، وعيناه تتنقلان من الحجاب المقدس اليها ،ومنهاالى الحجاب المقدس ولم يلبث ان لحظ ان سلسلتها الذهبية مقطوعة، فاعترته انتفاضة لما داخله من شك فظيع ، ثم استعاد رباطة جاشه واخذ ينظر بطرف عينه الى الامير النوميدى الشاب دون ان يظهر منه ذلك ، مبالغة فى الستر على ما انعقد عليه عزمه ..

وكان الامير « نارهوى » منتحيا ناحية من الخيمة استعدادا لتنفيذ الامر الصادر اليه ،فتقدم الزعيم هاميلكار منه وملامح الجد تبدو عليه وقال :

ــ مكافأة لك على ما بذلته وتبذله خدمة لنا ، يا «نار هوى» قد زوجتك ابنتى . فكن لى ابنا ، ودافع عن أبيك !.

فبدرت من « نار هوى » حركة تدل على الدهشة ، وارتمى على يدى هاميلكار يمطرها بقبلاته ، وسلامبو هادئة كالتمثال تبدو وكأنها لم تفهم ، وقد علا وجهها احمرار خفيف ، ثم أسبلت جفنيها فأرسلت أهدابها الطوال ظلالا على خديها ..

وشاء هاميلكار ان يربطهما دون تأخير برباط الخطبة الذى لا يفصم . فوضعوا فى يد سلامبو رمحا قدمته لنارهوى وربطوا ابهاميهما بسير من جلد البقر ونثروا القمح على رأسيهما ، فكان لصوت حبات القمح المتساقطة حولهما صوت حبات البرد المتساقط على الارض

ونحن اذا رجعنا الى أقوال المؤرخين الاقدمين ، وعلى رأسهم « بولبيوس » نجد ان المعارك التى دارت بين قرطاجة ــ بعد هزيمتها فى حربها مع الرومان ــ وبين جندها من الاغراب المرتزقة ، لم تكن الغلبة فيها على جيوش البربر

الشجعان ــ وعلى راسهم قائدهم الليبى الثائر الجنــان « ماتو » وزميله الاغريقى « سبنديوس » ــ بالامر الهين اليســير ..

والواقع أن انضمام الفرسان النوميديين آخر الامر الى الزعيم القرطاجى هاميلكار فى بلاد مثل قرطاجة اكثرها سهول منبسطة كان كفيلا بانتصاره . ولقد حقق هاميلكار بعد هذا الحلف نصرا على الجند المرتزقة الثائرين كلفهم عشرة آلاف قتيل وأربعة آلاف جريح

وقد رأى هاميلكار ان يحسن معاملة الاسرى ، ليجذب اليهم مودة ابناء جنسهم فضلا عن حسن عرفانهم للجميل فينضوى أولئك وهؤلاء تحت لوائه . وقد فطــن لذلك « ماتو » و « سبنديوس » ورئيس الغاليين « أوثاريب » فأرادوا أن يأتوا عملا يكون من الفظاعة بحيث يدعو الى القطيعة الدائمة التى لا سبيل بعدها الى الصلح وعودة السلام ، فأشاعوا الشائعات بأن هاميلكار انما يتظاهر بحسن معاملة الاسرى لأن فى نيته الايقاع بهم ، وأن الاجدر بهم فى هذه الحالة أن يكونوا هم البادئين ، وبادروا فأعملوا التقتيـــل فى أسراهم من القرطاجيين وعددهم سبعمائة قطعوا أيديهم ، واصطلموا آذانهم ، وكسروا عظام سيقانهم ، وبعد ذلك حفروا لهم الحفر وألقوا بهم فيهــا أحياء . فلم يسع هاميلكار الا معاملة أسراهم مثل هـــذه المعاملة أو شر منها للأخذ بالثأر

واستمر القتال بين قرطاجة والجند المرتزقة دون رحمة ولا هوادة عاما بعد عام ، وكان من أسباب الاطالة ما اتبعه قادة الجند المرتزقة ــ بعد خذلان الفرسان النوميــديين لهم ــ من اجتناب المعارك فى السهول حيث المجال متسع لهجمات الفرسان على صهوات الخيول ، والعدول الى حرب

العصابات فى شعاب الجبال . فلما ان أدرك هاميلكار ذلك وصح عنده ، أطمعهم فى لقائه فى الجبال . وما زال بهم حتى استدرج الفريق الاكبر من جيشهم بقيادة « سبنديوس » الى فج ضيق ـ يقال له « حد الفأس » أو «حد المنشار» ـ حصرهم فيه حتى نفد ما كان عندهم من الطعام ، واشتد بهم الجوع حتى أخذوا ياكل بعضهم بعضا

واخيرا ثار الباقون على من كانوا يتولون قيادهم ، وهم سبنديوس الاغريقى و « أوثاريب الغالى» وثمانية اخرون وقد اضطر هؤلاء تحت تهديد جنودهم أن يطلبوا مفاوضة هاميلكار ، فطلب عشر رهائن من جيشهم يختارهم بنفسه، وكانوا يعرضون عليه مجردين من سلاحهم ، ومن ثيابهم الا القميص الذى على جلودهم ، ولما انتهى العرض قال للقادة العشر : « انتم الرهائن » واحتجزهم ، وأدرك الجميع الحيلة بعد فوات الاوان ، فارتكضوا نحو سلاحهم ،ولكنهم كانوا قد أحيط بهم ، وكان عددهم اربعين ألفا ، فلم ينج منهم أحد ..

ولم يكن فريق الجند المرتزقة الاخر تحت قيادة ماتو ، اكثر توفيقا واسعد مصيرا فقد افناهم هاميلكار فى موقعة كبيرة عن بكرة ابيهم ولم يبق منهم حيا غير قائدهم العنيد الجبار «ماتو» الذى اقتيد الى قرطاجنة ليلقى على يد الجماهير أفظع مصير

وهنا نستأذن فى العدول عن التاريخ الى القصة لنحصل على بعض التفاصيل

كانت فلول جيش البربر قد اسندوا ظهورهم الى تل، ون ان يكون لهم فى النصر أمل ، ولا فى الحياة . ولكنهم كانوامن خيرة الرجال واكثرهم اقداما وأصلبهم عودا، فضلا عن اليأس وانقطاع كل رجاء . وقد انتهى أمرهم بأن كانوا

الا اندفع القرطاجيون هاجمين عليهم تظاهروابالاستسلام حتى اذا اقترب القرطاجيون منهم أرسلوا صيحة استهزاء في وجوههم ، وقتلوا انفسهم بضربة واحدة .وعلىجثثهم كان يعلو رفاقهم ليدافعوا ما استطاعوا عن أنفسهم ، ثم ينتحرون . وهكذا دواليك حتى تعالت الجثث على شكل هرم أخذ يزداد ارتفاعاً

ولم يمض وقت طويل حتى نقص عدد المقاتلين الباقين الى خمسين ، ثم عشرين ، فثلاثة ، فاثنين فقط : رجل من قبائل السمنيين الايطاليين يحمل فأسا ، والقائد ماتو الذى كان سيفه لا يزال فى يده

وكان ماتو قد عرى من غطاء كتفيه ، ومن خوذته ودرعه ومن ثيابه ، واصبح لونه اشد صفرة من لون الموتى وشعر رأسه اغبر اشعث ، وعلى طرفى فمه طبقات من زبد .وكان سريع التحريك لسيفه بحيث يرسم فى دورانه هالة حوله، ثم أصيب السيف بضربة حجر فانكسر مقبضه . كما ان زميله الوحيد الذى كان باقيا الى جنبه قتل بضربة حجر ..

وهذا « ماتو » وحده وقد تجمع القرطاجيون حوله حتى لامسوه ، فرفع نحو السماء يديه المجردتين من السلاح ، واغمض عينيه ثم فتح ذراعيه وارتمى – كمن يلقى بنفسه الى البحر – على الرماح ليموت على حدها. ولكنهم نحوا الرماح من أمامه ، فهجم مرة اخرى وأخيرا عثرت رجله بسيف فانحنى يلتقطه فاذا بحبال معقودة تنعقد على يديه وركبته

وكان صاحب الحبال المعقودة غريمه الامير نارهوى الذى كان يتتبع خطاه وكل حركة من حركاته منذ حين ، وبيده شبكة عريضة من الشباك التىتصاد بها الوحوش

الضارية ، فاغتنم فرصة انحنائه الى الارض فغطاه بها . فبادر الحاضرون ، وجروه أسيرا .

وكانت بشرى وقوع « ماتو » حيا فى الاسر ، قد سرت فى جميع قرطاجة فى الهزيع الاول من الليـــل ، فكانت المشاعل والمصابيح تملأ البيوت ضياء حتى بدت المدينة شعلة من لهب . وتعالى تهليل الناس وصخبهم حتى وصل الى أذنيه وهو فى محبسه منطرح على ظهره ينظر ساهما الى النجوم كأنه يســتطلع الغيب . ثم أقفلت عليه النوافذ والابواب ، فاحتواه الليــل فى انتظار ما سيأتى به نهار الغد

فى مهرجان الزفاف

فى الصباح الباكر خرجت قرطاجة عن بكرة أبيها . فاليوم يوم عيد . والجماهير المحتشدة على الســطوح ترتدى الثياب المزركشة ، واغصان الآس تملأ الشوارع ، وفى زوايا مفارق الطرق يرتفع دخان البخور . والناس يتبادلون التحيات والتهانى . انه يوم زفاف « سلامبو » ابنة هاميلكار الى « نارهوى » أمير النوميديين

وكانت على شرفة معبد « خامون » ثــلاث مناضد ضخمة ، يجلس اليها الكهنة والقدماء والاغنياء ، فضلا عن منضدة رابعة فى مكان أعلى ، للزعيم هاميلكار ، والامير نارهوى ، ولها ، أن ابنة هاميلكار « ســلامبو » التى استرجعت الحجاب المقـــدس وانقذت الوطن ، قد استحقت أن يجعل الشــعب يوم زفافها يوم فرح عام وعيد وطنى ..

وكان أبناء الشــعب كلهم وقوفا فى الميدان ينتظرون ظهورها ..

ولكن كان هناك أيضا شوق آخر ، لعله أشد الحاحا

يستنفد صبرهم . انه مشهد نهاية « ماتو » التى وعدوا برؤيتها فى هذه الحفلة

فقد أشيع انه سيسلخ جلده حيـــــا ، وقيل أن الرصاص المصهور سوف يصب فى أحشائه ، كما تردد غير ذلك من الوان التعذيب

ولكن ، من هو المواطن الذى سيتولى شرف تعذيبه ؟ ولم يختص بهذا وحده دون سائر المواطنين ؟ . ان ابناء قرطاجة كلهم بمختلف طبقاتهم ، ليشـــتهون نوعا من التعذيب تشترك فيه المدينة كلها . نعم ، جميـــع الايدى ، وجميع الاسلحة ، وكل شىء فى قرطاجة حتى بلاط الشوارع وامواج الخليج ، من حقها ان تشـــترك فى تمزيقه وسحقه وفنائه

من أجل ذلك ، كان قرار القدماء أن يكون خروجه من سجنه الى « ميـدان خامون » دون حـراس ، ويداه مشدودتان الى ظهره ، وذلك فى آخر النهار . والناس اجمعون على الصفين يشتركون فى ضربه بأكفهم أو تمزيقه بأظافرهم ، مع الامتناع عن ضربه على قلبه اطالة لحياته قدر المستطاع ، ومع الامتناع كذلك عن سمل عينيه حتى يرى ما يصيبه من صنوف التعذيب حتى النهاية . لكن ذلك لم يكن ليبدأ الا بعد موكب الزفاف

هذه هى مراوح الريش العالية تبدو من بعيد مرتفعـة فوق الرءوس . لقد طلعت سلامبو من قصرها ، فتنفس الناس الصعداء وظهرت عليهم أمارات الارتياح . ولكن الموكب تباطأ وصوله من جراء طوله ، وتقدمه خطـوة خطوة . .

وكان فى الطليعة كهنة الالهـة على مراتبهم ، مختلفو الشارات والاعلام والثياب والالوان حسب صفات وطبائع

الهتهم . وكان كهـان الربة « تانيت » يتقـدمون بخطا المعجب بنفسه ، وعيدانهم فى ايديهم ، ووراءهم الكاهنات بأثوابهن الشفافة صفرا وسودا ، وهن يقلدن غناء الطيور ويرقصن متلويات كالافاعى ومقلدات دوران الكواكب

ثم اقبل أساطين المال وحكام الاقاليم

وتعالت الضوضاء وازداد الزحام . كان خدمة المعبد يدفعون الناس الى الوراء ضربا بالعصى ليحولوا بينهـم وبين القدماء . وفى الوسط كانت محفة تعلوها مظلة من ارجوان كانت قبلة الانظار ، فمن تحتها لاحت للناظرين « سلامبو » متوجة بتاج من الذهب

وعندها ارتفعت الاصوات ، وتعالت ضربات الصنوج ورنات الجلاجل أكثر من ذى قبل ، وزادت عليها دقات الدفوف حتى اختفت المظلة داخل المعبد الضخم

وعادت المظلة عاطلة ممن كان فيها . وعلى الاثر ظهرت سلامبو فى الطابق الاول تتقدم ببطء حتى اجتـازت الشرفة ، وجلست فى اقصـاها على عرش منحوت . فوضعوا تحت قدميها موطئا من عاج ذى ثلاث درجات ، على طرفى الاول منها غلامان زنجيان ، كانت تسند الى رأسيهما من الحين بعد الحين ذراعيها المثقلتين بالدماليج والخواتم ..

وكانت سلامبو فارعة القوام فى ثوب يشده من الكعبين الى الردفين خط من حلقات ضيقة هى تقليـد لقشور السمك وان كانت تلمع كالعاج . كما كان يشد خصرها نطاق أزرق ابرز نهديها فبديا من خلال تجويفتين كأنهما هلالان وغطى حلمتيهما اقراط مدلاة من الياقوت الجهرى . وكان تصفيف شعرها الى أعلى رأسهـا مزينا بريش طاووس علقت فيه حجارة كريمة بشكل نجوم . وكان

يتدلى وراءها رداء أبيض شبيه بالثلج . وكانت سلامبو في جلستها منتصبة القامة وعلى الهيئة التي تفرضها الطقوس الدينية ، فكان مرفقاها مستندين على جسمها وركبتاها مضمومتين . وتطوق معصمها حلقات من الماس

وعلى مقعدين دون مقعدها جلس أبوها وزوجها . وكان « نارهوى » يرتدى رداء ذهبي اللون ، وقد عقد على رأسه تاجا مرصعا بالجواهر ، نفرت من تحتـه خصلتـان مجـدولتان على هيئـة قرني آمـون . وكان هاميلكـار في حلة بنفسجيـة عليهـا طـراز بالذهب يمثل غصون عنب مورقة ، وهولايزال يتقلد سيفه

واخذ كبار المدعوين أماكنهم على الشرفة على حسـب التقليد المرسوم ..

وكانت الجماهير تملأ الشوارع ، ومنهم من تسـلقوا السطوح وقد تكدسوا واتصلت صفوفهم عالية حتى أعالي الاكروبول ..

وافتتحت المادبة ، فبلغت الى أوجها . ازدحم السماط بانواع الاطعمة والاشربة . والخدم والعبيد مشمرون عن أكمامهم للخدمة يروحون ويجيئون على أطراف الاصابع . وفي الحين بعد الحين تضرب العيدان نغما من الانغام ، أو ترتفع بالغناء أصوات القيان . وقد استسلم المدعوون الى احلام السعادة . وقد خفت وقدة الحرارة حين بدأت الشمس تزول ، والقمر يصعد في الجهة الاخـرى من السماء ..

وكان هاتفا أهاب بالعروس . ورآها الشـعب فتتبع مرمى طرفها ..

هنالك كانت قمة الاكروبول . وقد انفتح باب السجن المظلم المنحوت في الصخر في اسـفل المعبـد . وعلى

عتبة هذه الظلمة وقف رجل خرج من سجنه محنى الظهر وعليه ملامح الوحوش الضارية المذعورة التى يطلق سراحها على حين فجاة . وكان النور يبهر عينيه . فظل حينا وهو جامد لا يتحرك . وعرفه جميع الناس ، فأخذوا يكتمون انفاسهم . ذلك ان جسد هذه الضحية ذو صفة خاصة لديهم أقرب ما تكون الى الصفة الدينية . فهم يتتبعون قدومه باهتمام شديد ..

واخيرا تقدم الرجل الى الامام . فزالت عن الناس صدمة المفاجأة ، وارتفعت اذرع لا عداد لها كادت تخفيه وراءها ..

وكان سلم الاكروبول عشرين دركة وكان يهبطها مترنحا كما لو كان يتخبط فى وسط سيل متدفق من جبل. وقد لمحه المتطلعون اليه من بعيد يطفر ثلاث مرات ثم يسقط فى أسفل الدركات على عقبيه . وهاتان كتفاه تدميان . وصدره ينتفض من فرط لهاثه وتقطع أنفاسه ، وهو يبذل مجهود الجبابرة ليقطع وثاقه حتى بدت ذراعاه من تصلب العروق كقطع من ثعابين مقطعة

ومن المكان الذى كان فيه ، بدت امامه شوارع عديدة تمتد السلاسل على طولها من أول الشارع الى آخره فى خطين متقابلين . والجماهير متراصة الى الجدران على الجانبين ..

وفى الوسط خدم القدماء يمشون جيئة وذهابا وبأيديهم سياط من جلد .

ويدفع أحدهم « ماتو » الى الامام بضربة قوية . فيبدأ « ماتو » مسيرته فى الشارع الطويل متهالكا من الاعياء والألم الشديد . والناس على الجانبين يمدون أذرعهم جاهدين

من فوق السلاسل ، وهم يشكون مما ترك للرجل من سعة في طريقه ، مع أن أيديهم بالغة اليه تتحسس موضع القرصه كما تعمل اظافرهم على تمزيق جلده ولحمه • فاذا بلغ نهاية شارع بدأ غيره . وكان كثيرا ما يرتمى على من يعنفون به لينهشهم بأسنانه ، فيتنحون مسرعين ، وتصده السلاسل فيستغرقون في الضحك ساخرين به مستهزئين

وكان بين الفتيان من مزق اذنه ، كما شقت فتاة خده برأس مغزل كانت تخبئه في كمها • وانتزع آخرون ملء قبضاتهم خصلا من شعره ونتفا من لحمه • وتدفق الدم غزيرا من جرح في فخذه ، ودار به رأسه وخارت قواه فالتوى عرقوباه ، وهوى شيئا فشيئا الى الحضيض على البلاط . فأسرع رجل الى رواق الاعمدة في المعبد وتناول من موقده قضيبا حماه بالجمر حتى احمر ، ومده من خلال السلاسل حتى بلغ الى «ماتو» وهو طريح على الارض ، وشد به على جرحه العميق فتصاعد الدخان من اللحم المكوى .. ولكنه كتم صراخه عندما سمع هتاف السخرية والتشفى الذى ارتفع من الشعب • وانتصب ماتو واقفا ..

وسقط ماتو مرة ثانية على بعد ست خطوات ، وتوالى سقوطه ثالثة ورابعة .. وكان ينهضه في كل مرة نوع جديد من التعذيب .

وظل ماتو يسير من شارع الى شارع حتى عجز عن المسير ، فاستند الى الحائط تحت طنف حانوت ، وتوقف عن السير • فجلده العبيد بسياط من جلد جاموس البحر جلدا مبرحا ، دام طويلا حتى تبللت أثوابهم بالعرق وهو فاقد الاحساس . واذا به يتحفز ويأخذ في الجرى بلا هدى ، ومن شفتيه يخرج صريف وفحيح • وكانت قد أخذته

قشعريرة البرد الشديد . ووصل على هـــذه الحال الى « مبدان خامون » فأصبح الآن مملوكا للكهنة رجال الدين . وكان العبيد قد نحوا جماهير الشعب عن اقتحام الميدان

وهنا نظر ماتو الى ماحوله فوقعت عيناه على سلامبو

وكانت سلامبو قد انتصبت واقفة منذ الخطوة الاولى التى خطاها . وكانت كلما اقترب تقدمت هى شـــيئا فشيئا ، وبدون ارادة منها ، نحو حافة الشرفة ، وبعـــد قليل كانت قد انمحت جميع الاشياء الخارجية من أمامها ، فلم تعد ترى الا ماتو

***

وفى وسط كل هذه الجلبة خيم الصمت على نفسها . انها وهدة من تلك الوهدات التى يغيب فيها العالم بأسره تحت ضغط فكرة متسلطة ، أو ذكرى ، أو نظرة .. فهذا الرجل السائر نحوها كان يجتذبها

لم يكن باقيا لماتو من مظهر الانسان الا عيناه ، فهـــو فيما عدا ذلك شكل من الاشكال مخضب بالحمرة تتدلى منه حبال وثاقه فلا يمكن التمييز بين هذه الحبال وبين اطرافه المزقة ، المعروقة المجردة من اللحم . وكان فمه لايفتأ فاغرا ، ومن محجريه يخرج لهبـــان كأنما يرتفع وهجهما حتى شعر رأسه .. وكان هذا الشكل البائس الفاجع لا يزال ماضيا فى مشيته المتهالكة

بلغ ماتو الى أسفل الشرفة ، وتوقف تماما حيث كانت سلامبو منحنية على سورها وكان انسانا عينيه شاخصين يتاملانها . وكأنما انفجر فى وجدانه ذكر ما قاساه من العذاب فى سبيلها . وفى هذه الوقفة وعلى الرغم من انه كان يلفظ اخر أنفاسه ، تراءى ماتو فى عينى سلامبو كما كان فى خيمته ، فى أوج سلطته ، جاثيا أمامها ، محيطـــا

قامتها بذراعيه ، متمتما أعذب الكلمات .. انها الساعة عطشى للاحساس بعذوبة تلك الكلمات ، وسماعها مرة ثانية . انها لا تريد أن يموت

***

وفى هذه اللحظة ، انتفض ماتو انتفاضة شديدة فأوشكت أن تصرخ . ولكنه كان أسرع منها فقد هوى منطرحا على ظهره وقد فارقته الحركة الى الابد

وأوشك أن يغمى عليها فحملها الى عرشها على الشرفة الكهنة الذين يحفون بها ، وهم يهنئونها ، لان هذا صنيع يديها ومن فضلها . وكانت الجماهير كلها تصفق وتضرب الارض باقدامها هاتفة باسمها

وعندها أخذت نشوة الخيلاء عريسها « نار هوى » ، فلف ذراعه اليسرى حول خصرها أشعارا بامتلاكه لها ، ثم تناول بيمناه جاما من الذهب ، وقام يشرب نخب قرطاجة ..

وهبت سلامبو واقفة كما وقف زوجها ، وفى يدها جامها لتشرب هي أيضا . ولكنها هوت على عرشها . واستلقى رأسها فوق مسند العرش متصلبا ، وقد شحب لونها كل الشحوب . وهذه شفتاها مفتوحتان ، وهذا رأسها العالى بشعره الطويل المصفف المزدان بريش الطاووس يتدلى على الارض

لقد مات « ماتو » زعيم الثوار ، وماتت « سلامبو » ابنة هاميلكار .. مات كل من لمس حجاب ربة الحب تانيت ..

حورية الغابة
"مدام بومبادور"

نبوءة .. !!

كانت امها كسائر الامهات تتمنى لابنتها حظا اسعد من حظها وحياة مستقبلة خيرا من حياتها وكان من تسلط هذه الرغبة عليها ان ذهبت مع الصغيرة وهى فى التاسعة من عمرها عند مدام « ليبون » قارئة الورق المشـــهورة وقتئذ. لتستخبر ورقها عن مستقبل الفتاة وما ينتظرها من حظوظ الحياة . وكانت العرافة باريس تدرك خفايا النفوس فلم تر باسا من أن تمعن فى الغلواء وتضربهـــا ضربة عشواء فالقت نبوءتها فى صوت الواثق : « ان الفتاة لن تكون ملكة ولكنها ستكون شــــبه ملكة » وخرجت الام وقد احتضنت صغيرتها الجميلة فى حنان وشفف وعادت بها الى المنزل تحلم بالمستقبل الباهر المنتظر ويتراءى لها كل ما حولها أزرق قد انتثرت عليه زهرات الزنبق مطرزة بالذهب ، على هيئة الشعار الملكى . ولم تفتأ منذ الحين تدعوها بصيغة التصغير « مليكة » ثم تكرر التصغير وهى تدللها : « يامليكتى الصغيرة » .

وكانت الصغيرة «جان انطوانيت» «Jeanne Antoinette» معهودا بها الى الراهبات لتنشئتها . وكانت رقيقـــة الجسم لطيفة الروح شديدة الحساسية مفرطة الذكاء وقد أضافت رئيسة الدير وهى تصفها فى رسالة لأمها: « انها ذات ملاحة تروق كل من رآها » ولا شك فى أن الأم كانت

تاركة فتاتها تستكمل فى حظيرة الدير دراستها لي أ هـ'
كانت أقل جمالا ، ولعلها كانت تتخرج منه سيدة فاضلة
مغمورة الاسم لا شهرة لها ولا جاه ، ولعلها كانت تكون
أسعد حالا وأهنأ بالا . ولكن الفتاة كانت جميلة وكانت
امها طموحا . وما أشد ما كان حزن الراهبات لمفارقتها
الدير حين بلغت التاسعة .وفى خارج الدير بدأت فتاتنا
بعد التاسعة تتلقى تربية جديدة ، تربية تؤهلها للأحلام
المنشودة لحياة العشيقة الملكية ..

كانت امها تعرف للجمال قدره ولكنها كانت تعرف
كذلك ان الجمال اذا كان يجتذب فانه لا يكفى وحده
لاستبقاء الرجل والاستئثار به . ثم هنالك أوقات حزن
اوكلال يكون فيها اجمل الوجوه عاجزا مسلوب القدرة
اذا هو لم يشرق بنور نفسانى ، والرجل على كل حال
يميل للتنقل والتغيير ولا يثبت الا مع المرأة التى تشبع
منه هذا الميل الخفى المركوز فى طبيعة الرجل مهما
اشتهر بأنه المخلص الوفى . ومن ثمة لم تدخر الام جهدا
الابذلته ولم تترك سبيلا الا سلكته لتجعل ابنتها خلاصة
حية لكل محاسن النساء وكل فنونهن . لقد دفعت بها
الى الاساتذة المختصين كل فى فنه فتعلمت الغناء والعزف
والرقص والالقاء التمثيلى والرسم والحفر على الحجارة
الكريمة وكل ذلك دون أن يبدو عليها تفهيق العالم
وتظاهره بالعلم بل احتفظت بتمام القصد والاتزان
وتلك المصانعة والتلطف وحسن المداخلة التى يصح
نعتها بالخفر النفسى والاستحياء الذهنى .

وكانت الفتاة مهما رجعت بذكرياتها الى الوراء
واجدة خيال الملك ممتزجا بخواطرها منذ الحداثة ، لقد
كانت نبوءة قارئة الورق وما يتردد فى خاطر أمها وعلى
لسانها وما يكرره حولها المعجبون ... كل هذا

كان يدير راس الفتاة الحافل بآمال الصـــبا المفتونه واشواقه الغامضة المجنونة . وهكذا شغفت الفتـــاة بالملك قبل ان تراه فالكل يقولون انه جميل وانه لا يجد غير الملل والسآمة مع امراته كما كانت تعرف مما يتناقله الناس من اخبار البلاط ما كان من حظوة « مدام مايى «Mme Maill» عند الملك ثم ســقوط حظوتها وانتصار غيرها التى لم تكن غير « مـدام فنتيميل Mme. Vintimille اختها وما كادت هذه تضع حملها فى الحرام ثم تقضى نحبها على الاثر من حمى النفاس حتى استولت على قلب الملك ـ أو بعبارة ادق ـ استولت على حواسه عشيقته الراهنـــة « مدام شـــاتورو Mme. Chateauraux الارملة الحســـناء وهى الاخت الثـــالثة وليست الاخـيرة ـ من اسرة « نســـل ـ Nesle » الفاسقة .ولم تكن هذه الصبوات الفاضحة المحرمة تثير فى البيئة التى كانت تعيش فيها الفتاة ثائرة الاستنكار والاشمئزاز ، لكثرة ترددها على اسماع الناس وألفتهم لها . لقد كان الملك فوق الاحكام الخلقية والاداب المرعية وكذلك عشيقاته فلا غرابة الا تكف الصبية ـ لفرط تدليلها باسم «مليكة» عن الاندفاع مع الامنية التى خالطت نفسها منذ الحداثة وهى ان تكون مثل اولئك النساء عشيقة ملكية .

وكانت بعض الصالونات الباريسية قد فتحت أبوابها للام من اجل فتاتها وفى هذه الصالونات لقيت الفتـاة « ماريفو » و « مونتسكيو » و « ديكلو » و « فونتنل » وغيرهم من أدباء العصر واهل الفكر .

ولم تمض اشهر قلائل حتى تقدم لخطبة الفتـــاة الجميلة « المسيو لينورمان دى اتـــول M. Le Normant d'Etiolles » وكانت الفتـــاة فى التـاسعة عشرة من عمرها وفى ابان ازدهار جمالها ولم يكن الخطيب جميل

الطلعة ولا معتدل القوام ولكنه كان حسن الحال وافر المال ، كما كان عاشقا لها شديد الكلف بها ، ثم انه كان قليل الايمان بما ترجم به قارئات الورق من نبوءات . وفى التاسع من مارس عام ١٧٤١ كان الزواج .

وكان من شأن هذا الزواج ان انفتحت كل الصالونات الانيقة امام الفتاة وتدانت المسافة بينها وبين العلية من السراة واهل البيوتات فكانت تتردد على اشهر صالونات باريس ، صالون الفن والفلسفة فى شارع «سان اونوريه» الذى كانت صاحبته وملكته « مدام جوفرين » تستقبل فيه ايام الاربعاء من كل اسبوع زوارها المعجبين من الاشراف وقادة الفكر النابهين فضلا عن الفانيات الحسان وسيدات المجتمع التى اصبحت مدام دى اتيول منهن وكانت قد اصبحت لها دار فى باريس وقصر فى اتيول على مقربة من غابة « سينار Sénart » جنوبى فرساى .

واخذت الغانية بدورها تستقبل فى دارها «مونتسكيو» و « فونتنل » والرئيس هينولت ، والاب برنيس والشاعر الفيلسوف فولتير وكانوا جميعا يتبارون فى صوغ المقطوعات القصار من الاشعار فى اطرائها والتشبيب بها وقد كان الرئيس « روشيه Rocher » الذى امضى فى اتيول جانبا من الصيف فى عامى ١٧٤١ ، ١٧٤٢ يقول فى وصفها « هذه الحسناء البيضاء الحلوة » ولم تكن محاسن « مدام دى اتيول » تقف عند حد هذه الصفات بل اجتمع لها الكثير فوقها ومن ذلك موهبتها فى التمثيل فقد اشتركت مع أكثر من سيد وسيدة من شباب العلية فى تأدية الادوار التمثيلية فى اكثر من مسرحية فى اتيول وغيرها ولم تلبث ان اتصلت الزيارة بينها وبين ذوات الالقاب من المتصلات بالبلاط حتى اصبحت على درجات

من تلك القمة البعيدة المنال ، تلك القمة التى ما برحت ترنو اليها وتحلم ببلوغها ونعنى بها : القصر الملكى

حورية الغابة

عنــــدما كان الملك لويس الخامس عشر يخرج الى مطاردة الظباء وصيد الايائل فى غابة « سينار » عــلى مرحلة من قصر فرساى كان سكان القصور فى هــذه الارباض بل سواد الناس انفسهم يحصلون على ترخيص بشهود الصيد الملكى وكان بعضهم يقبل فى المركبـــات والبعض على صهوات الخيل وهم افواج من اشــتات مؤلفة والوان مختلفـــة ، تهللت وجوههم وسرت هزة السرور فى اعطافهم بما ادخلته هذه المناسبة من نشوة البهجة على قلوبهم فهرعوا الى الغابة ولـــكن الى حيث يفرض عليهم الادب أن يقفوا من غير توغل ولا تطفل على مرأى من ذلك المشهد الجميل البــاهر يتطلعــون اليه ويعجبون به ..

وفى المفرق المتفق عليه بين الطرق المتشعبة فى الغابة التى زانها الخريف بمثل الاستار الذهبية من اشجار الزان والبلوط كان يقوم الموكل بالصــيد فى موقفه يحف به قادة كلاب الصــيد والنافخــون فى الابواق وكان ثمة الجياد واقفة يمسك الخدم بأعنتها فى انتظار الفرسان وقد اختلطت دقات حوافرها على الارض بنبحات الكلاب الضخام التى يتألف منهـــا ذلك السرب الابيض الاصهب من الكلاب الملكية المدربة على الصيد .

وفى احدى الطرقات الظليلة التى تشق الغابة وتنفذ اليها سهام الشمس الذهبية من خلال الاشجار على جانبيها تدرج المركبات الفاخرة تقل سيدات البلاط ونبـــلاءه . ويقبل الملك ومدعووه فى الحلة الزرقاء وفى مناطقهم السكين

والقبعة المثلثة الاركان قائمة على شعرهم الابيض المستعار يمتطون صهوات الجياد فتتنحى المركبات لتفسح الطريق للموكب ويبدو الملك لويس الخامس عشر معتدلا على سرج جواده وافر اللطف كامل السمت ويمر الملك وفرسانه أمام المركبات تحييه السيدات ويترصدن نظرة منه اليهن. وكان وجه الملك وهو بعد فى ريعان الصبا لا تظهر عليه الا مسحة خفيفة من سآمة الحكم ونهـــكة اللذات ولا تنم سيماؤه عن اية عاطفة . ان وجهه قنـــاع لا تختلج له خالجة ولا تبدو عليه بادية وان يكن فى ملامحه شرف ونبالة وفى فمه استخفاف وازدراء ، فضـلا عن هاتين العينين النجلاوين فى غير بريق ولألاء .

بيد انه كان يلاحظ بين العجلات الخفيفة التى تتابع دائما صيد الملك عن كثب وفى مكان ظاهر له عربة صغيرة انيقة ذات لون ازرق سماوى وكانت تجلس فيها غادة فى ثوب وردى وبيدها العنان وكأنها مثال لربة الجمـــال « فينوس » كما تظهر على المسرح فى محارة كبيرة على هيئة الصدف البحرى وكان اذا اجتاز الملك تطلعت اليه الغادة ذات الثوب الوردى وصمدت عيناها دون ارتباك لنظرته التى كانت تتوقف احيانا عندها وتستقر عليها حتى اذا ابتعدت عجاجة الفرسان والكلاب تلبية لنداء الابواق الحاد اختلطت العربة الصغيرة الزرقاء بغيرها من أنواع العجلات مقبلات ومدبرات وكثيرا ما كانت تظهر العربة الزرقاء فى منعطف احد المسالك وحيدة منقطعة عن الزحام فى اللحظة التى يمر فيها الملك ويخلو اليها نظره . وعندما يرتفع تهليل الموسيقى وتتردد اصداؤها فى انحاء الغابة معلنة الظفـر بالفريسة وانتهاء الصيد وينثنى الملك الصياد قافلا فى طريق العودة الى قصره البديع الانيق فى « شـــوازى »

«Choisy» على مقربة من فرساى تظهر العربة الصغيرة ويبلغ من اقترابها أن تكاد تلمس أحيانا المركبة الثقيلة التى تقل الملك وهو جالس فى صمت المفكر والى جانبه الخليلةالرسميةالدوقة«مدام شاتورو «Mme. Chateauraux» وصاحبتها « مدام شيفريز «Mme. Chevreuse»

وفى بعض هذه الاصائل اثناء الاياب من الصيد اتفق ان اشارت مدام شيفريز الى صاحبة العربة الزرقاء حورية الغابة تلك الجنية الفاتنة التى تطلع عليهم اثناء الصيد فى صورة غانية باريسية وكان لويس الخامس عشر شديد التطلع الى الوقوف على اسرار رعاياه وخاصة النساء وكان يعرف الكثير عنهن من تقارير الشرطة ومن ثمة لم يكن يجهل اسم تلك الغادة الحسناء وكان يعرف انها زوجة خازن من خزنة بيت المال هو «المسيو لنورمان» وانها تسكن قصر اتيول الذى يملكه عم زوجها صاحب الضياع وكان الملك قد اكثر من النظر الى العربة الزرقاء بحيث لم يعد للخليلة الرسمية « مدام شاتورو » صبرعلى سماع ادنى اشارة اليها فضلا عن الثناء عليها • ومن ثمة لم تتمالك فى غيظها ان مدت فى الخفاء قدمها فدعست بها قدم صاحبتها فى قسوة بالغة صرخت لها وتألمت وكان للخليلة ما أرادت فقد انقطع الحديث الخطر ولم يرد للعربة الصغيرة الزرقاء وصاحبتها ذات الثوب الوردى ادنى ذكر بقية الليلة •

بيد ان العشيقة الرسمية « مدام شاتورو » لم تلبث ان لزمت الفراش من وعكة خفيفة بالحمى فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٧٤٤ثم ساءتصحتها وتفاقمت حالتها منذ اوائل ديسمبر فما كان الثامن من ديسمبر حتى كانت المنية قد اختطفت الدوقة المحظية وفىالصباح

الباكر من اليوم العاشر دفنت •

واعتكف الملك مع أربعة أو خمسة من خاصته في قصر ريفي بالقرب من غابة بولون ولم يكن يحاول كتمان حزنه وفجيعته على « العشيقة الوحيدة التي احبها » ولم يلبث أن ظهر عليه الاحساس بالفراغ والملل

وكانت النساء يترقبن منه تلك الساعة الاتية التي لا ريب فيها ساعة التطلع الى ناحيتهن في طلب السلوان عند واحدة منهن •

وقد حاول الدوق دى ريشليو ان يستدرج اخت المتوفاة الاخت الرابعة « مدام دى فلافاكور «Mme. de Flavacour ولكنها ابت العرض واستنكرته • ولكن أكثر من غانية كانت حول الملك تعرض نفسها طائعة راضية ، اما لويس الخامس عشر فكان ــ كعهده ــ اشد الناس حذرا من الناس وانطواء على نفسه ومن ثمة نفوره من الغانيات الطامحات اللواتي يتخذن حبهن الزائف وسيلة للوصول وايثاره الطبيعي للمرأة التي تحبه بوصفه رجلا اكثر منه ملكا لما يدخله مثل هذا الحب على نفس الرجل من الاعتزاز • هذه المرأة التي لا مطمح لها لا يمكن للملك ان يضيق بها • انها خرجت من العدم والى العدم تعود بمجرد اشارته فاذا هي تعلقت به فانه تعلق الامة العابدة للسيد المعبود فيه ضراعة لا ترتفع الى مرتبة الالزام والمطالبة • لهذا كان الملك يتجه بتفكيره الى الباريسية من بنات الطبقة الوسطى وكانت المرأة الباريسية قد بدأ يظهر سلطانها في المجتمع الفرنسي • والملك ــ بفضل تقارير الشرطة وقلة الامانة على الاسرار في البريد ــ كان مطلعا على ما خفي من حيـــاة رعاياه وعلاقاتهم الشخصية ومغامراتهم الغرامية وكان الحديث في ذلك احيانا سمره في المساء مع « بينيه «Biner خادم مخدعه •

وكان « بينيه » يجارى سيده ويحدثه عما يعرف عن باريس والباريسيات وقد اجرى على لسانه ـ فيما يقال ـ اسم ابنة عمه « مدام دى اتيول » التى كانت تتمنى لزوجها وظيفة ملتزم عام على الضياع وردد الملك : « مدام دى اتيول .. ذات الثـــوب الوردى » وتـــراءى امام عينيه المستغرقتين فى التفكير طيف قوام لطيف يمر فى العربة الزرقاء اللازوردية تحت اشجار الخريف بأوراقها المذهبة النحاسيةفى غابة «سنار»..هذهالغادة التى اقلقتالدوقة المسكينة « مدام شاتورو » وشغلت بالها..هذه الحسناء الصبية الوضيعة النسب الرفيعة الادب التى افتتنت بها صالونات أهل المال ولم تتخذ عشيقا ، لم تتخذه بعد .. اتراها عفيفة ؟ هذه مبالغة فى القول لقد زعمت للناس انها لن تكون لغير زوجها الا ان يكون الملك نفسه فمـــاذا يمنع من قطف هذه الوردة الصغيرة اذا هى سعت اليـه فى حاجة تلتمسها .. لا بأس من تشريفها يومئذ بضمة عابرة ثم يتركها لشأنها .

فى افراح ولى العهد

كانت الافراح التى أقيمت عام ١٧٤٥ بمناسبة زواج ولى العهد بالغة منتهى الروعة وقد امتدت اياما وليالى عـدة ولقد شاء الملك ان يكون آخر يوم فى هذه الافراح ـ وهو السابع والعشرون من فبراير ـ مرقصا فى قصر فرساى غير مقصور على المدعوين بل مباحا لجميع الوافدين ماداموا مقنعين وهكذا فتحت ابواب القصر الحديدية للارتال من العربات القادمة من باريس فكانت تفرغ حمولتها الجميلة فى الساحة الداخلية امام السلم الرخامى المؤدى الى ردهات القصر . وقد شهدت قاعة المرايا وهى غارقة فى الانـوار عشرات المئات من الطبقة الوسطى من ابناء باريس وبناتها

الحسان ممن اجتذبهم المرقص المقنع فكانت لهم حظـــوة الاشتراك فيه دون ان يطلب اليهم حجاب القصر بطـاقة الدعوة بل كان القناع وحده بمثابة الرخصة وجـــواز الدخول وكانت الزحمة تفوق الوصف حتى ليصح القول بأن باريس كانت تلك الليلة فى قصر فرســاى وكانت المرايا العريضة العالية تعكس هذه الجموع الراقصـــة فيزيد الاحســـاس بالزحمة والبهجة وكان الراقصون والراقصات يبدون فى ثياب التنكر امما شتى واجيـــالا مختلفة واجناسا عجيبة فثمة آلهة الاولمب عند الاغـــريق والرعاة وعرائس الغاب وهؤلاء اتراك بعمائمهم الكبيرة واولئك فرس يرفلون فى طيالسهم الطويلة وهنالك الهند والصين بأزيائها فضلا عن المتنكرين فى ثياب المهرجين فى المهازل المعروفة المشهورة • وقـــد دار نـدمان الملك بالكئوس على الراقصين والراقصات مرة بعد اخرى فدارت بهم الرءوس على دوارها واشتدت حرارة الجو من الشموع والانفاس وزاد ثقلا بما تشبع به من رائحة الشمع المحترق وما تضوع فيه من عبير العطور • وكانت المعازف والنايات والقيثارات تتطاير أنغامها العازفة كأنهــا الف نحلة فى حديقة وارفة • كل هذا والتماثيل الرخامية تتأمل عربدة هذه الليلة المجنونة بعيون شواخص جامدة •

وانفتح أحد الابواب فوقع اضطراب فى هـــذه الكتلة البشرية الموارة ثم اعقبت ذلك هدأة وانحنت الرءوس الجمبلة بشعرها المستعار المبيض من الذرور المتألق بحبات اللؤلؤ المنثور •• ثم تدافعت الغانيات بالمناكب لترى الملك •• انه لا شك الملك •• فما من امرأة الا وتريد رؤيته أو على الاصح تريد ان يراها ويروقه محياها • انه من بعد موت

عشيقته يبحث لا محالة عن فينوس يهديها التفاحة الذهبية التى تتحدث عنها الاسطورة الاغريقية وما اكثر القلوب التى خفقت لهذا الخاطر تحت رداء التنكر الساحر بيد ان هذا الامل لم يلبث ان خاب حين تقدم الموكب فسمعت منه حركة الاقدام الصغيرة العصبية وحفيف المآزر الفضفاضة النسائية انها الملكة تستند الى ذراع فارس الشرف ومعها بطانتها وخلفها ولى العهد وعروسه وهو متنــــكر فى زى بستانى وهى فى زى بائعة الازهار ، أما الملك فلم يكن فى الموكب فاذا الغانيات ينصرفن عن الموكب وقـــد فارقهن فضولهن وعدن الى التعلق بمن كانوا يراقصونهن ٠

بيد انه لم يلبث ان انفتح باب آخر واقبلت اشــــباح اخرى عجيبة قاتمة وكانما الحديقة زاحفة على القصر قادمة انها ثماني دوحات طوال من السرو تتقدم فى وقار ونبات بين الراقصين والراقصات ٠ وكانت هذه الدوحات تتخللها شقوق للعينين وللفم وقد اقبلت الغانيات وتحلقت حول الدوحات وكل منهن تحسب انها عرفت الملك فى هــــذه الدوحة او تلك ولكن واحدة منهن فقط هى التى عرفت الملك ولم تخطئه ،انها « مدام دى اتيول »٠ لقد عرفته من صوته ومن عطره وكانت متنكرة كغيرها فما زال الملك بها حتى ازاحت القناع لحظة عن وجهها فاذا الملك وجهـا لوجه امام « حورية الغابة » التى لم تلبث ان فرت كالغزال من بين يديه بعد ان اسقطت منديلها الصغير من الدنتلا عند قدميه فالتقطه الملك والقاه اليها فى رشاقة وحركة رمزية وهنا ترددت الهمسات : « لقد تحدته ٠٠ فقبل التحدى ٠٠ واسرعت الغادة وهى ترتجف من نشوة الظفر الى الخروج واستقلت عربتها عائدة الى باريس ٠

وقد ابت باريس التى استقبلها الملك فى قصره الا ان

تدعوه الى دارها الشعبية دار البلدية حيث اقيم كذلك مرقص مقنع ليكون خاتمة ليالى الافراح احتفالا بزواج ولى العهد • وقد بلغ من الزحمة ان انقلبت الى فوضى فتلكأ الملك ـ وهو فى ثوب التنكر الاسود المرقع على شـكل مربعات النرد في الذهاب الى دار البلدية ولم يزل وبعض اخصائه يرقصون هنا وهناك فى فرساى وفى دار الاوبرا الى ما بعد منتصف الليل ثم اقبل على مرقص البلدية حيث التقى بمدام دى اتيول وكانت فى مثل ثوب التنكر الذى يرتديه ولكنه كان مشوشا من تدافع الزحام ودعاها الملك للاستجمام ساعة فى مكتب الحاكم حيث لقى من دلالهـا ما اوقعه فى حبالها ،فما ان غادرا دار البلدية حتى سألها الى اين تريد ان يذهب بها فلم تترخص وقالت على الفور: « الى بيت والدتى »

وهكذا تغير موقف الملك من هذه الحسناء التى ظنهـا فريسة سهلة ومتعة ليلة فلا عجب ان جعل منها بعد فترة غير قصيرة من المراودة والتحبب عشيقته المفضـلة بل عشيقته الرسمية ،وظلت لها مكانتها وحظوتها عنده حتى اختطفت المنية هذه الزهرة اليانعة الجنية •

القصص العالمى

- من القصص الاسبانى
- من القصص الفرنسى
- من القصص الروسى

من القصص الاسبانى

كلمة تعريف بالمؤلف الأسبانى
بلاسكو أبانيز

بلاسكو أبانيز مؤلف روائى عالمى ، وثائر سياسى أسبانى . ولد فى « بلنسية » على ساحل اسبانيا الشرقى عام ١٨٦٧ .

وكان « بلاسكو أبانيز » فى طليعة الشباب المتحمسين للمبادىء الجمهورية فى عهد الملكية الاسبانية ، وكان من اشتراكه فى مؤامرة ضد الملكية عام ١٨٨٩ أن اضطر للهجرة الى باريس ، حيث لاقى بعض المنفيين من الاسبان ، من شتى الطبائع والامزجة وهم يشتركون لكسب معاشهم والحصول على مايسد أودهم فى تاليف معجم اسبانى فرنسى . ولم يلبث الشاب أن عاد الى مسقط رأسه « بلنسية » ، واستانف القاء الخطب السياسية الحماسية واصدار الصحف اليومية ، ثم اخذ فى أثناء ذلك ينشر أولى رواياته أجزاء متتابعات فى ذيل جريدته « الشعب » فكان من جراء حملاته العنيفة أن تعرض للاضطهاد ، فاضطر ثانية للهرب الى ايطاليا . فلما عاوده الحنين ، وعاد الى « بلنسية » اعتقل وصدر حكم القضاء عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة أربع عشرة سنة . ولكن « بلنسية » بلدته الوفية ، انتزعته بعد قليل من السجن حين انتخبته نائبا عنها

ولم يناهز « بلاسكو أبانيز » سن الثلاثين ، حتى كانت

رواياته التى تمثل الحياة الاسبانية العصرية فى موطنه « بلنسية » ، قد ذاعت شـــهرتها وكثر الاقبال على قراءتها ..

ومن ثمة زاد استغراق المؤلف فى تأليف القصص ، وكثرت أسفاره حول العالم للتزود من المعارف والتجارب . وكانت أحب هذه الرحلات الى نفسه رحلته عام ١٩٠٩ الى أمريكا الجنوبية اللاتينية .

***

وفى سنة ١٩٢٤ عاد بلاســكو ابانيز الى الـكتابة السياسية برسالة عنيفة عنوانها « كشف القنــاع عن الفونس الثالث عشر » ، طبع منها بالاسبانية ما لا يقل عن المليونين من النسخ للتوزيع فى أسبانيا والجمهوريات اللاتينية فى أمريكا الجنوبية ، كما طبعت الرســالة فى الوقت نفسه بالفرنســية فى باريس ، وبالانجليزية فى لندن ونيويورك

بيد ان شهرة بلاسكو ابانيز فيما وراء أسبانيا ترجع قبل كل شيء الى رواياته التى ترجمت الى معظم اللغات . وأكبر الظن أن رواياته كانت قبيل وفاته أوسع انتشارا فى بلاد العالم الاخرى منها فى أسبانيا .

وقد استقر به المقام فى أواخر حيــاته فى باريس ، ومنها كان يبذل المساعى والجهود لتجديد الفتن السياسية فى أسبانيا لتحقيق الجمهورية ، حتى ادركته المنية فى بلدة منتون عام ١٩٢٨ .

لونان من الحب

« لبلاسكو أبانيز »

ظل أهل باريس كلهم ، ممن يرتادون حفلات الشاى الراقصة أو غير الراقصة التى يقنع المجتمعون فيهـا باغتياب الناس والخوض فى شئونهم ـ كل هؤلاء ظلوا يسمرون اسبوعا كاملا ويعيدون ويبدئون فى موضـوع زواج « موريس دلفور » وريث مصانع دلفور وشركائه (ويبلغ رأس مالها الملايين) بالحسناء « اوديت مرساك » ابنة أخى علم من أعلام النواب ان يكن قد خفت اليوم أسمه فانه كان مرشحا مرتين لرياسة الجمهورية .

وليس بالحدث النادر فى الحياة الباريسية زواج ملك من ملوك الصناعة بأميرة من أميرات الجمهـورية ، بل قلما يكون فى هذا مؤونة لحديث نصف ساعة ، الا أن لهذين العروسين شأنا وأى شأن !

أما هو فكان حلم النساء ، يتراءى لهن مثـالا لكل الوان الاناقة ومظهرا حيا للمعارف البشرية جميعها : كأس الشرف فى أرقى مسابقات الخيل ، كأس الشرف فيما لايحصى عديده من مبارياتالسيف وصيد الحمام ، كأس الشرف فى سباق السـيارات الاعظم بين باريس ونابولى ، وأمثال ذلك ، حتى أخذت غرفة مكتبه تظهر شيئا فشيئا بمظهر حجرة الاكل لكثرة مايشاهد الانسان فيها من أكواب الشرف مصفوقة على المناضد وسائر الاثاث ..

ثم انه الى هذه الانتصارات فى فن الالعاب والرياضة له نصيب من جاه رجل العلم فهو فى الآونة الحاضرة مهتم بالطيران ، يحلق بالطائرة كل اسبوع أو مايقرب من ذلك وهو يعقد مابين حاجبيه وتبين على وجهه سمات السابح فى الافكار وغوامض الاسرار اذا ماتكلم متكلم فى مجلسه عن مسائل الآلات وما يتعلق بها .

واما هى ، فهى عند صواحبها « اوديت » اوديت فريدة زمانها ، وهى عند سائر الناس «الآنسة مارساك» اسم شهير بارز فى كل مايروى عن الاناقة وفى كل صحف الازياء وفى كل الحفلات الافتتاحية،وكان أكابر الخياطين من ذوى الفكر والابداع فى شارع « دى لابيه » يعتمدون على الآنسة مارساك ابان الحفلات الكبرى فى الحياة البارسية فى رفع شأن ماتلبسه من مبتدعات قرائحهم المتوقدة فان قوامها الذى لايضارعه قوام يدع الفوانى من الغيرة كاسفات متحسرات .. هيفاء ، لا يزيد وزنها على الخمسين كيلو الا قليلا . لها نحر بلغ من الحسن غايته ترتسم فى اهابه الرفاف عظمتا الترقوة الرشيقتان وكأنهما قاعدة لعمود جيدها المستدق الرهيف . وتبين فى ظهرها العاجى لوحتا كتفيها مفصلتين للعيان كأنهما جناحان ناجمان . وساقاها طويلتان مستويتان لايكاد يرى لها ربلة وهى تعرضهما فى طمأنينة غير محاذرة من الغواية والفتنة تحت حافة ثوبها الحريرى القصير . كذلك سائر مايكسو بدنها من اللحم قد روعى فى توزيعه التقتير ، فلا يربو مقدار اللحم درهما عما يكفى لتلبيس العروق ، وتلطيف الحاد من حنايا الاضالع والاوصال . وجملة القول انه جسم يصدق نعته ب « الهوائى » وان شئت فهو ذريعة لملء الفراغ فى داخل الثياب اجتنابا

بمتسيها وحدها .. وهذا الكيان الحى الذى بلغ الغاية فى حسن السمت والشارة يعلوه وجه جميل أسيل اطاله ذقن مدبب وزانته حلقة صغيرة قرمزية هى فمها الدقيق البديع ، والتمعت فيه لوزتان هما عيناها النعجاوان ، وتهدلت على الاذنين لمتان كأنهما سالفتا فتى من منازلى الثيران الاسبان ، وقد صففت غدائرهما مجتمعة فى شكل البرج القائم تشتبك فيه الخصل العارية بخصل الفانية . انها هى ربة الجمال العصرى كما قد يتصورها ويعبدها الفنان من واضعى رسوم الازياء فى سبحات خياله المبدع وأحلامه العبقرية .

وفى مستهل عام ١٩١٤ نجمت لعبة جديدة وشاع أمرها وقامت قيامتها بين العلية والفطاريف من أهل باريس ، ومن أهل العواصم الاوروبية والامريكية التى تأتم بها وتقوم منها بمثابة الضواحى والارباض . فكان أهل الاناقة الفطاريف يهزون أردافهم ليرقصوا رقصة « التانجو » . وفى طليعة هذه الخليقة التى ترقص التانجو كان موريس وكانت أوديت .

أما هو فقد اتصل سرا بأستاذ للرقص من أبناء الارجنتين ، وآلى على نفسه ان لا ترى عيناه النجلاوان أنوار المدينة الساهرة الا وقد حذق هذا العلم الجديد حذقه لغيره من العلوم . وفى ذات ليلة من الليالى الزاهرة اقبل موريس ليجنى اعجاب القوم ، وهو فى حلبة الرقص تحت المصابيح الكهربائية فى فندق من فنادق الشانزيليزيه ، يحرك قدميه فى حذائهما اللماع العالى الكعب ، ويهز قوامه المهضوم المحبوك فى سترته المحكمة ، وينغض برأسه الجميل ، وشعره الجعد مرسل الى الوراء كتلة وضيئة كطلاء اللك لامعة .

وأما هى فقد اثارت مثل هـذا الاعجاب فى ناحيـة اخرى من المرقص . وكما يحس الكوكبـان اقترابهما ويتجاذبان ، كذلك كان موريس واوديت يهفو كل منهما نحو الآخر ويتهافت عليه ، يحدوهما باعث لايقاوم من ائتلاف فى الطباع وامتزاج فى الشعور حتى لاشىء يفرق بينهما ..

فهما منذ ذلك الحين يرقصان وكل منهما كأنما يرقص للآخر . ولقد أصبحا لايلقيان الانسجام المنشـود بين ذراعى الغير . وكانا اذا تراقصا لم يهتكا بكلمة واحدة حجاب الصمت المحفوف بالاسرار فى الرقص المقدس . بل كانت قوة روحهما جمعاء منصرفة فى جد وتفكير الى حركة أقدامهما والى تثنى اعطافهما فى اهتزازات موزونة متوافقة ، وهما أشد مايكونان شعورا بأن حرمة رقصهما ابد الدهر رهينة بأن يبقيا مدى الحياة شريكين .

وهـكذا نما الحب بينهما ، وهـكذا تم قرانهما . واستيقظت باريس بأسرها فى ذات صباح قبل موعد يقظتها المعهودة بساعتين لتشهد حفلة القران . وكان يزين الحفلة تشريف عواهل الصناعة اجمعين ، وعدد لا حصر له من رجالات السياسة أصدقاء عم العروس وكان معلوما علم اليقين مايجمع العروسين من وشائج صبابة وغرام ، كأطيب وأوثق ماروته الاساطير بين الانام

وقد سلك موريس مسلك العـاشق الحق ، فودع الوداع الذى ليس وراءه عودة ترتجى سائر عشيقاته على اختلافهن ، وكلهن من كاهنـات الفنون الرفيعة : التمثيل والغناء والرقص . لقد انتهى عهد الجهالات ، وحسبه منذ اليوم امرأته الصبية ودراسـاته العلمية الجدية ..

أما هى فما برحت تنزع للمفـازلة كذى قبل جريا مع العادة ليس الا ، ومن غير أن تسمح لاحد بالاجتراء المقتحم . وانما حسبها منها أن تكون دواعى للاحساس بالخطر تزيد شعور زوجها بما صار اليه من السعادة والظفر ..

وقد جعلا مقر سعادتهما فى قصر دلفور ، وهو بناء فخم شيده أول مثر من أصحاب الملايين فى الاسرة على مقربة من حدائق مونسو ، بين قصور أقرانه المموابين . وتطل الوجهة الخلفية من القصر على هذه الحدائق ، وقد اعتكفت الارملة دلفور فى الطابق الاعلى بما بقى لها من أثاث البذخ القديم وتخلت عن بقية الدار لابنها وزوجته ليتسنى للعروس الشابة من غير عائق أن تشبع هواها الزخرفى فى زينة البيت فاذا بهذا المنزل العامر من قبل بالاثاث الارجوانى المذهب والمقـاعد الفخمـة من طراز نابليون الثالث تطغى عليه نزوات الخيال والوان المفارقات فى طراز مســتحدث من الاثاث خليط من البيزنطية والفارسية ، وهو بعد ربيب دور الفن فى ميونيخ الالمانية

وكانت الام دلفور متشحة دائما بالسواد ، وهى أبدا رصينة مفكرة شـأن من خبر الدنيا وعرف قيمتها ، وكانت تشهد ـ دون أن تبدو عليها بادية ـ ما تأتيه هذه الشـابة الوافدة فى الزمن الاخير من ضروب البـدوات والبدع : مهرجانات شرقية تقلب الدار الوادعة رأسـا على عقب ، حفلات شاى راقصة ، وهى فى ثياب من غلائل الكتان الرقيق شفافة ، ضيقة كالغمد ، موشاة بأزهار كبيرة الحجم بارزة الطرز ، مزمومة على عريها وهزالها ..

ولما كان ابنها مشغوفا بأوديت يعبدها فقد اجتهدت

الام أن تلتمس العذر لزوجته الصغيرة فى جميع أهوائها ونزوات مزاجها : يااللبنية المسكينة لقد نشأت من غير ام فعاشت كالغلام طليقة !

***

وقامت الحرب وكان من بوادر آثارها أن بدت أمارات الرعب فى عينى الفانية الشابة ، سـيدة قصر دلفور الجديدة ، فهما متسعتا الحدقة مروعتا النظرة . أيمكن مثل هذا البلاء ! وفى الساعة التى يكون الانسان فيهـا اشد مايكون لهوا وانبساطا .

أما الحماة فقد لاح عليها انها كبرت ، وانها قد خرجت من انقباضها عن العالم . وهذه نظرتها تستقر رصـينة بطيئة على الاشخاص وعلى الاشياء كأنما تتعرف عليها من جديد وهى فى زمانها قد رأت الشىء الكثير وكان أول من بادلته كلمات الحب رجل الصناعة دلفور فى عام ١٨٧٠ ، أثناء حصار باريس . ثم شهدت وهى عروس صبية مأساة حكم اللجنة الجمهورية العاثر فى فترة عمره القصير ..

ودعى نجلها للسفر الى الميدان فى الوقت الذى بدأت امرأته تعجب فيه بالرجل الجديد فى حلة الضـابط الرسمية ، تنسجم عليه أجمل انسجام ، وتضاعف من رشاقته فى فتوة ورجولة . ولقـد أراد أن يلتحق بالطيران ، الا أن الطيران كان فى طور الطفـولة فى أول نشوب الحرب فبقى فى المدفعية تبكيرا فى القيام بالخدمة

ورغبت اوديت ايضا فى أن تؤدى شيئا لبلادها . وكانت صواحبها غاديات رائحات فى المسـتشفيات . فصحت عزيمتها بحافز من الاريحية على التطوع ممرضة ، لانها كانت شديدة الاعجاب بالحلة البيضاء ، والبرنس الازرق ، وعصابة الرأس الناصعة . فهذا الرداء البسيط

الجديد يلائم جمالها كل الملاءمة . وكانت لفرط هيامها بالظهور فى هذا الزى الاخير من الثياب تغادر المرضى أحيانا كثيرة للطواف فى سيارتها متنزهة فى غاب بولونيا ، رافلة فى الغلالة البيضاء المزدانة بالصليب الاحمر على الاردان والصدر .

أما الارملة دلفور فكانت تقضى أيامها ولياليها فى المستشفى من غير أن تخلع ثوبها الاسود السرمدي .

على أنه للحرب كما لغيرها مباهجها ومتعها : فثمة حفلات الشاى المقصورة عليهن معشر النساء بمعزل عن محضر الرجال يضايقونهن ويرهقونهن بالمجاملات ، وهن فى هذه الحفلات متشحات جميعهن بالثياب البيض كأنهن الخادمات فى دور الحمامات ، ومن كل صوب تنعقد حولهن نظرات الحسد ممن لايرتدين زيهن . ثم هن يتسلين بحوك ملابس من شغل الابرة للجنود ، مزهوات بما يبدو عليهن من قلة حذق هذه الاشغال ، شأنهن فى ذلك شأن العقيلات من العلية قمن عن الخادمة بشىء من أشغال المنزل . وفى أثناء ذلك جميعه يأخذن فى الحديث : « زوجى يحارب فى الالزاس · والمسيو دلفور ، فى أى الميادين هو ؟ » وكان المسيو دلفور فى مكان ما فى ناحية البلجيك ، وكانت امرأته الجميلة تقص مغامراته وهى تدير من حولها نظرات اعتزاز وخيلاء: لقد نوهت به النشرة العسكرية مرتين ! لقد انعم عليه بوسام ! لقد منح شارة !

ولكن عدد الابطال كان كثيرا كوابل المطر . وكانت أوديت تمتعض وهى تسمع غيرها من النساء يذكرن عن أزواجهن مثل ماتذكر .

آه ! الا من سبيل الى التفوق !

وفى ذات يوم ريع قصر دلفور فى حدائق مونسو بنوبات شديدة من الانفعالات العصبية والنحيب مصـــحوبه باصطفاق الابواب وبويق السيارات ووفود من الاطباء . لقد جرح الملازم دلفور فى الميـــدان جروحا خطيرة من انفجار قنبلة . وارادت اوديت أن تســـافر على الفور لتسهر الى جانب سرير زوجها . لكن هذا مستحيل ! فاسودت الدنيا فى ناظرها وودت لو تموت . ذلك على حين بقيت الام ناضـــبة العينين ، تطرف بأجفانها ، وتعض شفتيها ..

ولما ان عادت أوديت الى الظهور فى المجتمعات الخاصة داخلها شيء من الرضى ، فليس بين صواحبها من تجرؤ على مطاولتها والاقتيـــاس بها . لقـــد جرح موريس ، وجرحه خطير ، والكل مشفقون على ماصار اليه هذا الزوج الفتان الذى ابتلته الحرب هذا البلاء الشديد .

وهون هذا الاعجاب العام على اوديت جزعها ، فجعلت تألف شيئا فشيئا فكرة هذه الجروح الغامضة . أية جروح هى ياترى ؟ تخيلت زوجها أعرج يظلع ، فى احدى يديه عصا ويده الاخرى تعتمد على ذراعها . ما أملحهما زوجين ! ان المستقبل مافتيء يدخر لهما ساعات هناءة طويلة . لسوف ترعاه وتحبوه السعادة بحنان الام الرؤوم ومنافاة الحبيبة .

وفى اصيل ذات يوم فى شارع رويال ، وقع بصرها على ملازم من الرتبة الثانية ، وهو جد يافع يكاد يكون غلاما ، يسير الى جنب خطيبته ، واحد كمى سترته متهدل خاو . موريس هو الآخر فقد ذراعه ، هى موقنة بذلك . وهذا هو السبب فى أن خطاباته المكتوبة على عجل ، الناطقة بسرور موجع ، هى دائما املاء وليست

بخط يده . ولكن ماذا يهم ؟ ستكون سند زوجهـا ، ستنوب ذراعها عن ذراعه المفقودة . انما أشوق مايشوقها رؤية طلعته ، والتطلع الى خيالها فى صـفاء عينيه ، والتملى بنظرته الحلوة المداعبة الساخرة فى لطف .. آه ! ما أشد حبها اياه .

وكان صواحبها يتلقينها دائما مرددات نفس السؤال : « كيف حال الجريح ؟ » وهى تجيب راسخة اليقين : « فى تحسن مطرد ، وهو قادم قريبا الى باريس » .

وتعاقبت الايام والشهور . ووردت الخطابات تلو الخطابات ، وكلها مكتوبة بغير خطه الا أنهـا أملاؤه . فقلقت الام واستفهمت من أصدقاء الاسرة الاقدمين ، وهم قوم من ذوى الرجاحة والرصانة فلا ريب يكاتمونها بعض الخبر :

ــ ان جروحه بليغة ولكن لا خطر عليه تشجعى المهم هو أن يعيش . وفى ذات صباح هبت اوديت من فراشها وقد أيقظتها بغتة من نومها حركة اضطراب غير عادية فى القصر . فأزاحت ستار احدى النوافذ ، فوقع بصرها فى خارج الباب الحديدى على سيارة مقفلة عليها شارات الصليب الاحمر ، ثم تبينت بصـعوبة من خلال طنف الزجاج الممدود فوق الدرج الخارجى رهطا من الناس صاعدين يحملون بين ايديهم شيئا ملفوفا يحتاطون له بألف احتيـاط ، وكأنه قطعة من الاثاث يخشى عليهـا التلف . فقفز قلبها فى صدرها .. موريس !!

وأفرغت عليها بعض الثيـاب ، وانطلقت من غير أن تستكمل هندامها لاكضة تنحدر على السلم ، الى بهو فى الطابق الادنى ، وحاول الخدم مذعورين راجفين منعها .

اقتحمت القاعة ، وفى الحال عرفت الرأس الموجع

المسنود الى وسائد الاريكة .. هذا هو ،مشـوها أفظع تشويه ، مخدد الوجنتين بأخاديد متشابكة من الندوب الزرقاء الكابية ... ولكنه هو .

لم تبق نه غير عين واحدة . اما العين الاخرى فان موضعها توارية عصابة سوداء بحجم محجرها الاجـوف. ثم سرحت أوديت طرفها فى صدره المستور تحت قماش سترته الزرقاء ، سترة الضابط القديمة . ولكن ... ولكن هنا تزلزلت المراة ومادت بها الارض كمن صـدم صدمة فظيمة مفـاجئة . فاذا بها قد صرخت . ان جسمه الجريح ينتهى هنا ، بغير ذراعين وبغير ساقين . ماهو الا جذع ابتر ، بقى بفضل معجزات الجراحة خرقة ممزقة فى نهايتها رأس حى .

وغمغم ذلك الفم ـ الاسود من حريق الحمم ـ فى ضراعة وذلة : « أوديت ، أوديت » كأنما يلتمس الصفح عما حل به من بلاء .

ولكن اوديت كانت قد ولت مجفلة تدفع من طريقها الخدم المتجمعين أمام البـاب ، وانطلقت على وجههـا تركض فى أطباق المنزل العليـا لاتعى ماتفعل ، مولولة كأشد ماولولت امرأة فى مأساة اغريقية ، تصطدم بالاثاث والحيطان ، وتمزق شعرها المحلول ، وقد جن جنونها من دهشة وفزع واشمئزاز .

هذا المخلوق المشـوه الممسـوخ الخلقة زوجهـا ! وواجب عليها البقاء الى جانبه طوال حياتها !

ولم يزل يئن فى الطابق الادنى ذلك الصوت الضارع الموجع مسترسلا : « اوديت ، اوديت ! » .

واغرورقت بالدموع عينه الوحيدة . الكل يهربون . حتى الخدم يتأملونه من بعيد ، ويحاول كل منهم الاختباء

وراء زميله وهو متلهف على الهرب ، ويشرئب مع هذا بعنقه وعلى وجهه سـيماء مبهمة من تطلع الفضـول وانقباض النفور .

***

وكان القوم يتجنبون لمسه ، كأنهم منه بازاء كتلة غروية تعافها النفوس ، بازاء اخطبوط بترت سواعده المتشعبة ، بازاء مادة نخامية لاقوام لها لفظتها الحرب . هذا صاحب الملايين الذى كان شديد الحب للحياة ؛ ايظل ابد الدهر على هامش الحياة ! لقد احدثت بليته فراغا حوله ، حتى كلبه المحبوب يئن على قيد خطوات منه يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، كأنما هو نهب دوافع تتداول عليه دراكا ، من ولاء لسيده وفزع منه .

ولسوف يظل ماعاش على هذا المنوال ... آه حبذا الموت ! الموت العاجل ! وعلى حين فجاة تنحى جمع الخدم . هذا شخص يدخل القاعة . ولمح الجريح المشوه رأسا مجللا بالمشيب يتقدم نحوه ، ثم احس على وجنتيه المخدودتين بالجراح لمس فم يتمسح بهما ويلثم كالواله العصابة المسدلة على مقلته الجوفاء ، وأحس وكف دمع سخين يبلل جيده وذراعين تطوقان فى شغف وحـركة عصبية بدنه الناقص التكوين كأنهما تطوقان طفلا .

وتصاعدت انة :

ـ اماه !

ـ ولدى ! ولدى !

ضحية العدالة

« لبلاسكو ابانيز »

قضى رفائيل أربعة عشر شهرا فى غيابة محبسه الضيق . وكانت دنياه هذه الجدران الاربعة الموحشة فى بياض كبياض العظام ، وقد حفظ عن ظهر قلب جميع ما بها من تفاليق وشقوق . وكانت شمسه هذه الكوة الصغيرة المرتفعة المشبكة بقضبان من الحديد تقاطع تلك الشقة من السماء الزرقاء الوضيئة . أما مساحة أرضه فلا تكاد تبلغ ثمانية أقدام ، وليس يخصه منها الا نصفها بسبب هذه السلسلة المخزية الصليل التى تحز حلقتها فى مفصل قدمه وكأنها جزء من لحمه

وكان محكوما عليه بالاعدام واوراق قضيته تراجع مراجعتها الاخيرة فى مدريد ، والشهور تتعاقب فى أثر الشهور ، وهو هنا الميت الحى ، يبلى كالجثة الا أنها مرددة الانفاس فى هذا التابوت المشيد من قرميد وملاط . وكان قصارى مشتهاه وغاية ما يمكن أن يتمناه – كالذى يعارض البلاغ الشديد بأهون منه – أن تعجل اليه الساعة التي يأخذ فيها حبل المشنقة بمخنقه ، ويقضى على كل هذا قضاءه المبرم

وأشد ما كان يضايقه فى السجن النظافة . هذا البلاط المغسول المحكك كل يوم حتى لتتصاعد منه الرطوبة وتنفذ من فراشه الى عظامه ، وهذه الجدران

التى لا يسمحون لذرة من التراب أن تعلق بها . لقدحرموا السجين حتى مصاحبة القذارة .. يا للوحشة المطبقة !
.. فلو أن الفئران تتطرق الى هنا لكان يعزيه أن يقاسمها طعامه الزهيد وأن يخاطبها مخاطبة الخلان ، ولو أنه وقع على عنكبوت فى ركن من الاركان لتلهى بتطبيعه وتألفه

وفى ذات يوم تطلع عصفور من الكوة كأنه ولد من شياطين الاولاد ، وزفزق انطلاق الشرود المتقلب فى أجواز الفضاء والنور، كأنما يعرب عما يخالجه من دهشة ، وهو يطل على هذا الانسان الكاسف اللون ، المنقوف البدن ، المرتعد من البرد فى الصيف القائظ ، وعلى جبينه بضعة مناديل معقودة ، وحول حقويه حزام من الصوف . انه لاشك قد تعاظمه مرآى هذا الوجه الشاحب المنضمر كالورق المضغوط .

وكان السجين يأتيه حس الحياة الوحيد من رفاقه المساجين ، وهم يرتاضون رياضتهم اليومية فى فناء السجن . فهم على الاقل يبصرون السماء المجلوة فوق رءوسهم ، ولا يتنفسون الهواء من خلال كوة ، وارجلهم حرة طليقة . وهم — فوق ذلك — واجدون من يحدثونه — سحقا وبؤسا ! .. حتى السجن طبقات ، وبلاؤه درجات . وكان رفائيل لا يدرك أنه فى جبلة الانسان التبرم بحاله . فهو حاسد للمساجين فى الفناء يعتقد حالهم أحب حال ، وهو حاسد لمن فى خارج السجن يستمتعون بالحرية . وما يدريه ان هؤلاء الطلقاء السارحين فى الشوارع متبرمون جاحدون لما هم فيه يطلبون مالا سبيل الى ادراكه .. ما أحلى الحرية ... أن هؤلاء حقهم السجن ..

وكان رفائيل قد بلغ من الضيق منتهاه . عالج فى نوبه

يأسه أن يحفر نفقا تحت الارض يهرب منه ، فأعيته يقظة الحراس له يقظة ملحة ثقيلة الوطأة مرهقة . فاذا هو تغنى ألزموه الصمت . واذا التمس الترفيه عن نفسه بترتيل ما تيسر من صلوات تلقنها عن أمه انتهروه قائلين : « أوتدعى الجنون ؟ فما بالك اذن لا تسكت ؛ وهم حريصون على بقائه سليما معافى فى جسمه وعقله حتى لا يفعل الجلاد فعلته فى جسد معطل تالف .

مجنون ! .. انه غير راغب فى الجنون ولكنه الاعتقال، وعدم القدرة على الحركة ، وسوء التغذية وقلتها كلها مجمعة على تلفه وهلاكه . ولقد امسى نهب أوهام تنتابه وتتمثل له . فكان فى بعض الليالى يأوى الى فراشه وقد أخذ منه الكلال ، وران عليه الاعياء ، من ربقة نظام لم يتعوده بعد أربعة عشر شهرا سلخها فيه . فاذا أغمض جفنيه ، ساوره وهم عجيب ، فيتمثل له أن أعداءه — وهم الراغبون فى قتله ،المجهولة أشخاصهم عنده كل الجهل — قد بعجوا بطنه ، وقلبوه بطنا لظهر ، ثم هم يثخنونه طعنا ويوسعونه نكالا وتعذيبا .

وكان فى النهار دائم التفكير فى ماضيه . فيشرد ذهنه كأنما هو يستعرض حياة غير حياته . وانه ليذكر عودته الى قريته ومسقط رأسه بعد سجنه للمرة الاولى فى جريمة الاعتداء على البعض بالاذى المهلك والتجريح الشنيع . وما كان بعدها من اشتهاره فى ارجاء الناحيه واعجابهم به فى الحانة القائمة فى الميدان الكبير ، وقولهم: « لله در رفائيل من وحش عظيم ! » ولقد ارتضته أجمل فتاة فى القرية على الزواج بها رهبة له واستعظاما لسطوته ، لا ميلا له استجابة لمحبته . وكان أعضاء مجلس القرية يترددون اليه ، وقد وهبوه بندقية من

بنادق الخفراء ، وكانوا يحرضونه على خصومهم متخذين من توحش خلقه سلاحا لهم فى الانتخابات حتى أصبح الحاكم بامره الذى لا معارض له فى الدائرة كلها . فما يزال الاخرون — أى فريق المغلوبين — رهن قبضته ، يعانون ما يعانون من وطأته ، حتى يضيقوا بهذه الحال فيحتمون وراء شقى مشاغب آخر حديث عهد بالخروج من السجن ، لكى يرد عنهم اذى رفائيل ..

يا سبحان الله ! .. ان كرامته ومقامه من المهنة فى خطر ! لا مندوحة — اذن — من وقف هذا الند الذى يسلبه معاشه ، فثمة الكمين الذى لابد أن يكون ، وثمة طلقة النار المردية ، ثم ضربات بمؤخر البندقية ، للاجهاز على الجريح اسكاتا لانينه وتسكينا لرفسه وفحصه الارض بقدمه ..

وفى الواقع كان مجرى الامور عاديا وانتهى الامرنهايته العادية بالاعتقال ، واودع رفائيل السجن حيث التقى ببعض الرفاق القدماء . ثم كانت المحاكمة ، فاشترك فيها جميع من كانوا يخافونه ويرهبونه ، فشفوا صدورهم من مهانة رهبتهم له وخوفهم بطشه بالشهادة عليه ، واصدرت المحكمة الحكم الرهيب ومضت أربعة عشر شهرا على ارساله للتصديق ، والمحكوم عليه منتظر ، منتظر ورود الموت من مدريد ، وكأنه لطول المدة آت على عربة نقل

ولكنه كان فى بعض الليالى يهب من فراشه كأنما دفعه لولب خفى ، فتصلصل سلاسله صليلا مشئوما فيجهش ويأخذه البكاء كالطفل ، وسرعان ما يندم على ذلك فيجتهد فلا يغنى اجتهاده شيئا فى كتم نحيبه . ان الصارخ الناحب انسان آخر فى طوية نفسه ، انسان لا

عهد له به ولا سابقة معرفة ، وهذا الانسان شـديد الخوف دائم الصراخ ، لا تهدأ ثائرته ولا يسكن روعه حتى يجرع عدة اقداح من ذلك الشراب المحرق من نقيع الهندباء الذى يسمونه فى السجن بالقهوة .

والحقيقة الواقعة الان أن رفائيل القديم ، رفائيل الزاهد فى الحياة ، الراغب فى الموت تعجيلا للخلاص مما هو فيه ، رفائيل ذاك ، ليس بباق اليوم منه الا القشرة الظاهرة ، واما رفائيل الجديد المولود فى غيابة هـذا اللحد فانه ليذكر مرتاعا ونفسه ذاهبة شعاعا أن أربعة عشر شهرا انصرمت وأن ورود الامر بنفاذ الحكم فيه لابد قد أزف وقته واظل أجله ، وأن النهاية قريبة لا محالة لعمر الله ليكونن أطيب نفسا واقربالا لو املوا له فى البقاء أربعة عشر شهرا أخرى فى هذا الشقاء .

واصبح متوجسا مترقبا ، وقد القى فى نفسـه أن الهلاك قاب قوسين منه أو أدنى ، فهو يطالعه فى كل ناحية ، فى الوجوه المتطلعة تطل عليه من كوة البـاب المشبكة بالحديد ، فى قسيس السجن يداب على الحضور عصر كل يوم كانما هذا المحبس الضيق المخيم خير مكان للمسامرة وتدخين لفافة التبغ ، هذا قبيح ! قبيح جدا »

وكانت أسئلة القسيس تقلق باله وتبلبله أشد ما يكون القلق والبلبلة . أهو مؤمن صحيح الايمان ؟ نعم يا أبت لقد كان يرعى حرمة رجال الدين ولم يقصر قط فى حقهم . اما أهله فلا مأخذ عليهم . فقد ذهبوا جميعا للقتال فى سبيل الملك حين دعاهم كاهن القرية الى ذلك ، ولكى يدلل رفائيل على ايمانه يعمد الى صدره فيخرج من تحت أطماره صرة قذرة من الاحجبة والأنواط ...

وعندئذ يحدثه قسيس السجن حديثه عن السيد المسيح ، وأنه قد وقف مثل موقفه . ولقد كان لهذا المثل أعظم الوقع فى نفس رفائيل المسكين . يا له من شرف عظيم .. بيد أنه مع عظيم ارتياحه لهذه المشابهة كان شديد الرغبة فى تأخير وقوعها ما أمكن التأخير ..

واصبح ذات يوم فاذا الخبر الموعود ينزل به نزول الصاعقة ، قيل انتهى الامر فى مدريد ، جاء الموت ، وافى على جناح السرعة ، على أسلاك البرق .

وأخبره أحد الحراس بقدوم زوجته تلتمس الاذن برؤيته ، ومعها بكر رضيع ولدته له وهو فى السجن ، فلم يبق لديه شك أن حضورها من القرية معناه أن قضى الامر وحم القضاء وانتهى الاجل

ولقد حدثوه عن حق المحكوم عليه فى التماس تأجيل التنفيذ، فاستمسك فى لهفة بهذا الخيط الاخير من الامل شأن المنكودين جميعا ، أو لم يفلح البعض ؟ فلم لا يفلح هو ؟ ثم فوق ذلك ، ماذا على تلك السيدة الطيبة القائمة على العرش فى مدريد لو وهبته حياته ، ان الامر لايعدو مجرد توقيع منها باسمها

أما هؤلاء الطغمة — وما أجدرهم بأن يسلكوا فى زمرة حفارى القبور — ممن كانوا يعودونه بدافع من حب الاستطلاع ، أو بدعوى تأدية الواجب من محامين وقساوسة ومخبرين ، فكان يسائلهم فى توسل وضراعة كأنهم القادرون على انقاذه : « ما رأيكم ، أترونها توقع ؟»

بل لعلهم فى غد آخذوه الى بلدته مصعدا محروسا كأنه وحش يساق الى المجزر وكان الجلاد متأهبا هنالك بكامل عدته ، وكانت عند باب السجن امرأته تنتظر رؤيته عند خروجه — وهى سمراء عروب من ذوات الغنج

والدلال ممتلئة الشفتين مقرونة الحاجبين ، يتضـــوع من ازارها الفضفاض رائحة قوية كرائحة مخازن الغلال.
وكانت «كلا» مروعة من وجودها هنا ، ونظرتها المشدوهة أقرب الى الذهول وخدر الحس منها الى الالم ، فاذا هى ضمت الطفل الرضيع الى صـــدرها ذرفت بعض العبرات وقالت :
- اه ياسيدى ! يالها من فضيحة يلصق بقومى عارها ، لقد كنا نعرف أن مصيرنا الى هذا ، ولكن الرضيع الذى خلفه ....
ويقبل قسيس السجن عليها يعزيها ، ليس للمرء غير التسليم وتفويض الامر لله . ثم عسى أن يرزقها الله اذا تأيمت رجلا يسعدها ويجعلها أكثر حظا وهناء . وكأنما اهتزت للفكرة ، فذهبت الى حد الكلام عن حبيبها الاول ، فتى من خيرة الفتيان ، اضطر الى اعتزالها والتخلى عنها خشية رفائيل ، وهو يكثر فى هذه الايام من ملاحقتها فى البلدة وفى الحقول وكأن فى نفسه شيئا يريد أن يقوله لها ، ورغبة يريد أن يفضى بها اليها . ثم استدركت فى سكينة ، وهى تحاول الابتسام مرددة قولهـــا : « بل الرجال كثيرون ولكنى مؤمنة متدينة شديدة التدين . فاذا اتخذت رجلا آخر فانما أريده على سنة الله ..
ولما ان انست امارات الدهشة على وجه القس وعلى وجوه حراس الباب ، ثابت الى واقع الامر وراحت من جديد تستوكف دمعها ..
وأمسى المساء وجاءت معه الانباء . أجل ، لقد وقعت السيدة : تلك السيدة التى كان رفائيل يتمثلها فى مدريد محفوفة بكل ما فى هياكل الرب الرحيم من أبهة وبهاء تستجيب للبرقيات والدعوات ، اتمد استجابته للمحكوم عليه .. مدت فى حياته ..

وأحدث تأجيل التنفيذ هزة فى السجن كأنما تلقى كل سجين مطلق العفو .

وقال القس لزوجة المحكوم عليه عند الباب :

« ابشرى أيتها المرأة . سوف لا يقتلـــون زوجك . سوف لا تتأيمين .. المرأة الشابة فى مكانها ــ ساكنة ، وكأنما تغالب أفكارا تتولد وتشيع فى خاطرها . ثم قالت آخر الامر فى هدوء :

ــ حسن جدا .. ومتى خروجه ؟

ــ خروجه ... امجنونة انت ؟ لن يخرج . وهو لا محالة يغبط نفسه لابقـــائهم على حيـــــاته ، وابدالهم الاعدام بالسجن المؤبد . وهم مرســـــــلوه الى افريقية ومن كان فى مثل فتوته وقوته فانه قد يعيش عشرين سنة أخرى ..

وفى هذه المرة انتحبت المرأة حقيقة بكل جوارحها ، واشتد بكاؤها وعلا نشيجها ولم يكن بكاؤها بكاء الحزن. بل بكاء اليأس والسخط .

فصاح بها القس متغيظا :

ــ مالك أيتها المرأة ! انك تتحـــــدين حـــكمة الله ورحمته . لقد عفوا عن حياته . أفهمت؟ لم يبق محكوما عليه بالموت .. ابعد ذلك تندبين وتشكين ؟ لقد أبدلوا حكم الموت بالسجن ؟

فكفت عن النحيب . وابرقت عيناها بريق الكراهة :

ــ حسن جدا . ليعش .. آنى مغتبطة مجبـورة . لقد نجا . ولكن .. ولكن ماذا يكون من أمرى أنا ؟

وبعدسكتة طويلة انفجرت تعول وتردد القول والنشيج يهز جسمها الكثيف المتقد بحرارة الغريزة : « والآن .. أنا المحكوم عليها ... انا ضحية العدالة !! »

مدام بوفارى

« لجوستاف فلوبير »

(هذه آية الآيات فى القصص الواقعى . وقد سلخ الكاتب فى كتابتها زهاء خمسة أعوام من عمره . وهى دراسة نمط بعينه من النساء .

وقد بلغ من دقة هذه الدراسة ، أن دخل اسم مدام بوفارى و « البوفارية » فى مصطلحات علم الدراسات النفسية . والقصة قبل كل شىء قويةالتصوير صادقة . وهى من صدقها تبدو على توالى السنين ، أكثر التصاقا بالحياة الواقعية وانطباقا عليها . انها على الدوام كتاب حديث ، بل أحدث من أحدث الكتب) .

- ١ -

هو شبح رجل قائم فى الطريق المقابل لدار المزرعة . انه يرقب شبابيك المطبخ ، وقلبه خافق أشد الخفق ، وكيانه كله يرتجف

وعلى حين فجأة ، سبق الى سمعه صوت قعقعة ، ثم انفتح الشباك دفعة واحدة . اذن ، لقد تحققت آخر الامر احلامه ، فان هذه الاشارة المتفق عليها بلاغ لهذا الرجل الملهوف « شارل بوفارى » ، بأن الحسناء « امارو والت » رضيته زوجا

وكانت رغبة « اما » فى أن تكون حفلة زواجها فى الليل تحت نور المشاعل . ولكن والدها الشيخ « رو والت »

المزارع اتخذ الاهبة للاحتفال على ماجرت به التقاليد الريفية . وقد دعا الى الاحتفال ثلاثة وأربعين من أصحابه وجيرته ..

وفى اليوم التالى ذهب العروسان الى بيت الزوج شارل فى « وست » حيث كان يزاول مهنة الطب وكان قد أفلح فى جبره كسرا فى ساق الشيخ « رو والت » فاشتهر فى الناحية بانه طبيب من الطراز الاول . ولم تكن « اما » ، ولا الشيخ والدها ، ولا أهل الناحية ، بالذين يدرون نوع ذلك الكسر ، وأن علاجه كان من أيسر الأمور ..

وكان شارل فى غمرة من السعادة : عشاؤهما معا ، نزهة سيرهما جنبا الى جنب ، بياض يدها وهى ترفعها الى شعرها الفاحم تصلحه كلما عبثت به الريح ، بل مجرد نظرته الى قبعة القش التى كانت تتركها معلقة الى جوار النافذة .. كل هذا فى جملته وفى تفصيله كان يغمره بسعادة شاملة كاملة .

ولا غرو ، فقد كان حظه من الحياة قبل ذلك زهيداً ، بل دون الزهيد

كان فى المدرسة بمعزل عن زملائه الذين هم أغنى منه ، أو أبرع وأوسع حيلة ، وكانوا يتضاحكون من لهجته القروية ويتهكمون على ثيابه الريفية . وكذلك كان رهين الوحدة الموحشة أثناء دراسته الطبية ، فلم يكن فى مقدوره أن يدعو فتاة من عاملات المتاجر الى الخروج للسهرة معه . وهو لم يتخذ قط خليلة . ثم تزوج ـ أول زواجه ـ أرملة اختارتها له أمه ، فكانت قدماها فى الفراش أبرد من قطع الجليد ، وقد أدركتها المنية فترمل بعد أربعة عشر شهراً من زواجه بها

والآن ، الآن يضم ذراعيه ــ طوال الحيـــــاة ــ على هذه المخلوقة الجميلة المعبودة . ان الدنيا عنده لاتتجاوز مايستدير عليه مئزرها . ومع شدة هذا الحب الـذى يكنه لها ، فانه يجده مقصرا عن قدرها ، غير واف بحقهـا

أما الزوجة الصبية الحسناء « أما » ، فكانت تجعله يوسع ذراعيها لثما من أطراف بنانها حتى كتفيهــا ، لاتدعه يستوفى حظه دون أن تدافعه عنها ، وهى نصف مرتاحة ، ونصف متضايقة ، شأن المرأة وطفلها المتشبث بأذيالها الكثير التعلق بها .

وكانت قبل زواجها بشارل تتوهم انها أحبته . فلما لم تصب السـعادة المنظورة ، بدا لها أنها لا محالة أخطأت . وجعلت تسائل نفسها ، وتلح فى سؤالها ، عن معانى الالفاظ التى كانت تتراءى لها ــ فيما طالعت من الكتب ــ حلوة بالغة الحلاوة : « السعادة » ، « الهيام » ، « النشوة » .

وكان والدها قد أودعها وهى فى الثالثة عشرة من عمرها ديرا فى روان . ولقد ارتضت هذه الحياة أول الامر وسط الراهبات الصـالحات الوديعات ، واغتبطت هنا بالسكينة الساحرة ، بتلك الفترات الخادرة الصوفية التى تغشى الحس من سطعات ريح البخور فى المحراب . ثم ، الاعتراف . فقد كانت تستحب أن تسـتوجبه بانتحال الهنات وصغائر الزلات . وكان مايصطنعه وعاظ الكنيسة من الرمز الصوفى فى استعارتهم للراهبة والمسيح والرهبانية لفظ « العروس » و « الزوج الروحى » و « الزواج السرمدى » ، من شأنه أن يفجر فى روحها ــ من حيث لاتحتسب ــ ينابيع عذوبة لا عهد لها بها .

وكانت تتردد على الدير لبعض ما يلزم من أشـغال

الحياكة لبناتها امرأة عجوز • وكانت تحتال على دس القصص فى الخفاء للبنات المراهقات : روايات عن غوان حسـان لايلبثن ان يستضعفن وتتراخى قواهن ويغشى عليهن فى المقصورات ، عن مغامرات فى حلك الغابات ، مواثيق وعهود مقطوعة ، زفرات متصـاعدة ودموع مذروفة ، فرسان فى مثل شجاعة الاسود ووداعة الحملان

ولم تلبث « اما » ان تطرقت الى يدها هذه القصص ، فكانت تلتهمها التهاما • وكانت أحب بطلاتها الى نفسها، واشدها انطباعا فى خيالها : « مارى سـتيوارت » ، و « جان دارك » و « هلواز » وكلهن من شهيرات النساء المعذبات ••

على انها حين اتى والدها يسترد وديعته لم تأسف على مفارقة الدير ، فلقد كان يسـتهويها من الكنيسة ماتعبق به من نفحات الصوفية . أما الخطب الوعظية والصلوات الدينية والتقشف فى المطعم والملبس ، فكانت تضيق بها جميعا .

فلما احتواها بيت والدها ، جعلت تتلهى ـ بادىء بدء ـ بترتيب شئونه . ولكنها سرعان ماسئمت هذه الحياة المنزلية وضيق أفقها ، وطفقت تحن ويضنيها الحنين الى الدير . وكانت حالها ـ أول مقدم شارل لعيادة أبيها ـ حال فتاة زال عنها وهمها ، وخاب فى الحياة ظنها ، فلا رجاء لها فى معرفة جديدة ، ولا شعور جديد . فكان من شأن قدوم شارل ، واختلائه الى البيت أن تبدل هذا كله • وتخيلت الفتاة فيمـا طرأ يومئذ على مشاعرها من الاضـطراب انه أمارة على الحب . الحب الذى لايتجاوز علمها به حـد القراءة عنه ، جاءها أخيرا

ولكن شارل ــ كمــا يبدو فى عينهــا الآن بعد فوات الاوان ــ بسترته من القطيفة السوداء وحذائه المستطيل المستدق ، وقبعته المقببــة ــ كان دون الزوج المثالى الذى تحلم به . وكان حديثه مملا ، مستثقلا ، ليس فيه تنويع ولا تشويق ، ولا يحرك فى نفس سامعه شعورا أو يبعثه على ضحك أو تفكير . والمرأة تتوقع من الرجل أن يكون عارفا بكل شيء ، متخصصــــا فى كل نواحى النشاط ، وانه دليلها المرشد فى خضم الشـــهوات ، الموكول به تعريفها معانى الحياة والتغلغل الى دقائقها ولطائفها والكشف عن مكنونات أسرارها كافة . ولكن شارل لم يلقنها شيئا ، وهو نفسه لايعرف شيئا ، ولا يحلم بشيء . وكان يعتقد أنه أدى ما على الزوج تأديته ، حين هيأ لـ « اما » الحياة الوادعة السهلة . ولكن كانت هذه الحياة هى ماتنكره « اما » وتنقم عليه .

ولقد حاولت أن تدخل حبه على قلبها ، مســتعينة بدواعي الصبوة . فكانت فى الليالى المقمرة تخرج الى الحديقة ، وتتلو على سمعه قصائد العشق ، وتتغنى بأغانى الشوق . ولكن لم يغن الشعر ، ولا أغنت الموسيقى فى تسرية ماكان يرين على نفسها من الملل المخيف ، كما أنه لم يكن لهما أدنى تأثير فى تغيير ماكان غالبا على طبع شارل من بلادة القناعة والطمــأنينة . ولم يشق عليها بعد ذلك أن تقنع نفسها بأن حب شارل لها ليس بالحب العنيف المسرف .

واتفق أن استجد فى الامر شيء . لقد دعيت الى حفلة راقصة فى دار المركيز « داندر فلييه » فى ناحية فوبسار

فلقد أصبح استذكار هذه الليلة الراقصة شــغلا لها . تستيقظ من نومها ، فيكون أول خاطر لها : « آه !

لقد كنت هناك منذ اسبوع ـ منذ اسبوعين ـ منذ ثلاثة اسابيع مضت ! » . وكانت الوجوه تختلط في ذكراها شيئا فشيئا ، وكانت تنسى أنغام الرقصات يوما بعد يوم ، ولكنها تفاصيل تغيب ، والحنين لها باق كأشد مايكون في نفسها ..

وكانت « اما » في أول زواجها تتشاغل بالرسم أو تدخل السرور على قلب زوجها بالعزف على البيانو . وكانت حريصة على حسن هندامها ، بل حاولت فوق ذلك أن تصلح من هندام شارل الريفي وكانت معنية بشئون البيت ، بما أدخلت عليه من أناقة وترتيب . ولكن ... تغيرت عاداتها مع الزمن . فانصرفت عن هوايتها ، وتركت للخادم شئون البيت جميعها . وخلت بنفسها طوال اليوم في غرفتها واجمة ساهمة ، لاتقرأ كتابا ولا تخيط ثوبا ، وحتى هندامها أصبحت لاتحفل به ..

ثم صارت عسرة الخلق ، متقلبة الاهواء . يعلو الشحوب خديها ، وتشكو خفقانا في القلب . وكانت تتناوبها أحوال متناقضة من ثرثرة محمومة ، ومن صمت مطبق هامد .

كذلك صارت دائمة التبرم بالحياة في « توست » . فعزم شارل على ترك البلدة . ولم يكن ذلك بالامر اليسير عليه . فقد عاش هنا سنوات أربعا ، بنى لنفسه فيها مكانة في المهنة ملحوظة

وبعد طول البحث والاستطلاع ، وقع اختياره على « يونفيل لاباى » وهى بلدة ذات سوق كبيرة نافقة في منطقة نيفشاتل .

وكانت مدام بوفارى حاملا ، حين مغادرتها وزوجها

بلدة توست ، وكان بلوغهما البيت الجديد فى البلدة الجديدة ليلا ..

وكانت هذه رابع مرة يتبدل بها المكان . وقد كان كل تغير فى المكان بداية لطور جديد فى حياتها وكانت «اما» تعتقد فى سريرة نفسها أن أمرا من الامور لا يمكن حدوثه على صورة واحدة فى مكانين مختلفين . ومن ثمة وقر فى نفسها انه اذ كانت الايام التى خلت بها أيام سوء ، فان الايام المقبلة ستكون لا محالة خيرا

أما شارل ، فقد جر هذا الانتقال عليه متاعب جمة ، فقد ابطأ المرضى فى الاقبال عليه ، كما أنه كان قد أنفق الكثير على أثواب زوجته ، ثم اعقب ذلك نفقة الانتقال . بيد أنه كلما نظر الى « أما » ، أفعم قلبه سرورا واعتزازا بالوليد الذى سوف يرزقه منها . وكان شعوره بالشكر لها ، وازدياد حنوه عليها ، ينفيان من خاطره كل تفكير آخر . وكانت « أما » فى حال من الدهش والحيرة لحملها ثم تبدل هذا الاحساس الى نزوع واشتياق الى معـــرفة الشـعور بالامومة كيف يكون ؟

وكانت أمنيتها ولدا أسمر ، قوى البنية . ذلك الوليد الذكر سيكون الجزاء الاوفى عندها على ما مر بها من حياة مجدبه عاطلة .. ولكنها رزقت بنتا ..

فاختارت لابنتها اسم « برتا » . وذلك أنها ما برحت تذكر — فيمـــا تذكر من تلك الحفلة الراقصـــة التى شهدتها — غادة حسناء استأثرت باعجابها وكانوا يدعونها بهذا الاسم ..

ولما كان الشيخ « رو والت » لا يقوى على مشقة السفر الطويل لشهود تعميد حفيدته ، فقد صـــار عرابها فى غيبته ، صيدلى البلدة المسيو « هوميه » ، وكان متفلسفا

زنديقا على شاكلة أهل العصر ، كما كان أشد أهل بلدته فضولا وتعرضا لشئون الغير

- ٢ -

وكان يقيم مع صيدلى البلدة ، كاتب من كتاب وكلاء القضايا المحامين ، هو المسيو ليون • وكان هذا الفتى معاونا للصيدلى على تصريف عقاقيره ، قبل اتمامه الدراسة القانونية فى باريس • ومن ثمة مشاركته اليوم له فى دار واحدة ••

وشعرت « أما » ــ أول ما لاقته ــ أنها لاقت نفسا مجانسة لها وعلى شاكلتها • ولقد كان مثلها ، يحن الى شوارع باريس الواسعة الانيقة ، ويزدرى أهل الريف وجلافة أساليبهم فى الحياة • وكان ذلك يحب الشعر ويتفق ذوقه وذوقها فى ايثارهما أغانى الشعراء الالمان العاطفية • وكان عالمهما المحبب سيان ، فهو عالم المسرح والموسيقى ، عالم الثياب الفاخرة واللطائف الرفيعة المترفة ••

وكان العيش فى بلد ريفى مثل « يونفيل » ثقيلا على نفسها ، داعيا الى طلب اللهو والتسرية • فلما أن قدمت هنا تلك السيدة الجميلة ذات الجمال الحالم الخيالى ، التى لا عهد له بمثلها فيمن عرفهن ، كان قدومها فى حياته يوما أغر مأثورا ••

وقد زار هذه الاسرة الطارئة أكثر من مرة • ولكن ، بدا له أن شارل لا يظهر اقبالا عليه فاحتار ماذا يصنع ؟ فهو بين الاشفاق من اقحام نفسه على الاسرة من غير تبصر ، وبين الرغبة الملحة فى وصل أسباب المودة بينه وبين «أما» مع ما يظهر من بعد منالها وضعف الرجاء فى وصالها •

بيد أن الفرصة كانت تواتيه لملاقاتها كل مساء تقريبا

عند الصيدلى فى ردهة الاستقبال حيث كان يجتمع شارل وهوميه بعد العشاء يلعبان النرد • فبينما كانا يلعبان ثم تأخذهما بعيد ذلك غفوة من النعاس تتمثل فيهـــا بلادة الدعة والقناعة ، كانت الشابة والشاب يسمران الى جانب الموقد ، يطالعان ما فى الصحف والمجلات من أشـــعار ، ويراجعان مختلف التعقيبات على القصص والروايات • وعلى هذا النحو ، توثقت بين الشابة والشاب علاقة ألفة من استمرار المناظرة ، ومبادلة الرأى والمساجلة ، فيمـا هما بصدده من قصص الغرام • ولم يكن المسيو بوفارى مجبولا على الغيرة • فلم يداخله القلق من تمكن هذه الالفة وتوثق عراها ••

وأحست « أما » على بغتة أنها مغـرمة بالفتى • وكان الفتى ـ فيما تراءى لها ـ جميل الطلعة فى شـــحوبه ، ونحافته وعمق عينيه النجلاوين الزرقاوين ، وشحمة أذنه الظاهرة تحت خصلة متهدلة من شـعره كالشـــعراء • واعتقدت « أما » أن « ليون » به من حبها مثل الذى بها ، وتفجر قلبها العاطفى بشوقها القديم الى الحب : « آه ، لو كانت مشيئة الله قد أرادت لى ذلك ! » • ولم لا ؟ ماذا يمنع ؟

وكان شعورها بأنها تحب ، سببا فيما طرأ عليها من تبدل غريب • فقد أعرضت الاعراض كله عن الموسيقى ، وعكفت العكوف كله على شئون البيت ، وتولت بنفسها أمر « برتا » التى كانت تتعهدها مربية منذ ميلادها ، كما أخذت تغدق على زوجها الوان الرعاية والحفاوة • وكانت فى ظاهر الامر حلوة الشمائل ، لينة العريكة ، هادئـة الطبع ، محتشمة متوقرة ولكنها فى البـــاطن كان يأكل نفسها الغيظ الكامن والكره الدفين ، وكان ينصب هـذا

كله على شارل ، شارل الذى تراه غافلا عن لوعتهـــا وعذابها • ويا ليته كان قد ضربها يوما ، فتلتمس لنفسها العذر فى كرهه ، والانتقام لنفسها منه ! وكانت الخواطر التى تساورها تدهشها حينا ، وحينا تفزعها ، لقد كانت خواطر منكرة فظيعة ، شديدة النكر والفظاعة •

وولت المسكينة وجهها شطر الكنيسة تستعيذ بها • ولكن قسيس القرية المكدود المرهق بالعمل لم يكن عنده من الوقت ولا من الفطانة ما يجعله حريا بمتابعة تلميحاتها المحجبة ، وادراك ما وراءها ••

وكانت « أما » فى عينى « ليون » حصنا حصينا من العفة لا ينال • فلم يثبت على ملاحقتها ويلحف فى مراودتها بل سرعان ما قطع الامل فى وصالها ، وانصرف يائســـا عنها • وكان فى ذلك ما فيه من التعظيم والقداسة لها ، حتى باتت عنده مثل « مريم العذراء » ــ فلا سبيل اليها• ومن بعد ذلك ، باتت الحياة فى « يونفيل » ممتنعة عليه، فازمع الرحيل عنها الى باريس •

وكان رحيل « ليون » من دار الصيدلى حدثا من الاحداث وفرصة سانحة للعديد الذى لا آخر له من الامثال المضروبة والاقوال المأثورة عن غوايات باريس •• واســتدراجها للشباب واستهوائها لهم ••

وأما وقع هذا الفراق على « أما » ، فانه ملأ جوانحها بالكمد والكآبة والأسى الكظيم • ولقد خلع الغياب على الفتى سحره ، فتراءى فى ذاكرتها أطول قامــة ، وأحلى وسامة ، وفوق ذلك أشجى حالا وأشرد بالا • فبات أشد فتنة لها وأخلب لقلبها • فهـــو ــ حيثما حلت ــ ماثل حيالها ، حاضر فى خيالها ، يغشى صحوها ومنــامها ، ويجوس طيفه حجرات البيت •

وكانت ترجع على نفسها باللائمة وتقطعها لهفة وندما ، على أنها لم تهيىء له الفرص لينالها ، ويحظى بوصالها • وهنا تستحوذ عليها رغبة في أن تلحق به فى باريس ، وتترامى فى أحضانه وتصيح : « هأنذى ـ طوع مرادك ـ انى لك ! » • ولكن كانت تقعدها الصعاب القائمة دون امضاء عزمها ، وكانت الخيبة تضاعف اشواقها وتذكى نارها ••

وعادت « اما » الى الحال المحزنة التى كانت تعانيها فى « توست » • وزادها شجوا على شجوها ، أنهـا كانت تجد نفسها أشقى من ذى قبل ، لأنها كانت مستيقنة أن حزنها ليس له نهاية • وخيل لها أن امرأة هـذا مبـلغ عذابها ، لا تثريب عليهاانهى أطلقت العنانلبعض نزواتها فهى اليوم شديدة السرف ، تنفق المال الكثير على فاخـر الثياب واسباب الزينة وأنواع البهرج • وكذلك صحعزمها على تعلم الايطالية ، فاشترت مجموعات من معاجمها ومناهج درسها وكتب نحوها ولم تنظر فى واحدة منها • وتكررت عليها نوبات الاغماء ، وبدأت تنفث دما • وكلما أظهـر شارل الجزع ، قالت : « وأى خطب فى ذلك ؟ »

ـ ٣ ـ

وكان يوم الاربعاء من كل اسبوع يوم السوق فى بلدة يونفيل ، وكانت « اما » تستحب أن ترمق من نافذتهـا زحمة الناس • وفى ذات صباح ، لمحت سيدا ذا سمت وشارة ، فى سترة من المخمل السندسى ، وفى يده قفاز أصفر • وكان بعض خدمه فى حاجة الى الفصد ، فقدم به على شارل • وقامت « اما » مقام المرضة المساعدة ، وبادلت السيد أثناء ذلك كلمة أو كلمتين • وقد علمت أن اسمه « رودلف بولنجيه » وأنه سيد ضيعة « هوشيت » المجاورة ••

وترك رودلف بيت الطبيب مفكرا ، مشغول البال • لقد راقته مدام بوفاري ووقعت في نفسه • انها غاية في الملاحة والحسن • انه معجب بثغرها وثناياها الحسان ، وعيونها الدعج ، واستواء عرقوبها ولطافة سيقانها • ثم هي رشيقة القد هيفاء كالباريسيات • ما أبعد البـــون بينها وبين زوجها ! طبيب بليد الفهم ، لا شك في غباوته ثم أظافره القذره ولحيته التي مضت أيام عليها لم تمر بها الموسى فهي شعراء غبراء • من اليسير التكهن بأن الزوجة لا محالة تجتويه ،وتستثقل ظله ، وتمل عشرته والمقام معه• ان المكان اللائق بها في باريس ، ترقص رقصات البولكا في الحفلات الساهرة الزاهرة • مسكينة تلك الشابة : لابد أنها تتطلع في شوق الى الحب ، كالسمكة بعيداً عن غمرة الماء . ان حسبها بضع كلمات من الغزل الرقيق، فاذا هي طوع المراد مستسلمة ، ما في ذلك ريب . ويالها عندئذ من خليلة حنون عطوف فاتنة . كل ما هنالك من مشقة — هو في التخلص منها بعد ذلك

وكان رودلف في الرابعة والثلاثين ، عارم الطبع بهيمي المزاج ، مع الكثير من الدهاء وصدق الفراسة . يتوقـــع صعابا تعكر صفو العلاقات • ولكن ، تلك العيون قد نفذت كالسهام في قلبه • ثم هي شاحبة الطلعة وهو يعبد الغواني الشاحبات ! • •

وقبل أن يبلغ رودلف داره كان قد اجمع امره ووطن عزمه • لسوف ينالها ويحظى بوصالها

وكان لقاؤهما التالي في المعرض الزراعي وبينمـــا كان الناس يستمعون الى خطب عمدة البلدة وشيخها ، اخذ بيدها الى غرفة خالية في دار البلدية زين لها أن المنظر

يبدو منها ابدع وأجمل . ثم تعمد تحويل الحديث الى الوجدانيات ، فجعل يحادثها عن نفسه المعذبة ، وما يساورها من الاحلام والاوهام والاماني المنشودة ، وعما يجده من الفراغ الممل فى حياته اليومية ، ومبلغ حنينه الى المرأة التى تتمثل فيها أحلامه (وكان هنا يرمق مدام بوفارى) . ثم انتقل من حديثه الى العرف الاخلاقى الذى اصطلح عليه الناس وألمع الى هوان شأنه بالقياس الى ناموس الحب الازلى الابدى . ذلك الحب الدهان العطرى فى شعره اللامع المرجل – وهو ذات الاريج الذى تنسمته فى شعر السيد النبيل الذى راقصها فى « فوبيسار » فى الحفلة الراقصة المأثورة المذكورة .

ثم سكرت حواسها وكاد يغمى عليها . لقد خيل لها كأنها ترى العربة التى أقلت حبيب قلبها « ليون » من يونفيل . خيل لها كأنها ترى ليون نفسه عند قدميها . ومر بسمعها صدى قديم لنغمة الفالس التى الذى ليس فى الدنيا اجمل منه ، انه مبعث البطولة والحماسة والشعر والموسيقى .. وكل شىء ..

وكان رودلف جالسا على مقعد واطىء صغير عند قدميها ، وذراعاه مضمومتان حول ركبتيه ، ووجهه شاخص اليها ، وهو بجسمه وروحه مقبل عليها . وكانت هى مستغرقة الشعور فى أمرين : تلك الاشعة الذهبية الرقيقة تشعشع فى عينيه من سواد انسانيهما ، وأريج اهتزت لها يوما جوارحها وملكت عليها نفسها .

ولكنها كانت طوال الوقت تحس ذلك الاريج الفاغم : الدهان العطرى فى شعر رودلف .

فلما امتدت يده ، تلتمس يدها ، استلمتها ولم تقاوم. وجف الريق فى حلقه وحلقها ، وعلى شفته وشفتها ، من

شدة الهوى وتبريح الشوق . فاشتبكت اصابعهما فى حركة طبيعية نذيرا بوشك اللقاء الجسدى ..

بيد أنه مضت اسابيع ستة ، قبل أن يعاود رودلف الزيارة . وحين دخل البيت ، لم يفتـــه ما عراها من اضطراب نفسها وامتقاع لونها . فعرف انه اصاب فى ابطائه بالزيارة حتى يقوى اشتغالها به ويتمكن من قلبها حبه . وعرض أثناء حديثه مع شارل الى التساؤل عما اذا كان ركوب الخيل يفيد مدام بوفارى صحيا . وكان الزوج فى حيرة من تلك الاعراض التى تهدد حياة زوجته، فطرب للفكرة وكاد يطير من الحماسة لها

ولكن « اما » لم تظهر الرغبـــة فى هـــذه الرياضـــة ، وعارضتها فى شدة وعنف . وكان خط دفاعها الاخير ، أنه ليس عندها ــ على كل حال ــ سترة لركوب الخيل. فكان جواب شارل حاسما : « ستكون لك » فلم يبـــق موضع للخلاف

وفى أول رياضة لها مع رودلف على صهوات الخيل ، أمكنته من نفسها

واتخذت « اما » من غرفتها فى البيت محرابا تعكف فيه على المناجاة ، ووجهها الى المرآة . لقد أدهشها ذلك التبدل فى صورتها والاشراق على طلعتها ، لم يكن لعينيها قط هذا العمق الساجى وهذه السعة ، وهذه اللمعة . وهى لا تكف عن الترديد فيما بينها وبين نفسها : « لى عاشق ! .. أصبح لى عاشق ! » . انها دهشـــة تحس كأنها من جديد فى فورة المراهقة . لقد تصدع السـد ، وتفجر الحب جياشا متدفعا . واستسلمت للعبـــــاب يحملها مغتبطة مبتهجة بالحرية والانطلاق .

واتصلت بينهما المراسلة فى الخفاء كل يوم . وكانت

تستقصر على الدوام رسائله . وذات يوم فى الصباح الباكر أحست أنه لابد لها من لقاء رودلف . وكان شارل قد غادر البيت قبيل انبلاج النهار فتسللت الى الحقول مسرعة فى سيرها لا تلوى على شىء . ودخلت عليه وثيابها مبللة بالانداء . وترامت على الفراش فى أحضانه .

وظل رودلف طول الشتاء يأتى الى حديقة بيتها ليلتين او ثلاث ليال فى الاسبوع . وكانت تنتظر أن يأوى زوجها الى الفراش وهى على أحر من الجمر . وكان عش الغرام فى الحديقة تحت العريشة القديمة فوق المقعد الخروع المتداعى حيث كان « ليون » – فيما سلف – يجلس اليها ويعبدها فى أمسيات الصيف ولكنها خالية البال منه الآن .

وكان يدور فى خلد رودلف فى بعض الأحايين ، أن عشيقته تجاوزت الحد فى العاطفية ، وذلك عندما تلح عليه فى مبادلة الصور المصغرة وخصلات الشعر بل لقد طلبت منه مرة خاتم زواج . على أنها ما برحت فى عينيه لطيفة مرموقة . انه قلما حظى بنساء أبرع منها ابتكارا وتفننا فى الحب ، ثم ان خلوه من الدعارة يزيده – على جدته – حدة طعم وحرافة ، وفيه كذلك الرضى لكبرياء الرجل وفيه اذكاء لنزوعه الحسى ، وكانت الحماسة التى تسلم بها نفسها ، وان صدمت ذوق أهل طبقته ، الا أنها كانت تعجبه فى صميم سريرته لانه المقصود بها . بيد أن يقينه من أنه محبوب ، جعل يغير شيئا فشيئا حاله معها وموقفه منها . فأصبح ما كان من حلاوة عباراته وحرارة مداعباته فى ذمة الماضى . وقل حرصه على اخفاء فتوره نحوها وضعف احتفاله بها .

وندمت « اما » على ما كان . وذهبت فى ندمها الى حد العجب من نفسها كيف كرهت شارل ، وكيف لا

يكون الاحرى بها أن تعمل على حبه والانس به ؟ فان شق ذلك عليها ، فمن المستطاع أن تعجب به طبيبا ماهرا من ذوى الدراية والكفاية .

واتفق ان كان الصيدلى يلح منذ حين فى اقناع شارل أن يجرب فى غلام المراسلة فى الفندق المجاور فنا من الجراحة المستحدثة يجريها فى قدمه العرجاء .

وجاءت « اما » اليوم بحماستها الطارئة تضيفها الى الحاح الصيدلى المضجر . فأقدم شارل ـ كارها غير مطمئن ـ على تلك المجازفة . وأسفرت الجراحة عن اخفاق ذريع . واقتضت الحال بتر ساق الغلام ، واستشعرت « اما » من ذلك غضاضة ومهانة ، فاشترت له ساقا خشبية باهظة الثمن . ولم يفتأ صوت هذه القدم الخشبية حين يطرق بها الغلام بلاط الطريق فى غدواته وروحاته ، مثارا لنفور شارل ، وركونه الى الفرار حتى لا يلقى ضحيته وجها لوجه

وبلغ احساس « أما » بخيبة الامل الاخير فى زوجها غاية المدى . فألقت بنفسها من جديد فى احضان ذلك العشق الاثيم ، وقد زاد ثائرة حنقها حر اشتياقها . وفى هذه المرة طرحت « اما » كل حذر واحتشام . فكانت كثيرا ما تخرج من بيت عشيقها فى رائعة النهار. وكانت تغدق عليه الهدايا الغالية ، فاذا أعياها دفع ثمنها ، اقترضته من مرابى البلدة الذميم السمعة المسيو « ليريه » وقد بلغ بها الاستهتار أن استولت على مبلغ أرسله زوجها لتسوية دين عليه .

ونشب شجار فظيع بينها وبين أم شارل وكانت قد جاءت تشاركهما فى المعيشة . وطبيعى ان تهتم الوالدة لسعادة ولدها ، فلا غرو تصدمها سيرة « اما » ويشتد انكارها لها ..

وكانت نتيجة ذلك أن وقر فى نفس « اما » استحالة الحياة مع زوجها بعد اليوم فتوسلت الى رودلف ان يأخذها الى بلد بعيد، ينعمان فيه بالحب من غير ترصيد ولا تقييد

ولم يكن رودلف يضمر الموافقة ، ولكن لم تسعفه المعاذير وقتئذ .. فتركها تتجهز وتعد المعدات جميعها. وفى الليلة المتفق عليها للرحيل ، بعث اليها برسالة مدبجة يبلغها فيها أنه من أجلها يضحى تضحيته العظمى ، فلا يسمح بمرافقتها له ، وخوضها مغامرة هي لا محالة نادمة عليها عاجلا أو آجلا

واستطاع شارل ووالدته – بعد جهد جهيد – أن يحولا بين « أما » والقائها بنفسها من النافذة . وفى أعقاب ذلك ، نزلت بها حمى مخية شديدة أشرفت بها على التلف، وعادها القس يقدم لها القربان الاخير .

وعاش «شارل» اياما طويلة يعانى عذاب الجحيم . فثمة زوجته الحبيبة ، حياة حياته وروح روحه ، توشك أن تفارق الى الابد وثمة صكوك الديون تنهال عليه وليس عنده رصيد مال لوفائها . هذا وذاك أسلماه الى مخالب المرابى « ليريه » . لم يكن له مناص من الاستدانة لدفع ديونه المتفرقة . وكان يستدين من المرابى ، وهو على يقين من عجزه عن الوفاء .

– ٤ –

ولم تمت « أما » ..

لقد اخذت فى خطوات خافتة بطاء ، تدب الى حال النقاهة والشفاء . وما كادت تجتمع لها القدرة على الخروج حتى اصطحبها شارل للترفيه عنها الى روان ، لسماع مغن من مشاهير المغنين . وفى دار الاوبرا فى روان، التقى الزوجان بالفتى « ليون » :

وكان « ليون » بفضل اتمامه الدراسة القانونية بباريس ، قد اشتغل مساعداً فى مكتب احد المحامين فى روان . انه اليوم يبدو أقرب الى النضج من ذى قبل . ان تكرار خروجه مع الفتيات العاملات فى متاجر باريس ، ومغازلاته الخاطفة لزميلاته فى الدراسة ، قد أكسبته على الاقل مظهر الواثق بنفسه . بيد أنه لما يزل خجولا ، فى واقع الامر ..

ولم يزل « ليون » طوال هذه المدة محتفظاً بما كان فى وهمه من صورة « اما » انها كانت تتمثل له أملا غامضا موعوداً ، يتراءى فى الافق البعيد كأنه ثمرة ذهبية لا نظير لها فى الثمر ، تتدلى من شجرة غريبة فردوسية ليست كسائر الشجر ..

ولم يصعب على « ليون » تهيئة الفرصة التى توحى لشارل ان يقترح على زوجته البقاء فى روان ، لشهود الحفلة الثانية فى الاوبرا ، ثم يتحين ليون فرصة وجودها فى غرفتها بالفندق وحدها . فيتغلب على استحيائه ، ويكشف لها عن حبه وأحلامه أثناء بعاده الحزين عنها . فتجيب : ذلك كان منذ البداية ظنى .

وكان حياء « ليون » أشد خطرا عليها من اجتراء رودلف ..

بيد انها كتبت اليه مع ذلك كتابا مطولا ترجو فيه قطع الاسباب بينهما ، وانه واجب من أجل سعادتهما ان لايكون بينه وبينها لقاء . ثم ذكرت انها لا تعرف عنوانه ، فلم يبق لها معدى ـ لتسليم خطابها هذا اليه ـ من الذهاب الى ساحة الكنيسة فى الموعد المضروب

وما كاد يراها ، حتى نادى عربة من عربات الاجرة . وامتنعت « أما » عن ركوبها . فلما أكد لها « ليون » أن

اهل باريس يصنعون ذلك أذعنت .

وفى اثناء هذه النزهة ، صارت خليلته

وقدر على شارل مرة اخرى أن يفتح الطريق أمام زوجته لخيانته . فقد كان « ليريه » المرابى طوال هذه الآونة يعمل على تضييق الخناق على الزوجين المدينين ، فبدا له أن السبيل الامثل والاوحد لاسترجاع ديونه ، هو تركيز الامر كله فى « أما » . فاقترح عليها ان تحصل على توكيل رسمى بالنيابة عن زوجها فى تسوية الحساب . ولم تكن « اما » راغبة فى التعرض للمسئولية . ومع ذلك ، فالمسألة تتعلق بالقانون . والاحجى ان يستشار فيها خبير من رجاله .. فلما أن حدثت شارل واظهرت حيرتها فيمن يستشار وقع الزوج المسكين فى الفخ الكمين . وقال مبادرا « ليون » لا أحد غيره » ..

وهكذا ذهبت « اما » الى روان ، كى تستشير « ليون » . فمكثت هناك أياما ثلاثة كانت عندهما « شهر العسل » ..

فلما عادت ، أحست فى نفسها حنينا شديدا الى الموسيقى . ولكن ، دون ذلك صعوبة قائمة . انأصابعها جمدت لطول انقطاعها عن المران ، كما نسيت هى حذقها للانغام . فاقترح شارل عليها أن تتلقى دروسا فى الموسيقى فى روان

وهناك فى روان ، استأجر العاشقان غرفة فى فندق جعلاها عش الغرام ، وكانا يسميانها « البيت » . وكانا وهما يلتقيان وسط هذا الاثاث المتقادم والفراش الذابل اللون يشعران كانهما فى بيت الزوجية يعيشان زوجين ..

أما حياتها مع شارل فى يونفيل ، فقد عادت الى سابق سيرتها على عهد رودلف . عادت « أما » الزوجة اللعوب، المتحببة الى زوجها ، المقبلة عليه ، المعنيـة بأمره . وكان زوجها يشعر أنه أسعد الخلق طرا .

توالت الايام وأخذت « اما » تحس بحاجتها المتزايدة الى مدد يكفل لعاطفتها الحيوية المتزايدة ..الى مدد يكفل لعاطفتها الحياة مشتعلة محتدمة . فقد كانت تعلل نفسها فى كل رحلة الى روان بسعادة تفوق الوصف ، فاذا هى استقلت القطار عائدة ، لم يسعها الا الاعتراف فيما بينها وبين نفسها بأنه لم يكن ثمة جديد يخالف المعتاد ويجاوز المعهود ، وكانت هذه الخيبة المتكررة كأنما تولد فيهـا آمالا متجددة فقد كانت تعود الى عشيقها فى كل مرة وهى أشد اشتياقا واضطراما .

وكانت تنضو الثياب عنها فى عنف وشدة وتدب حافية على أخمص قدميها نحو الباب تستوثق من غلقه. ثم تقبل شاحبة جادة لا تلوى على شىء ولا تنطق بحرف ، وتترامى دفعة واحدة على صدر ليون ، لاهفة راجفة

ولم يجرؤ ليون على سؤالها . ولكن ما شـاهده من حالها ، ومن حذقها لفنون الحب وتصانيعـه ، أوقع فى وهمه أنها مرت بجميع أدوار الحب والالم على اختلافها وتفاوت درجاتها . وهذا كله ليس فيه ضير، بل هو مزيد من الخير . ولكن الذى كان ينكره ، هو ازدياد إستيفراقها له وفناء شخصيته فيها . لقد كانت الغلبة دائما لها ، وكان يضطغن ذلك عليها . لم تكن هى الخليلة بل كان هو الخليل . وفضلا عن ذلك كان وكيل الدعاوى الذى يعمل عنده حين ترامى اليه خبر هذه العـلاقة ــ لا يكف عن تحذيره مرة بعد مرة ــ من تعريض مستقبله للضياع من أجل امرأة .

وبقيت « اما » غير راضية عن حالها غير قانعة بها .
كانت متحيرة تعجب لقصور الحياة ونقصها وعدم وفائها.
انها ما التمست السند والعون عند كائن من كان فيها ،
الا تهافت بين يديها وانهار تحت قدميها . ولـكن كل
ابتسامة تخفى وراءها تثاؤب الملال والسآمة . وكل نعمة
فى طياتها نقمة . وما من متعةموعودة الا يمكن خلفها الشبع
والفتور . وان ماينطبع على الشفاه من حلاوة القبلات تعقبه
مرارة الاشتياق الى نعيم أعز دركا وأبعد منالا . وذات
ليلة ، عادت « اما » من روان فوجدت فى انتظارها خطابا
مسطرا على ورق رمادى . وبرزت لها من متن الخطاب
هذه الكلمات : « بمقتضى الحجز الموقع تنفيذا للحـكم
الصادر .. » — « ويتحتم ذلك فى مدى اربع وعشرين
ساعة » — « لوفاء مبلغ ثمانية آلاف فرنك » . وأدخلت
ضخامة المبلغ على روعها الطمأنينة ، هذه لا محالة ، احدى
الاعيب المسيو « ليريه »

ولكن الحقيقة المريرة الواقعة ، هى أن حسابها على
أية حال قد ارتفع من تكرر الاستدانة مرارا ، حتى تناهى
به المرابى الزنيم الى هذا القدر العظيم ، وهو يطالب به
دفعة واحدة وعلى الفور ، لاستغلاله فى صفقة رابحة

وبانت أخيرا هذه الحقيقة لها ، وانخلع لها قلبهـا .
لسوف يرى شارل مبعوثى المحكمة يوقعون الحجز على
متاعه وأدواته وينتزعون من بيته كل شىء . لسـوف
يرى مصير مستقبله الى الضياع . وكل هذا من جرائها .
فحاولت جهدها أن تستلين قلب المسيو « ليرنه » وجثت
له ، راكعة عند قدميه . ولكن ، لا جدوى . فتحولت الى
« ليون » ، فلما عرف مقدار الدين ترنح تحت ثقـله ،

وغمغم يقول « ربما » ، لو كان الف فرنك . وحتى هذا القدر لم يحرك ساكنا لتزويدها به . فتحولت الى محامى البلدة وكيل الدائن ، فاذا به يشرط لكى يبذل عونه لها، ان تبذل له جسدها . فولت فرارا من مكتبه

ثم ذهبت الى رودلف ، متناسية ما ينطوى عليه ذلك من عرض جسدها للبغاء نظير المال ، وان هذه الحال هى بعينها التى عافتها نفسها فى هلع واستفظاع فى بيت وكيل دعاوى البلدة منذ هنيهة

على ان رودلف أظهر عجزه عن مساعدتها

- ٥ -

وصح فى يقين « اما » بعد ذلك جميعه انه لم يبق لها غير مخرج واحد . فتسللت الى بيت الصيدلى ، وابتلعت خلسة مقدارا من سم الزرنيخ

ولما عاد شارل الى البيت ، وجدها تكتب رسالة . وكانت عليها سيماء الطمانينة والهدوء . ثم اضطجعت فى الفراش وغلبها النوم . وبعد هنيهة استيقظت ، وطعم المرارة فى فمها . والعجيب انها كانت معنية بمتابعة تأثير السم فيها . ولكنها لم تشك ألما . وكانت فى أتم وعيها ، تسمع أزيز النار فى الموقد ، وتكتكة الساعة الكبيرة على الجدار ، وانفاس شارل وهو جالس يستجم على مقربة من وسادها . ولكنها كانت عطشى وقد اشتد عطشها . فطلبت ماء ، ثم قاءت على حين فجاة

فأقبل شارل عليها ، ومسح بيده ــ فى ملاطفة رقيقة ــ على معدتها ــ فاذا هى تصرخ صرخة عالية فأجفل ، ملتاعا مذعورا ..

واستحال وجهها الى الزرقة ، والتمعت عليه قطرات

من نضح العرق . وجعلت أسنانها تصطك . وأدارت حولها نظرات مبهمة وابتسمت مرة أو مرتين . ثم زاد توجعها وأنينها ، وعلى حين فجاة علت صرختها ..

وبعد قليل أسلمت روحها ..

ودفنت « اما » كما شاء زوجها ، فى ثياب عرسها ، وحذائها الابيض ، واكليلها وجعلوا شعرها الاسود الوافر منشورا على كتفيها . وأودعت فى توابيت ثلاثة : تابوت من السنديان ، يضمه تابوت من خشب الكابلى ، والتابوت الخارجى الثالث من الرصاص

***

وكان موت « اما » خاتمة حياة شارل أيضا فلم يبرح منذ ذلك اليوم داره ، وأبى أن يرى أحدا ، أو يستقبل مريضا . وكان العابرون بداره يلمحونه فى الحديقة ، رث الثياب ، أشعث أغبر ، ظاهر الاستيحاش وهو يهيم فى جنباتها وقد علا نحيبه وعويله

وفى ذات مساء ، وجدته بنته الصغيرة ميتا ، تحت العريشة فى الحديقة ، ويده مطبقة على خصلة طويلة من الشعر الاسود الجميل

القصر المهجور

« لأونوريه دى بلزاك »

على مسيرة مائة خطوة من مدينة فندوم ، على ضفاف اللوار ، يقوم قصر قديم داكن شاهق السماك مفرد بوحده وقد شاهت حديقته واستوحشت شـــجيراته وكلحت جدرانه وتعفرت نوافذه وأبوابه وخيم عليه سكون فاجع تحس النفس أن وراءه سرا وقد علم كاتب هذه السطور من خادمة فى نزل قريب حكاية أهل هذا القصر وكانت وصيفة عندهم وقد أحلها نزوح السيد الى غير رجعـــة وموت السيدة من بعـــده من أمانة السر التى ظلت على التزامها سنوات طوالا

وهذا ما حكته بعد اختصاره والسلوك به الى ناحيـــة الايجاز واقتضاب مقدماته وقصره على ما تنجـــلى به خافية الامر ويرتفع به جانب الستر :

كان المخدع المخصص فى القصر للكونتس دى ميريه فى الطابق الارضى وكانت تلحق به مقصورة صغرى طولهـــا أربع اقدام متداخلة فى الحائط تتخذها السيدة خزانة لاثوابها . وكانت الكونتس دى ميريه فى ذلك الحـــين قد ألمت بها من ثلاثة اشهر وعكة شديدة تقضى بأن تستقل بهذه الحجرة وأن يدعها الزوج وحدها ، فكان يرقد فى حجرة بالطابق الاول

ولقد شاءت مصادفة من تلك المصادفات التي لا ضابط لها في التقدير والحسبان ، ان يعود الكونت ذات ليلة متأخرا عن مألوف عادته من النادى الذى يرتاده لمطالعة الصحف والحديث في السياسة . وكانت زوجته تحسبه قد عاد في موعده وأنه في مضجعه مستغرق في النوم .

ولكن أخبار الحرب كانت مثار نقاش شديد في النادى تلك الليلة . وكذلك كان شوط البليارد هذه المرة حامي الوطيس وقد خسر فيه أربعين فرنكا ، وهو مبلغ جسيم في الريف حيث الناس اجمعون مدخرون للمال جامعون ، وحيث الطبائع مكفوفة عن الغلواء ملتزمة حدود القصد الحميد ـ ولعل في هذا مصدرا للسعادة الحقة لا يحفل به الباريسيون . وكان المسيو دى ميريه منذ حين يقنع بسؤال الوصيفة روزالى عما اذا كانت السيدة دى ميريه أوت الى فراشها فترد الوصيفة على سؤاله بالايجاب دائما ، فيبادر الى حجرته بسلامة الطوية التى تورثها العادة والثقة . ولكنه في هذه الليلة بدا له أن يعرج على زوجته يحدثها بما لاقى من سوء حظ ولعله قام بنفسه أيضا التماس العزاء في قربها . فلقد كانت على العشاء غنجة الزينة متبرجة فحدث نفسه وهو عائد من النادى الى البيت في انها عوفيت وصح بدنها وكيف انها زادت على النقاهة حسنا . ولقد فطن الى ذلك الليلة فقط كما هو العهد بالازواج يفطنون الى كل شيء متأخرين . فها هو ذا لا يدعو روزالى التى كانت في تلك اللحظة مشغولة في المطبخ بمتابعة الطاهية والحوذى يلعبان بالورق شوطا عسيرا ، بل يأخذ سمته توا الى مخدع امرأته على ضوء فانوسه الذى وضعه على الدرجة الاولى من السلم . وكانت خطوته ـ ومن السهل معرفتها ـ تدوى مرددة الصدى تحت حنايا الدهليز .

فلما ان ادار مفتاح حجرة زوجته خيل اليه أنه يسمع باب المقصورة الداخلية المتخذة خزانة للثياب يقفل . ولكنه حين دخل الفى امراته وحدها واقفة امام الموقد فوقع بنفسه فى بساطة ان وصيفتها روزالى فى المقصورة. بيد أن طائفا من الشك طن فى اذنه طنين الجرس فأيقظ توجسه . فتطلع الى امرأته ، فرأى فى عينيها ما لا يدرك كنهه من البلبلة والاستيحاش .

وقالت : « لقد طال فى العودة تأخرك » .

ولكن هذا الصوت الذى يعهده غاية فى الصفاء ونهاية فى الرقة بدا له متغيرا بعض التغير ولم يحر السيد دى ميريه جوابا اذ دخلت فى هذه اللحظة روزالى وكان دخولها من باب الحجرة لا المقصورة ، فوقع ذلك عليه وقع الصاعقة وجعل يتمشى جيئة وذهابا فى الغرفة متنقلا من نافذة الى أخرى ، بحركة رتيبة واحدة ، مكتوف الذراعين ..

وسألته امرأته فى وجل وخشية وروزالى تعاونها على خلع ثيابها :

« او بلغك ما احزنك او بك ما تشكو منه ؟ »

فلم يخرج عن صمته ..

والتفتت السيدة دى ميريه الى وصيفتها قائلة : « اذهبى انت. ساعصب شعرى بنفسى » . لقد اوجست أمرا من مجرد التطلع الى سيماء زوجها فارادت الا يشهدهما ثالث .

فاما ان ذهبت روزالى ــ او على اصح القولين اوهمت انها ذهبت ، اذ الواقع انها وقفت فى الدهليز تتسمع ــ تقدم السيد دى ميريه فجلس قبالة زوجته وقال لها فى برود :

« سيدتى ، فى هذه المقصورة شخص ! »

فرمقت السيدة زوجهـا هادئة المظهـــر واجابت فى هدوء :

« لا ، يا سيدى »

ولقد فجعته « لا » هذه وصـدعت قلبـه فانه لم يصدقها . ومع هذا فلم تبد له امرأته اخلص نقـــاء وأخشع تدينا منها فى هذه اللحظة ..

ونهض السيد دى ميريه يريد فتح المقصورة فامسكت السيدة دى ميريه بيده وأوقفته ونظرت اليه فى حزن وأسى وقالت له فى صوت شديد التأثر :

«فكر فى انقطاع ما بينى وبينك اذا أنت لم تجد أحدا»

قال : « كلا يا جوزفين ! لست فاعلا والا افترقنـا على الحالين فراقا لا لقاء بعده . اسمعي لى انى أعرف مبلغ نقاء سريرتك واعرف أن حياتك حياة قديسة ولن يقوم بخلدك أن تقترفى كبيرة فيها هلاك نفسك »

فرفعت السيدة دى ميريه الى زوجها نظرة تائهة

ومضى الزوج يقول : « خذى هذا صليبك فاقسمى لى امام الله ان لا احـد هنـاك » فانى اذ ذاك مصــدقك وقابض يدى عن فتح هذا الباب » .

فتناولت السيدة دى ميريه الصليب وقالت :«أقسمت»

فقال الزوج : « ارفعى صوتك واعيدى القسم (اقسم امام الله أن لا أحد فى المقصورة) »

فأعادت العبارة غير متلجلجة

فقال الزوج فى برود : « حسنا .. »

وبعد لحظة صمت قال وهو يمعن النظر فى الصليب وكان من آبنوس محلى بالفضة بديع النقش للغـاية :

« ان عندك تحفة بديعة الشكل لم أكن اعهدها عندك »

فأجابت : « لقد رأيتها عند ديفيفيه وكان اشتراها من راهب اسبانى عندما مرت بالبلدة جماعة الاسرى الاسبان فى السنة الماضية » .

فنبس السيد دى ميريه «آه!» وأعاد الصليب الى مناطه من المسمار ، ثم قرع الجرس . فلم تلبث روزالى أن دخلت وخف السيد دى ميريه اليها وأخذها الى فرجة النافذة المطلة على الحديقة وهمس اليها :

« أنا أعلم أن جورنفلو راغب فى زواجك وانه لم يمنعكما الا الفاقة وقد صارحته أنك لن تكونى زوجته الا حين يصبح مقدم بنائين .... اذن هيا التمسيه وقولى له أن يأتى الى هنا ومعه مسبحته وسائر أدواته وحاذرى أن يتنبه فى بيته أحد غيره ولسوف يجاوز كسبه ما تشتهين . هيا وليكن خروجك من هنا خاصة من غير ثرثرة والا .... »

وقطب ما بين حاجبيه وخرجت روزالى فاستدعاها اليه ثانية :

« خذى دونك جواز مرورى »

ثم صاح السيد دى ميريه بصوت راعد مجلجل فى الدهليز « جان ! »

وكان جان حوذيه وأمين سره وموضع ثقته معا فلما سمع النداء ترك شوط الورق وقدم على عجل ملبيا .

فابتدره سيده صائحا : « هلموا للنوم جميعا » وأومأ اليه بالدنو ثم همس اليه : « حين ينامون جميعا .. حين ينامون .. أسامع أنت .. فانزل وأعلمنى »

وكان السيد دى ميريه يصدر أوامره دون أن تغيب عن ناظريه امرأته ثم عاد فى سكون الى قربها أمام المصطلى وجعل يحدثها بما جرى فى شوط البليارد وبما دار من

نقاش بين المجتمعين في النادى فلما أن رجعت روزالى وجدت السيد والسيدة يتجاذبان الحديث كأصفى ما يكون ..

وكان السيد فى العهد الاخير قد أمر بالحجرات التى يتألف منها جناح الاستقبال فى الدور الارضى فجصصت سقوفها . ولما كان الجص عزيز الوجود فى البلدة ونقله يزيد كثيرا فى نفقته فقد استورد منه السيد مقدارا كبيرا لعلمه أنه واجد على الدوام كثيرين من المشترين لما يتبقى منه . وهذه المناسبة القريبة هى التى أوحت اليه بالنية التى هو عامل على امضائها .

وهمست روزالى : « سيدى جورنفلو موجود » .

فأجاب السيد رافعا صوته : « ليدخل » .

وتغير وجه السيدة دى ميريه عند رؤيتها للبناء .

وقال الزوج : « يا جورنفلو ، اذهب وخذ قرميدا من المخزون واحمل منه مايكفى لسد باب هذه المقصورة وعليك بالجص المتبقى عندى لدهان الجدار بعد ذلك »

ثم اجتذب الى ناحيته روزالى والعامل وقال هامسا : « اسمع لى يا جورنفلو . بعد فراغك تنام الليلة هنا وفى صباح الغد يكون فى يدك جواز للرحيل الى قطر أجنبى ، الى بلد سوف أسميه لك . وسأعطيك ستة آلاف فرنك لرحلتك . وفى ذلك البلد تقيم عشر سنوات . فاذا لم يطب لك فيه المقام فلك أن تستوطن غيره ولكن فى القطر نفسه . وليكن مجازك عن طريق باريس حيث تنتظرنى وثمة أوقع لك صكا بستة آلاف فرنك أخرى تكون حقا لك بعد عودتك فى حال وفائك بشروط الصفقة التى بيننا . وفى لقاء هذا تطوى فى غور سرك ما أنت فاعله الليلة هنا وتشرح عليه صدرك أما أنت يا روزالى فسأهبك عشرة

آلاف فرنك لا انقدها اياك الا يوم عرسك، وعلى أن تتزوجى جورنفلو • ولكن أمــر زواجكما رهن بالصمت والتزام الكتمان والا فلا صداق »

ونادت الســيدة دى ميريه : « روزالى تعــالى مشطى شعرى » ••

وجعل الزوج يذرع الحجرة فى هدوء طولا وعرضا وهو يرقب الباب والبناء وامرأته دون أن تبــدو منه ريبـة جارحه . وكان جورنفلو يحدث ولا محالــة بعض الجلبة فانتهزت السيدة دى ميريه ان كان البناء يفرغ على الارض ما يحمل من حجارة وزوجها فى آخر الحجرة وهمست الى روزالى : « ألف فرنك أجريهـا عليــك كل عام يا بنيتى العزيزة لو اســتطعت أن تقــولى لجورنفلو أن يترك فى أسفل البناء ثغرة »

ثم قالت بصوت مسموع وهى رابطة الجأش » :

« هيا اذن فعاونيه »

ولبث السيد والسيدة دى ميريه صامتين طوال المـدة التى قضاها جورنفلو فى سد الباب وكان صمت الزوج عن قصد وتدبير حتى لا يتاح لامرأته التعريض بالكلام وكان صمت امرأته عن تحفظ أو اباء •ولما أن بلغ الجدار نصف ارتفاعه انتهز البناء الماكــر ان كان الزوج مســتديرا ، فأصاب احدى زجاجتى الباب بضربة من معــوله فأدركت السيدة دى ميريه من ذلك ان روزالى أدت للبناء رســالتها ولمح ثلاثتهم من وراء الشظية المحطمة وجه رجل أســمر الاهاب أسود الشعر براق النظــرة مشــتعلها .وقبل أن يستدير الزوج كانت المرأة المسكينة قد أومأت برأسها الى الغريب : « أن انتظر وأمل »

وفى الساعة الرابعة عند انبلاج الصبح ـ وقد كان ذلك فى شهر أيلول ـ تم البناء • ولم يبرح البناء القصر وبقى تحت ملاحظة جان الحوذى الامين • ورقد السيد دى ميريه فى حجرة زوجته . وفى صبيحة الغد هب من فراشه وهو يقول بلهجة فارغ الهم خالى البال :

« آه يا للشيطان ! لا بد لى من الذهاب الى دار العمدة لاستخراج جواز »

ووضع قبعته على راسه وخطا خطوات ثلاثا الى الباب، ثم راجع نفسه وأخذ الصليب معه .

فارتجفت زوجته فرحا وقالت فى نفسها : « انه ذاهب الى ديفيفيه » وما كاد يخرج السيد حتى دقت السيدة دى ميريه الجرس لروزالى ثم هتفت بها فى صوت مخيف :

« المعول ! المعول ! والى العمل • لقد رأيت البارحة كيف كان جورنفلو يزاول العمل ولدينا المتسع من الوقت لنقب فجوة ثم سدها »

وفى مثل لمحة الطرف أحضرت روزالى الى سيدتها أداة كالفأس فأقبلت هذه على الجدار تضربه بحمية لايتصورها وهم ولا تتمثل فى خيال . ولقد اطارت فعلا بعض الحجارة وفيما هى تتحفز لضربة أخرى أقوى بأسا وأشد تقويضا اذا بها تبصر السيد دى ميريه خلفها فخـــــرت من فورها مغشيا عليها ••

وقال السيد فى برود : « ضعوا السيدة فى فراشها »

لقد توقع الرجل ما هو حرى بالوقوع فى غيبته فنصب هذا الشرك لزوجته واكتفى بكل بســاطة بأن يكتب الى العمدة فى أمر جواز السفر وأن يرسل فى طلب الصــائغ ديفيفيه • وقد وافى الصائغ وكانت الحجرة قد تم اصلاح أمرها ولم شعثها

فسأله السيد : « قل لى يا ديفيفيه أو لم تشتر صلبانا

من الاسبان الذين مروا بالبلد ؟ »
ـ لا يا سيدى

وقال السيد وهو يبادل امرأته نظـــرة النمر : « حسنا أشكرك »

ثم التفت الى خادمه الامـــين وقال : « جان قل لهم من اليوم أن يقدموا الطعام لى فى حجرة السيدة، انها مريضة ولن أدعها حتى تعافى »

ولبث السيد الفـــاسى عشرين يوما بجـــانب جوزفين زوجته • وكان فى الايام الاولى كلما اضـــطرب حس فى المقصورة المسدودة وهمت جوزفين بالتوسل اليه من أجل الغريب المختنق لم يدعها تنبس بكلمة مما تهم به مرددا على سمعها قولا واحدا :

« لقد أقسمت على الصليب أن لا أحد هنا »

أرملة

« لجى دى موباسان »

كان ذلك في أوان الصيد فى قصر بانفيل ، والخريف مطير حزين والاوراق الذابلة المحمـــــرة منتثرة على أرض الغابة لا يسمع لهـا تقصف تحت الاقـــدام بل تعطن فى الطرقات بمدارج العجلات تحت شآبيب الديم الهاطلة

وكانت الغابة جرداء الا قليلا ، تشبه من الرطوبة بيت الاستحمام • فاذا أوغلت فيها تحت افنان الدوح العالى يصفقه وابل المطر ، شملتك رائحة مخمة وهبوة بخار من العشب المخضل والارض المبتلة . وكان الصـــيادون يدبون ـ حناة الظهور ـ تحت هذا الفيض الهتون •والكلاب متجهمة ساهمة ذيلها مرسل الى الارض وشـعرها ملتصق بآطالها • والغانيات الصائدات فى أثواب الصوف المفصلة على أعطافهن اللاصقة بأبدانهن وقد أشربهـا البلل • كان هؤلاء جميعا يعدن كل مساء من الصيد انضاء جسم وعقل معا

وكانوا بعد العشاء يجتمعون فى البهو الكبير الى لعبـة الورق من غير انبساط ولا لذة وللريح فى الخارج هبـات مدويات تدفع فى مصاريع الشبابيك المغلقة وتبتدر دوارات الهواء المتقادمة العهد فوق الابراج فاذا هى من الدوران كالخذروف المدوم

وأرادوا أن يسمـروا بالحكايات على نحو ما يروى فى الكتب فلم يوفق أحد الى ابتداع حكاية مسلية . ومضى

الصيادون يقصون ما وقع لهم فى أثناء صيدهم بالبنادق وتقتيلهم للارانب وجعلت الغانيات يكددن أذهانهن ويتقصين فى ثناياها فلا يجدن خيالا كخيال شهر زاد يسعفهن بحكاية من أمثال حكايات ألف ليلة وليلة

وكاد القوم أن تنقطع بهم أسباب الحديث الا أن احدى الغانيات كانت تعبث خالية البال بيد عمتها العجوز وهى عانس لم تتزوج فلحظت خاتما صغيرا من شعرات شقراء كثيرا ما وقع ناظرها عليه من غير أن تفكر لحظة فيه . فسألتها ، وهى تديره فى أصبع صاحبته بلطف : « الا قلت لنا يا عمتى ما هذا الخاتم ؟ لكأنه شعر غلام يافع ... »

فاحمر وجه العانس ثم اصفر ، وأجابت بصوت متهدج: « ان الامر محزن جدا .. محزن جدا .. حتى لست أحب فيه الكلام ، وكل الذى فى حياتى من شقاء فهذا مصدره ، لقد كنت فى غرارة الشباب وقتئذ . ان الذكرى ما برحت تلوعنى وترمضنى حتى ليغلبنى البكاء كلما خطرت فى نفسى

فتلهف القوم الى سماع الخبر وأبت العمة ذلك عليهم فما زالوا بها حتى رضيت فى آخر الامر وأنشأت تقول :

« كثيرا ما سمعتمونى أتحدث عن أسرة سانتيز وقد انقرضت اليوم عن آخرها . ولقد عرفت الثلاثة الاخر من رجال هذا البيت والثلاثة ماتوا ميتة واحدة وهذه شعرات الاخير ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره حين انتحر من أجلى ، لقد يبدو لكم الخبر غريبا أليس كذلك ؟ .

« بلى لقد كانوا معشرا عجيبا من المجانين ان شئتم هذه التسمية ولكنهم مجانين ظرفاء .. مجانين غرام . فهم جميعا — أبا عن جد — ذوو عواطف عارمة جامحة تدفعهم فى صميم كيانهم كله دواع لاتدافع الى أبعد السبحات . الى التفانى المهووس والغلواء فى التحمس ؛ بل تذهب بهم الى خد

ارتكاب الجرائم • وهذا الهيام منهم بمنزلة التدين الشديد في بعض النفوس وشتان في الطبيعة والمزاج بين أهــل العبادة وبين أزياء النساء ••

« وقد شاع بين ظهرانيهم هذا الوصف « عاشق عشق آل سانتيز » • وحسبك أن تراهم فتجد هذا على سيماهم فما منهم الا ذو خصل منسدلة على الجبين ولحية جعــدة وعينين واسعتين ينفذ شعاعهما في نفسك فيبلبلك ويشغل خاطرك دون أن تعرف لذلك سببا

« وكان جد الغلام — الذي رأيتم في أصبعي تذكــار، الوحيد — له مغامرات عدة ومبارزات وسبي واســتباحة للحريم ، وقد هام بعدها وهو في الخامسة والستين بابنة مؤاجر ضياعه واني لاذكرهما، وكانت شقراء شاحبةاللون حسنة السمت والشارة ، تتكلم متئدة وفي صوتها لين، وترطيب ، ونظرتها حلوة غاية في الحــلاوة كأنها نظرة العذراء في صورة الرسامين • فأخذها السيد الكهل عنده وسرعان ما أصبح متيما بها لا يطيق البعــد عنها لحظة • وكانت ابنته وامرأة ابنه المقيمتان في القصر لا تنكران من الامر شيئا لطول ما قر الحب في تقاليد الاسرة • فان الامر اذا كان أمر العشق فليس شيء فيه عنــدهما بمستنكر • واذا جرى الحديث أمامهما عن هوى مخيب مردود أو عاشقين افترقا أو حوادث الانتقام من الخيــانة أو نقض العهد قالتا معا في لهجة أسيفة شجية : « له الله — أو لها الله — لشد ما قد تألم ولا ريب حتى بلغ الامر به هذا المبــلغ.» ولا تزيدان على ذلك فهما لا تبرحان تدركهمــا الرحمة لمآسي الحب ولاتنقمان قطعلى أصحابه ولو أجرموا

« الا انه في ذات خريف كان بين المدعوين للصيد شاب في عنفوان الشباب هو المسيو دي جراديل فاختطف الفتاة

وظل المسيو سانتيز هادئا كأن لم يحدث شيء ، واذا هم يصبحون ذات يوم فيجدونه مشنوقا بمرقد الكلاب والكلاب حوله.لقد شنق نفسه.كذلك مات ابنه مثل هذه الميتة في فندق بباريس في أثناء رحلته سنة ١٨٤١ على اثر خيانة احدى مغنيات الاوبرا له وترك بعده ولدا في الثانية عشرة وأرملة هي أخت أمي ، وجاءت السيدة ومعها الصغير للمقام عندنا بأرضنا في بريتون . وكنت وقتئذ قد بلغت سبعة عشر ربيعا

« ولا يسعكم أن تتصوروا كيف كان هذا الصغير سانتيز مدهشا في نضجه الباكر قبل الاوان . وانه ليخيل الى المرء أن جميع ملكات أسلافه من رقة عاطفة وسبحات نفس جائشة قد اجتمعت فيه،هذا العقب الاخير.وكان على الدوام سارح الفكر حالما يتمشى وحده ساعات كاملة في ممشى رحيب بين أشجار الدردار يمتد من القصر الى الغابة وكنت أرقب من نافذتي هذا الصبي الرقيق الوجدان وهو يسير وئيد الخطى ويداه خلف ظهره مطرقا الى الارض وأحيانا يتوقف ويرفع طرفه كأنه يرى ويدرك ويحس أشياء ليست لمن كان في سنه

وكثيرا ما كان يدعوني للخروج بعد العشاء في الليالي المقمرة قائلا « هلمي يا ابنة الخالة نحلم .. » فنمضي سويا الى الروض . وكان يتوقف فجأة في الفتحات بين تفاريج الشجر حيث نطفو تلك الهبوة البيضاء مثل نديف القطن يبطن بها القمر فتحات الغاب . ويقول لي وهو يشد على يدي: «أنظري الى هذا.انظري الى هذا ولكنك لا تفهمينني، اني لاحس ذلك . لو أنك تفهمينني لكنا سعداء . لابد من الحب لمن شاء المعرفة » وكنت اضحك واقبله .. اقبل هذا الصبي الذي يحبني متفانيا في حبي ..

« وكان أيضا بعد العشاء كثيرا ما يجلس على ركبتي أمي قائلا لها « ايه يا خالة قصي علينا شيئا من قصص الحب » فتحكي له أمي على سبيل الدعابة أساطير أهل بيته كافة وجميع ما وقع لآبائه من الوقائع الغرامية والناس يرددون من وقائعهم الالوف بعد الالوف من صحيحة ومفتراة • ان هؤلاء القوم قد أضاعتهم شهرتهم فلقد كانت هذه الاخبار المأثورة عنهم تسور في رؤوسهم ويستجيشون لها فتملكهم العزة أن يكذبوا سمعة بيتهم وما اشتهر به

« وكان الصغير يهتز لهذه الحكايات لطيفها وفظيعها وكان بعض الاحيان يدق بيديه مرددا : « وأنا أيضا واني لاعلم بالحب منهم جميعا »

« ثم جعل يتحبب الى متغزلا في استحياء وحنان عميق، كانا مثارا للضحك لشدة غرابة الامر • وكان في كل صباح يقطف لي جني الزهور وفي كل مساء قبل صعودي الى مقصورتي يلثم يدي هامسا « أنا أهواك »

لقد أذنبت وركبني أعظم الذنب وما زلت على هذا نادمة باكية لا يرقأ لي دمع ، واني لفي التفكير عن هذا طوال حياتي • وقد بقيت بعده عانسا لا أتزوج ، بل بقيت كالخطيبة المترملة • أجل أنا أرملته •

كنت ألهو بهذا الحب الصبياني بل كنت أعمل على اذكائه • فكنت الى جانبه المرأة الخلوب ذات الدل وكأني الى جنب رجل ألاعبه وأخاتله • لقد فتنت هذا الغلام ودلهته بحبي • وكان الامر عندي لعبا ومعابثة وعند أمي وأمه تسلية وترويحا •• لقد كانت سنه اثنتي عشرة • فتأملوا من كان يأخذ مأخذ الجد هذا الغرام الذري • فكنت أقبله ماشاء بل كنت أكتب رسائل العشق له أقرؤها لامي وأمه قبله وكان يجيب عليها بكتب مسطورة، كتب من نار ،وقد

احتفظت بها . وكان معتقدا أن صلتنا الغرامية سر مكتوم . وكيف لا وهو يعتد نفسه رجلا والامر في عرنه الجد كل الجد وقد غاب عنا انه من آل سانتيز .

ودامت الحال على هذا المنوال عاما أو قرابة عام. وفي ذات مساء ونحن في الروضة خر جاثيا عند قدمي ولثم حاشية ثوبي في اندفاع المهتاج مرددا أنا أهواك أنا ميت في هواك واذا خنتني في يوم من الايام ، أسامعة أنت - اذا هجرتني الى سواي فاني صانع مثلما صنع أبي .... وأردف في صوت عميق يقشعر له البدن .. « أنت عليمة بما صنع ».

ولما وجمت ولم أحر جوابا نهض وشب على أطراف قدميه ليبلغ الى أذني - وكنت أفرع منه طولا - ودعاني باسمي الاول « جنفييف » بنغمة حلوة جميلة رقيقة شملتني منها قشعريرة سرت من فرعي الى أخمص قدمي .

فغمغمت « لنرجع لنرجع الى الدار » فلم ينبس بكلمة وسار في أثري فلما هممنا بصعود درج السلم استوقفني قائلا : « أتعرفين اذا هجرتني فاني قاتل نفسي » ..

فعلمت هذه المرة أنني تماديت حيث لا يجب التمادي وجعلت أتكلف معه التحفظ ولما ان كتب ذات يوم يعتب على أجبته : « أنت اليوم أكبر من عبث المزاح واصغر من جد الحب واني في الانتظار »

وحسبتني بهذا قد أبرأت ذمتي .

وفي الخريف عهدوا به الى مدرسة داخلية فلما عاد في الصيف التالي كنت مخطوبة . فأدرك الامر في الحال والتزم مدى ثمانية أيام هيئة المفكر الغارق في التفكير فأهمني ذلك وساورني منه قلق شديد .

وفي صبيحة اليوم التاسع استيقظت من نومي فوقعت عيناي على رقعة صغيرة مدسوسة من تحت الباب فتناولتها

وفتحتها فقرأت فيها « لقد هجرتني وأنت تعلمين ما قلته لك • لقد قضيت على بالموت • واني لاحب أن لا يعثر بى أحد غيرك فتعالى الى الروض فى الموضع الذى قلت لك فيه انى أهواك وتطلعى فى الفضاء »

فكدت أن أجن وأسرعت بارتداء ثيابى وهرولت أجرى على عجل ، وأجرى ، وأكاد أتساقط اعياء ، الى المكان المعين • واذا قبعته الصغيرة المدرسية ملقاة على الارض فى الوحل فقد كانت الليلة مطيرة ورفعت طرفى فابصرت شيئا معلقا يترجح بين الورق • وكان يوم ريح شديدة •

ولا أدرى بعد ذلك ما صنعت • لقد صرخت اول الامر ولا ريب ولعلنى سقطت بعدها مغشيا على • ثم عدوت هائمة على وجهى الى القصر•وثبت الى الرشد فى فراشى وأمى الى جانبى

فخيل الى أنى رأيت مارأيت كله فى هذيان حلم فظيع فغمغمت « وهو ، اين هوجونتران ؟» فلم يجبنى أجد أنها الحقيقة

ولم أجرؤ على طلب رؤيته ، وطلبت اليهم خصلة طويلة من شعره الاشقر وهذى •• هذى •• هى ••

ومدت العانس يدهاالراجفة بحركة القانطالمقطوعالرجاء ثم أخرجت منديلها ومخطت مرات ومسحت عينيهـــا الدامعتين واستأنفت تقول : « ونقضت الخطبة دون ابداء السبب •• وبقيت •• بقيت طوال العمر •• أرملة •• أرملة هذا الصبى ابن الثلاثة عشر ربيعا » • ثم مال رأسها على صدرها وبكت طويلا بدموع الذكرى •

ولما انصرف المدعوون الى حجراتهم للرقاد مال صياد غليظ الجسم ــ قد أفسدت عليه الحكاية صفوه ــ الى اذن جاره هامسا :

« ألا ترى أن رقة الشعور الى هذا الحد بلاء وشر بلاء ! »

في ضوء القمر

« لجي دي موباسان »

كان الاب « مارنيان » جديرا باسمه الحربى . فهو قس مديد القامة قليل اللحم مجدول ، شديد العصبية له نفس سابحة على الدوام هائمة الا انها مستقيمة لا التواء فيها ، عقائده كلها ثابتة راسخة لم تعتورها قط ذبذبة الحيرة وقد وقر في وهمه عن اعتقاد وخالص ايمان انه يعرف ربه وانه يدرك كنـــــه حكمته ومشيئته ومرامى تصاريفه ..

وكان أحيانا وهو يتمشى بخطوات واسعة فى ممشى داره الخاوية الصغيرة يقوم بخاطره ان يتساءل : « لاى سبب من الاسباب كان خلق الله لهذا الشيء ؟ » فيبحث ويلج في البحث مفترضا نفسه في متبوأ الله تصــــورا للسبب المنشود . وكان فى معظم الاحـوال يوفق الى الاهتداء الى سبب . فليس هو من الذين يغمغمون فى فيض من الاخبات والخشوع « يارب ، جلت حكمتك عن ادراك المدركين ! » كلا بل هو يقول فى ضميره « أنا خادم الله فواجبى أن أعرف دواعى تصاريفه أو ان اتوسمها تخمينا ، اذا أعيانى عرفانها يقينا » .

فكل شيء فى الطبيعة يبدو مخلوقا على أكمل القياس المنطقى واروعه لكل معلول علة والمسائل والاجوبة متعادلة على الدوام فى الميزان . فالله قد خلق مطالع الفجر لنفتح

على البهجة عيوننا ساعة اليقظة، وكذلك خلق النهــــار منضجا للحصاد والامطار للرى والاصائل تمهيدا للنــوم وحلك الظلام للرقاد ..

والفصول الاربعة مطابقة لمقتضيات الزراعة كل المطابقة. ولم تخامر القس قط شبهة بأن الطبيعة لا مقصد لها ، وأن الكائنات الحية جميعها خاضعة لاحكام الدهـــور واختلاف الاجواء وطبيعة المادة .

ولكنه كان يبغض المرأة . يبغضها عفو سجيته ويحقرها بفطرته . وكثيرا ما كان يردد قول المسيح « أيتها المرأة أى وجه للشبه بينك وبينى ؟ » ثم يعقب على ذلك : لكأن الله نفسه غير راض عن هذا الصنيع من صنائعه ،فالمرأة عنده هى ذلك الوليد الرجس المضـــاعف الرجس الذى يحدثنا الشاعر عنه . ولقد كانت شيطان الغواية الذى استدرج آدم اول الرجال وما برحت دائبة على سعيها المضلل الموقع فى الفتنة والهلاك الابدى ، تلك المخلوقة الضعيفة الخطرة مثيرة الشجون لغامضة . ثم انه على كراهته لجسمها الموبق لاشد كراهة لنفسها النزوع الى الحب ..

ويا طالما شعر من النساء بعطفهن يشمله فكان — مع ما يعهده في نفسه من المناعة دون سطوتهن — يستشيط حنقا ونقمة على ما يختلج ابد العمر فى انفسهن من حاجة الى الحب ..

فالله فى اعتقاده لم يخلق المرأة لغـــــــواية الرجل وابتلائه . فيجب الا يدنو الرجل منها الا مزودا بأهبـــة الدفاع واستشعار الحذر من الوقوع فى حبائلها . وانها فى الواقع لشبيهة بأحبولة الصياد بذراعيها الممدودتين الى الرجل وثغرها المفتر له .

فلا سماح ولا موادعة عنده الا للراهبات جعلهن التبتل مكفوفات الاذى • بيد انه مع هذا يجفو فى معاملتهن لانه يحس فى سويداء قلبهن المقيــــد المهيض ذلك العطف السرمدى الذى لا ينفك نابضا حيا والذى يتجه اليـــه ايضا ، مع كونه قسا .

وهو يأنس ذلك فى لحـــاظهن المخضـــلة من التعبد والتخشع أخضلالا لا يعهده مثله فى لحاظ الرهبان • يأنس ذلك فى سبحات وجدهن الصـــوفى الممتزج بالاحساس الجنسى فى لهفة حبهن للمسيح ، لهفة تسخط القس وتثيره لانها بعد حب نسائى ،حب حسى• يأنس ذلك العطف اللعين فى انقيادهن وفى حلاوة صوتهن وهن يتحدثن اليه ، وفى اطراقة ابصارهن وفى دموعهن المستسلمة عندما يعنف فى تقريعهن ••

فتراه لدى خروجه من أبواب الدير ينفض مســـحة الكهنوتى ويمضى مهطعا ممدود الخطا كأنما يفر من خطر

وكانت له ابنة أخت تعيش مع أمها فى منزل صـــغير مجاور • وهو لا ينى دائم السعى لجعلها اختا من أخوات الرحمة ••

وكانت حسناء خفيفة الحلم عابثة ، يعظ الاب فتضحك فاذا تكدر منها عانقته بشدة وضمته الى صدرها ، وهو يحاول غير مختار أن يتخلص من هذه الضمة التى تذيقه مع هذا متعة حلوة اذ تنبه فى قرارة نفسه احساس الابوة الهاجع فى نفس كل رجل .

وكثيرا ما كان يحدثها عن الله ــ عن ربه ــ وهو سائر الى جنبها فى مماشى الحقول . وهى قليلة الانصـــات اليه ترنو الى السماء والى العشب والى الازهار سعيدة بالحياة سعادة تتراءى شاهدة فى عينيها . وتنطلق عنه

احيانا لمطاردة بعض الهوام ثم تهلل فرحة وقد اقتنصتها: « انظر يا خالى ما أملحها لوددت لو ضممتها » وهـذه الحاجة الى ضم متطاير الفراش واكمام الزنبق تقلق بال القس وتغيظه وتستثيره اذ يجد هنا ايضـا ذلك العطف الذى لا سبيل الى اقتلاعه ، ولن ينفك نابت الجرثومة فى قلوب النساء .

وتعاقبت الايام فى أثر الايام واذا بزوجة سادن الدير ـ القائمة بتدبير منزل القس ـ تنبئه ذات يوم فى احتياط وتحفظ ان لابنة اخته عاشقا

فهزه ذلك هزة عنيفة ووقع منه موقعا شديدا . ولبث مختنق الصوت ورغوة الصابون تعم وجهه اذ كان يحلق ذقنه وقتئذ ..

ولما ثاب الى حال يستطيع معها التفكير والكلام صاح قائلا :

« هذا غير صحيح أنت تكذبين يا ميلانى ! »

فوضعت القروية يدها على قلبهـا وقالت : « ليقض الله تعالى قضاءه فى ان كنت كاذبة يا سيدى الاب . وأنا مخبرتك انها تذهب الى هناك كل ليلة بعد ان تأوى اختك الى مضجعها ، وهما يتلاقيان على ضفاف النهر . وما عليك الا ان تذهب وترى بعينيك بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل »

فأمسك القس عن حك ذقنـه بالموسى وطفق يذهب ويجىء فى عنف كدأبه فى ساعات التفكير الخطير ، ولما أراد استئناف الحلاقة جرح نفسه ثلاثا فيما بين أنفه واذنه .

وظل سحابة النهار صامتا منتفخ الاوداج قد امتـلأ موجدة وغضبا . ولا جرم فقد زادت فوق نقمة الكاهن على نزعة الحب الغلاب نقمة الاب المعنـوى والقيم الوصى

والموكل بالتهذيب الخلقى ، وقد رأى نفسه مخدوعا مسلوبا لعبت به طفلة . وهذا هو الكرب الانانى الذى يشجى به الاباء حين تؤذنهم الفتاة بأنها ـ من دونهم وبالرغم منهم ـ قد اختارت لنفسها الزوج الذى تقر به عينها .

وبعد العشاء حاول الاب ان يقرأ قليلا ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا فازداد حنقا على حنق ، ولما دقت الساعة العاشرة تناول عصاه، وهى عصا من البلوط رهيبة يستصحبها دائما فى جولاته الليلية عند ذهابه لعيادة مريض .وتأمل مبتسما هراوته الضخمة ولوح بها فى قبضة يده الشديدة الاسر شأن أيدى أهل الريف ثم رفعها على حين فجأة وأهوى بها ـ وهو يصرف بأسنانه ويعض نواجذه ـ على أحد المقاعد فانهار قعره المفلوق على أرض الغرفة .

وفتح الباب للخروج ولكنه وقف على الوصيد مبهوتا مأخوذا بلألاء القمراء يفيض فيضا قلمـا رأى الراؤون مثله ..

ولما كان القس ذا نفس هائمة سابحة من النفوس اللواتى كانت لا محالة لاباء الكنيسة الاولين اولئك الشعراء الحالمين ، فقد ظل سارح الفكر مستغرق الحس فى غمرة ذلك الجمال الرائع الساجى فى جنح هذى الليلة الاضحيان ..

وكان كل شىء فى حديقته الصغيرة غارقا فى الضياء اللين اللطيف ، وأشجار الفاكهة المصفوفة ترسم على أدبم الممشى خيال أوصالها المتفرعة الدقيقة التى لا يكسو عريها الا القليل من مخضوضر الورق . على حين تعبق من النبات الباسق المتسلق على جدار بيته انفاس زهرة العسل لذيذة العبير حتى لكأنها فى حقيقة الواقع معسولة. وهذه الانفاس تهفو فى الليل القمر أشبه بروح عاطرة .

وجعل الاب يتنفس ملء صدره ويعب الهواء كما يعب الخمر معاقرها المدمن . ومضي متمهـلا متريث الخطى مسحورا مدهوشا وقد غابت ابنة اخته عن باله .

فلما صار فى وسط الحقول توقف يتـأمل الوادى المنبسط مغمورا بهذا السنى المترقرق ، غارقا فى هذا الحس الرقيق الدنف الذى يأنسه السارى فى الليـالى الساجية . وكانت الضفادع ترجي فى الفضاء طوال الاناء ترجيع نقيقها المقتضب المعدنى ، والبلابل من بعيد تسلسل مثل الجمان نغمها الرخيم البـاعث الى سبحة الحلم دون جهد التفكير فتمزج موسيقاها ــ موسيقى القبـل النابضة الطروب ــ بلألاء هذه القمراء التى تسبى الالباب وتتيم القلوب .

واستأنف الاب المسير خائر القلب من غير ان يدرى لذلك سبباً ، ثم احس بفتة انه مضعضع القوة منهـوك وود لو يجلس ويطيل هنا مكثه وينعم النظر فيما حوله ويسبح الله ويكبر له فى بديع صنعه .

وبدا هنالك صف من أشجار الحور الباذخـة ينثنى وينعرج متابعا للجدول فى تعاريجه . وحول ضـفاف الجدول المرتفعة وفوقها ينعقد رباب لطيف ، بخار أبيض تتخلله أشعة القمر وتفضضه وتجمله وضيئا شعشعانيا .

وهذا الرباب الوضيء يلف مجرى النهر المتعرج بمثـل مندوف القطن الخفيف الشفيف ..

فوقف القس مرة أخرى . لقد خامر نفسه فى أعماقها حنو متزايد لا يغالب .

وغشيته حيرة وقلق مبهم ، وأحس بأستفهام يخالجه من قبيل تلك الاستفهامات التى يطرحها على نفسه فى كثير من الاحيان .

فيم يصنع الله هذا ؟ وما دام الليل قد جعل للنوم٠٠ للسبات وفقدان الوعي٠٠ للراحة للنسيان الشامل ٠٠فما الداعي الذي جعله أبدع من النهار رونقا وحسنا والطف من الاسحار والاصائل،وما بال هذا الكوكب الساري الباهر يطلع بطلعته الشاحبة فيكون أشجى شاعرية من الشمس وكأنما هو بضيائه اللين الذي لا يغلو غلوها في كشف الاستار وفضح الاسرار مهيأ للتجلية عن أشياء الطف مادة وأدق معنى من ان يجلوها النور . ما بال هذا الكوكب الساري يغشى الليل بضيائه حتى تشف حنادسه ؟

ما بال أبرع الطير الصوادح انشادا وارخمها توقيعا لا تستجم ولا تهدأ كسائر الطير بل تنشيء تهزج وتترنم في جنح الليل الساجي ؟ فيم اشتمل هذا الكون بشبه نقاب فلا هو محجب ولا هو سافر ؟ فيم وجيب القلب هذا الوجيب وانفعال النفس هذا الانفعال وتفتر الاوصال وكلال الجسد هذا التفتر وهذا الكلال ؟

فيم اظهار هذه المفاتن التي لا يبصرها الناس اذ هم في مضاجعهم راقدون ؟ ولمن هذا المشهد الجليل ، هذا الفيض الشعري تغدقه السماء على الارض ؟

لم يدرك الاب لذلك سببا

واذا هناك في أطراف المرج تحت قباب الشجر المبلل بالرباب الوضيء ، خيالان متراثيان يسيران جنبا الى جنب٠

الرجل أطول قامة وهو يماشي صاحبته مطوقا جيدها ويلثم من حين لاخر جبينها ، وقد انبعثت الحياة فجاة منهما في هذا المنظر الجامد الماثل الذي يحيط بهما كاطار سماوي صيغ لهما ٠ وكأنما هما معا كائن واحد ، الكائن الذي أختصته القدرة بهذه الليلة الهادئة الساكنة ٠وكانا مقبلين من بعيد صوب القس كأنهما جواب حي ، الجواب

الذى ارسله المولى على سؤاله .

ولبث القس واقفا خافق القلب مخبولا ، وخيل اليه انه يرى صفحة من التوراة ، شيئا أشبه بغرام راعوث وبوعز ، آية من آيات المشيئة الالهية بين معالم مشهد رائع من تلكم المشاهد التى تتحدث عنها الاسفار المقدسة . وطفقت تدوى فى راسه ترانيم من نشيد الانشاد بما فيه من هتافات الشوق ودواعى الحس وكل حرارة الشعر فى تلك القصيدة الملتهبة محبة وعطفا .

عند ذلك قال فى نفسه : « لعل الله خلق هذه الليالى ليسبغ أروع الاستار على حب البشر » .

ونكص على أعقابه امام هذين الالفين المتعانقين وهما يتمشيان ..

ولكن ، أليست هذه ربيبته ابنة اخته ؟ بلى ولكنه قد راجع نفسه الان فيما جاء من أجله تسليما لمشيئة الله ، أفيحرم الله الحب التحريم كله وهو يحوطه عيانا بمثل هذا البهاء المبين ؟

وولى القس مدبرا مشدوها يكاد يتعثر من الخجل كانما اقتحم هيكلا لا يحق له دخول حرمه .

الجواهر

« لجى دى موباسان »

التقى المسيو « لنتان » بهذه الفتاة فى احدى الليالى بمنزل وكيل المكتب فاذا هو متيم بهـــــا كالقنيص فى الشرك استحكمت عليه حلقاته واجتمـعت اطرافه .

وكانت الفتاة ابنة جاب من جباة الضرائب فى الارياف قضى نحبه من سنوات عدة . فقدمت بها امها الى باريس، وكانت تتردد على بعض الاسر من أهل الطبقة الوسطى فى الحى على أمل ان تزوج الفتاة . وكانتا بحال رقيقة ولكنهما من ذوات الشرف والوداعة ولين العريكة . وكانت الفتاة مثالا للمرأة الفاضلة التى يتمناها الفتى العاقل لتكون الفتاة الامينة على حياته . جمالها الخفر فيه معنى من طهر الملائكة ، وابتسامتها الخفية التى لا تفارق شفتيهـــا كأنها ظل يعكس نقاء سريرتها .

والناس على اختلافهم السنة تلهج باطرائها جميعهــم لا يفرغون من تكرار قولهم « سعيد من يتخذها زوجا . هيهات يوجد خير منها . »

وكان المسيو لنتان وقتئذ كاتبا اول فى وزارة الداخلية يتقاضى مرتبا قدره ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك فى السنة فخطبها وتزوجها .

ولقد هنىء الرجل بعشرتها هناء فوق التصديق وكانت تدبر شئون بيته حتى لتحسبهما لحسن التدبير من أهل

الترف . وكانت لا تدع لونا من الوان الرعـــاية والرقة والتحبب الا احاطت به زوجها وبلغ من فتنتها انه كان بعد ستة أعوام طوال من لقائهما أشد لها حبا ، وبها شغفا منه فى الأيام الاولى .

وهو لا يأخذ عليها غير أمرين ، ولعها بالمسارح ، وكلفها باقتناء الجواهر الكاذبة . وكانت صواحبها — من نساء الموظفين متوسطى الحال — يوالينها فى كل حين بالمقاصير فى الروايات التمثيلية ذات الرواج والشهرة ، بل فى الليالى الافتتاحية من تمثيلها . وكانت تجر زوجها راضيا او كارها الى هذه الملاهى فيعيا بها أشد الاعياء بعد عمله طوال اليوم . ولقد رجاها والحف فى الرجاء ان تعفيه ، وتذهب الى التمثيل فى صحبة سيدة من معارفها تعود بها بعده ، فتمنعت ، وطال تمنعها ، لما تجد فى هـــذا التصرف من قلة اللياقة . وأخيرا قبلت مرضاة له فحمد لها ذلك كل الحمد .

وهذا الولع بالمسرح سرعان ما اشعرها الحاجة الى الزينة ، فلم تعد بها حاجة الى البساطة . حقيقة انهـا كانت دائما آية على حسن الذوق ولطافة الحس الا انها بعد زينة متواضعة . ومع هذا فان حسنها الحلو ، حسنها الصبيح المستكين الذى لا يغالب ، كان كأنمـــا يكتسب من بساطة ثيابها طعما جديدا ووقعا مستظرفا . ولكنها الى هذا تعودت أن تقرط اذنيهـــا بحجرين متلألئين يشاكلان الماس ، وأن تتخذ قلادة من اللؤلؤ المكـــذوب وأساور من ذهب مموه وأمشاطا محلاة بضروب من الخرز ممثل شذور الجواهر .

وكان زوجها ينكر بعض الشىء هـــذا الـــولع منهـا بالبهرج ، ويكرر عليها القول :

« يا عزيزتى ، اذا لم تملك الفانيات اقتناء الجواهر الحقيقية ، فحسبها أن تبدو حالية بجمالها وصباحتها ؛ وانها لانفس الحلى » .

فكانت تبتسم ابتسامة حلوة وتقول :

ـ ماذا تريد ؟ انى أحب هذا ، وهذا عيبى . أنك على الحق وما فى ذلك عندى ادنى ريب . ولكن المرء لا يخلق نفسه خلقا آخر . أترانى كنت أعبد الحلى ، أنا !

فيهتف الزوج باسما :

« ان لك ذوق نساء النور »

وفى بعض الاحايين ، وهما وحيدان فى المساء الى جانب المصطلى ، تقوم فتأتى الى المائدة التى يتناولان عليها الشاى بعلبة الادم المدبوغ التى اودعتها « الخـردة » على حد تعبير زوجها ، وتقبل على هذه الحلى المقلدة تمعن فيها النظر بهيام كأنها تتملى منها بمتعة روحية عميقة ثم كانت تصر على ان تجعل فى عنق زوجها عقدا من هذه العقود ، وتضحك ملء فيها وبقلبها اجمع وهى تقول :

« انك لمضحك حقا ! » ثم ترتمى بين ذراعيه وتقبله فى فتون ووله .

وفى ذات ليلة من ليالى الشتاء كانت فى الاوبرا وعادت ترتعد من البرد . واصبحت فى اليوم التالى تسعل ، ولم تمض ايام ثمانية حتى كانت قد اشتدت بها النزله الصدرية وعاجلتها المنية .

وكاد لنتان يلحقها الى القبر وبلغ من يأسه ان علاه الشيب فى مدى شهر واحد . فهو يبكى صباح مساء ، ونفسه الجريحة يمزقها الم لا يطاق ولا يستطاع الصبر عليه ، رهين الوجد نجي البلابل ، لا تبرح تساوره الذكرى وتتمثل له من الفقيدة الابتسامة والصوت والحسن

الخلاب . ولم يخفف تطاول الايام من لوعته ، فكثيراماتراه في مكتب عمله وقد اقبل زملاؤه يسمرون سمرهم فى شئون يومهم فاذا به قد انتفخ شدقاه وتقلص أنفه وتغرغرت عيناه بشآبيب مائهما وانقلبت سحنته انقلابا فظيعا وأكب ناشجا منتحبا .

ولقد ابقى مخدع قرينته على حاله يختلى فيه بنفسه كل يوم ليذكرها ويفكر فيها . فكانت أثاث مخدعها وثيابها جميعا في مواضعها كما خلفتها اخر يوم من حياتها ثم أن الحياة شقت عليه وتصعبت فهذا راتبه الذى كان بين يدى زوجته يسد حاجات البيت كافة قد بات لا يكفيه اليوم وحده فهو يسائل نفسه مبهوتا كيف أستطاعت بتصرفها ان توفر له دائما شرب جيد الخمر وتناول شهى الطعام مما يعييه بموارده المتواضعة ان يحصل اليوم عليه . فاستدان وسعى وراء المال سعى المحاويج تضطرهم الحال الى الاحتيال له بشتى الوسائل . واخيرا أصبح ذات يوم فالفى نفسه صفر اليدين قبل نهاية الشهر بأسبوع كامل فدار فى خلده أن يبيع بعض ما عنده، وسرعان ما خطر له التخلص من « الخردة » التى كانت لامرأته فانه ليضمر في قرارة نفسه شبه ضغينة على هذه البهارج « خدعة الابصار » ولا جرم فهى موضع ملاحظته من قبل ومثار انكاره . ان مجرد رؤيتها كل يوم ليفسد عليه بعض الافساد ذكرى زوجته الحبيبة

وقلب نظره طويلا فى هذه الكومة من الحلى البراقة التى خلفتها — فانها مابرحت الى أواخر أيامها ماضية على اقتنائها سادرة، تجىء كل يوم بتحفة منها جديدة — ووقع اختياره على العقد الكبير الذى كانت تستحبه وتؤثره على غيره وهو يعدل بحسب تقديره ستة فرنكات او ثمانية

لكونه ادق صنعة من المعهود فى أمثاله من زائف الحلى فأودعه جيبه ومضى الى وزارته يسلك اليها الشـــوارع الكبرى ملتمسا حانوت جوهرى يطمئن اليه .

واخيرا وقع بصره على الحانوت المنشود فدخله خجلان يتعثر لاضطراره الى عرض فقره وسوء حاله ساعيا الى بيع كهذا خسيس القيمة وقال للتاجر :

« سيدى أود ان أعرف ما تقدره لهذه القطعـــة »

فتناول الرجل القطعة وفحصها وقلبها ووزنها بكفـه وعمد الى المجهر ، ودعا اليه كاتب حساباته واسر اليه بعض الكلمات . ثم وضع العقد على دكته ورمقه من بعيد لينظر الى وقعـــه وتأثيره

وضاق المسيو لنتان بهذه الرسميات وفتح فاه ليقول : « أوه انى لاعلم حق العلم انه شىء لاقيمـة له » لولا ان سبقه الجوهرى الى الكلام :

« سيدى هذا يساوى بين الاثنى عشر الفـــا الى الخمسة عشر الفا من الفرنكات وانا لايسعنى شراؤه حتى تحيطنى علما بمصدره »

فحملق الارمل بعينيه وظل فاغرا فاه لا يعقل شـيئا واخيرا نبس مغمغما :

« ماذا تقول ؟ .. أواثق أنت »

وحمل الرجل اندهاشه على غير محمله وقال فى لهجة جافـة :

« يمكنك ان تتحرى فى محل آخر ان كانوا يزيدونك فيه ، أما عندى فيساوى خمسة عشر الفا على أكثر تقدير فاذا لم تجد خيرا من هذا الثمن فعـاودنى »

واسترد المسيو لنتان العقد فى بلاهة وخبال وانصرف مدفوعا بحاجة مبهمة الى الخلوة بنفسه والتفكير . بيد انه

مابلغ الطريق العام حتى كان يأخذه الضحك ، واخـــذ يحدث نفسه : ياله من مغفل ، أوه ياله من مغفل ، ليتنى مع هذا اخذته بكلمته . هاكم جوهريا لا يعـرف الزائف من الصحيح . »

ودخل عند تاجر اخر فى أول شارع دى لابيـــه فما كاد يقع نظر الصائغ على الحلية حتى هتف :

« آه وايم الله انى لاعرف حق المعرفة هذا العقد انه من عندى »

فقال مسيو لنتان وهو شديد الارتباك : «كم يساوى ؟»

« سيدى لقد بعته بخمسة وعشرين ألفـــا وانى على استعداد لاخذه بثمانية عشر الفا اذا تفضلت ــ عمـــلا بالتعليمات الرسمية ــ فدللتنى كيف صار اليك »

وفى هذه المرة تساقط مسيو لنتان على المقعد كمن اقعدته الدهشة وتمتم : « ولكن .. ولكن .. امعـــن النظر جيدا ياسيدى كنت حتى الساعة احسبه مصطنعا»

فقال الجوهرى : « أتتكرم ياسيدى بذكر اسمك ؟ »

ــ « أجل اسمى لنتان وانا موظف بوزارة الداخليـــة وقاطن فى المنزل رقم ١٦ شارع الشهداء »

وفتح التاجر دفاتره وقلب فيها ثم صدع بالقول :

« هذا العقد ارسل حقيقة الى عنوان مدام لنتان رقم ١٦ شارع الشهداء فى العشرين من يوليو سنة ١٨٧٦ »

وحدق الرجلان كل فى عينى صاحبه ، وقد طار لب الموظف من الدهش واستوحش التاجر من ناحيتـــه وتوسم فيه لصا وقال :

« هلا تكرمت بترك هذا الشىء اربعا وعشرين ســـاعة لا اكثر وانا معطيك عنه ايصالا »

فتمتم المسيو لنتان : « أي نعم يقينا »

وخرج وهو يطوى ورقة الايصال، وبضعها فى جيبه ثم عبر الشارع وأصعد فيه ثم ادرك أنه ضل الطريق فانحدر الى التويلرى وجاز السين ثم أدرك مرة اخرى ضلاله فعاد الى الشانزلزيه وليس فى راسه فكرة جلية ، وحاول أن يتعقل ويفهم ان امرأته ماكانت لتقدر على شراء شيء ذى قيمة كهذا .. كلا ، كلا ، اذن فهذا هدية . هدية .. هدية ممن ؟ ولماذا ؟

وتوقف الرجل وظل واقفا وسط الطريق وطاف به الشك الفظيع — هى ؟ — واذن فسائر الجواهر الاخرى كانت أيضا هدايا. وخيل اليه أن الارض تميد تحت قدميه وأن شجرة تهوى أمامه ، فمد ذراعيه وارتمى فاقد الحس

واستفاق من غشيته فى صيدلية حمله اليها بعض السابلة فاستقل عربة وأوى الى منزله

وجن الليل وهو يبكى بكاء الواله ويعض منديله حتى لا يسمع نشيجه ، ثم أوى الى الفراش مرهقا من التعب والحزن ونام نوما ثقيلا

وايقظه شعاع الشمس فقام فى تثاقل ليمضى الى وزارته . بيد انه يشق على المرء العمل بعد رجات عنيفه كهذه . فجزى فى خلده ان فى امكانه الاعتذار لدى رئيسه فكتب اليه . ثم تمثل له ان لابد من العودة الى الجوهرى فاستخزى وعلته حمرة الخجل وطال به التفكير. لايمكن بحال ان يدع العقد عند الرجل . فارتدى ثيابه وخرج

وكان اليوم صحوا رائقا والسماء الصافية ممدود رواقها على المدينة فاذا هى من البهجة كمن يهش ويبتسم . والمتنزهون من ذوى الفراغ ماضون سبهللا وأيديهم فى جيوبهم .

وحدث لنتان نفسه وهو يلحظهم يعبرون : « ماأسعد المرء ذى الغنى والثراء .. آه ليتنى كنت غنيا ! »

وأحس بالجوع . انه لم يذق طعاما الليلة البارحة .. ولكنه مفلس خالى الوفاض . فتذكر العقد . ثمانية عشر ألف فرنك انه لمبلغ وأى مبلغ

فصار الى شارع السلام وجعل يذرع الافريز طولا وعرضا تجاه الحانوت . ثمانية عشرة ألف فرنك . وهم بالدخول عشرين مرة فكان الخجل يمنعه

ولكنه كان جوعان جد جوعان ولا فلس معه

وحالما ابصره التاجر ، قدم له فى أدب مقعدا وهو يهش فى وجهه واقبل كتبة المحل انفسهم يلحظونه ومظاهر السرور فى عيونهم وشفاههم ..

وقال الجوهرى : « سيدى لقد استعلمت ، فاذا كنت على عزمك فانى على استعداد لدفع القيمة التى عرضتها عليك »

فغمغم الزوج : « اجل » ..

اخرج الصائغ من احد الادراج ثمانى عشرة ورقة كبيرة وعدها ومد يده بها الى لنتان فامضى بها ايصالا صغيرا وأودع المال فى جيبه بيد مرتجفة

وحين هم بالانصراف التفت الى التاجر الدائم الابتسام وتمتم خافض الصوت :

ـ « عندى جواهر اخرى .. جاءت .. عن طريق الميراث نفسه فهل يوافقك أن تشتريها منى كذلك ؟ »

فانحنى التاجر وقال : « نعم ياسيدى »

وخرج احد الكتبة ليضحك ماشاء ان يضحك واخذ اخر يسعل متعسفا اما لنتان فقال محمر الوجه متجلدا متوقرا : « سآتيك بها »

واستقل مركبة ومضى فى طلب الحلى . وبعدساعةعاد الى التاجر ولم يتناول بعد طعام فطوره وطفقا يفحصان الاشياء قطعة قطعة ويسومان كل واحدة وكان معظمها من المحل ..

وأخذ لنتان يساوم فى الاثمان ويتغضب ويطلب الاطلاع على دفاتر البيع وكان صوته يتعالى كلما ارتفع السعر .

فأقراط الماس الكبار بعشرين الف فرنك ، والاساور بخمسة وثلاثين ألفا ، والمشابك والخواتم والانواط بستة عشر الفا ، وحلية من الزمرد والياقوت الازرق بأربعة عشر الفا ، وفريدة من يتائم الدر منوطة بسلسلة ذهبية بأربعين ألفا . وتبلغ الجملة مائة وستة وثمانين آلف فرنك

وهنا قال التاجر فى بساطة ساخرة :

« هذا تراث من اودع فى المجوهرات كل ما اقتصد من مال » فرد لنتان فى وقار :

« ان هى الا وسيلة كغيرها من وجوه توظيف المال »

ثم انصرف بعد أن استقر رأيه مع الشارى على اجراء مراجعة أخرى من آل الخبرة فى الغد

فلما ان صار فى الطريق العام نظر الى عمود الفندوم وفى نفسه أن يتسلقه كأنه لعبة الصارى • والتفت فهفت نفسه الى ان يلعب القفز فوق تمثال الامبراطور القائم هناك فى الفضاء .

ومضى فتناول الغداء فى مطعم فوزان وشرب خمراً من التى ثمن زجاجتها عشرون فرنكا

ثم استقل عربة وطاف فى غاب بولونيا وكان يرمق المركبات ومن فيها بشىء من الزراية والاستخفاف وبه شوق جامح مستبد الى أن يهتف فى الرواد :« أنا أيضا

غني ، أنا غني ، اني أملك مائتى ألف فرنك ! »

ثم تذكر الوزارة فأشار للسائق أن يقصدها وعمد الى الرئيس معلنا :

« لقد أتيت يا سيدى مقدما اليك استقالتى لقد ورثت ثلثمائة ألف فرنك »

ومضي يصافح زملاءه السابقين ويفضى اليهم بما انتواه من حياة جديدة ، ثم تناول العشاء في المقهى الانجليزى

وهنا ألقى نفسه الى جانب سيد استوجهه فحكت في نفسه رغبة ملحة غلابة فاذا هو يفضى اليه فى دالة وخيلاء أنه ورث أربعمائة ألف فرنك ..

وللمرة الاولى فى حياته لم تسأم نفسه المسرح وقضى ليلته مع بنات الهوى

وبعد شهور ستة تزوج وكانت زوجه الثانية من الحرائر جد شريفة ولكنها كانت عسرة الخلق فلقى معها عنتا شديدا

العناصر "حياة كلب"

((لـ : ليونيد اندرييف))

ليس له صاحب ينتمى اليه ولا اسم يتسمى به ولا يدرى احد فى القرية اين يقضى الشتاء الطويل المتساقط الصقيع ولا كيف يجد قوته

وكانت كلاب المنازل تطرده من اكواخها الدافئة ، وهى وان تكن مثله جائعة الا انها معتزة شديدة البأس عليـــه لشعورها بالانتساب الى بيت من البيوت. واذا هو طلع الى قارعة الطريق العام بدافع من سعار الجوع او حاجة الطبع الى المعاشرة رجمه الصبيان بالحجارة وناوشـــوه بالعصى واعترضه الفتيان بالزياط والتهليل أو بالصفير الحـــاد يصك الآذان ، فينصلت يمرق من ناحية الى أخرى مضطرب الحواس من وهلة وذعر متعثرا بالاسوار وأرجل السابلة ويعدو مسرعا حتى اخر الطريق ، فيختبىء فى موضـــع لا يعرفه سواه . وهنا يلعق أعضاءه المرضوضة وجراحة ويحشد فى وحدته الهول والضغينة فى نفسه

لم يحدث قط أن أحدا رثى له ومسح عليه غير مـــــرة واحدة . وكان الماسح المشفق فلاحا ملمنا عائدا من الحانة وهو وقتئذ جائش العاطفة كعادة السكارى يحب كل الاشياء ويشفق على كل الاحياء ويغمغم كلاما عن أهل الخير ، ومبلغ ايمانه بأهل الخير ، ولقد اخذته الشفقة حتى على هذا الكلب المستقبح القدر الذى اتفق ان وقعت عليه

عينه السكرى التى تمشو الى غير وجهة وتتطلع من غير قصد . وناداه «ياكليب» وهو اسم يصح اطلاقه على عامة الكلاب ـ « يا كليب تعال لا تخف »

وكان كليب شديد الرغبة في أن يقبل عليه فجعل يبصبص بذنبه ولكنه كان حائرا فى أمره لا يستطيع امضاء نية والاجماع على عزم . وربت الفلاح بيده على ركبته وردد يطمئنه :

« هلم ، وبعد يا أبله ، والله لست بمؤذيك .»

وبينما الكلب المتردد يرعص ذنبه ارعاصا انشط حركة ومراحا ويقترب بخطوات متسحبة قصيرة ، اذا السكران قد تغير خاطره وتبدل مزاجه . لقد ذكر الساعة كل الشتم والهوان الذى ناله « من أهل الخير » فهاج هائجه وثارت به ضغينة بليدة ، فلما ان استلقى كليب عند قدميه متحببا متمرغا رفسه فى جنبه بمقدم حذائه رفسة المغلول وصاح به :

« اليك عنى ياقذر . فيم أنت آت ! »

وراح الكلب يئن دهشة وخزيا ، اكثرمنه ألما من الضرب ، ومضى السكران يترنح الى داره فأشبع زوجته ضربا مبرحا ومزق منديلا للعنق جديدا كان اشتراه لها هدية فى الاسبوع الغابر .

منذ ذلك الحين لم يعد الطلب يطمئن الى نية الراغبين فى ملاطفته والمسح عليه . فهو اما واضع ذيله بين ساقيه او هو متهيج فى بعض الاحيان حرد يتهجم عليهم محاولا عقرهم حتى يفلحوا فى طرده رميا بالحجارة وتلويحا بالعصى

ولقد انتبذ لنفسه مسكنا فى هذا الشتاء تحت شرفة واسعة من دار غير مسكونة لا حارس عليها يتعهدها ، فتولى هو حراستها بغير اجر . وكان اذا جن الليل هام فى

الطرقات يركض وينبح حتى يبح صــوته . ثم لا يزال بعد ان يأوى الى مثواه ويجثم فى عقره يزمجر ويزمجر برهةغير قصيرة ، زمجرة المحنق الغاضب، الاان وراءغضبه هذا يبين شيء من الرضى عن النفس بل الاعتزاز بالنفس

ودلفت ليالى الشتاء بطيئة والدار خاوية ونوافذها المظلمة شاخصة فى عبوس الى الحديقة الهامدة المسجاة بالثلوج.وفى هذه النوافذ كانت تشب أحيانا أنوار زرقاء واحيانا اخرى كان ينعكس على الواحها شهاب ســاقط أو يلقى عليها هلال السماء الاعجف شعاعه المتسلل المتعثر

واقبل الربيع واصبحت الدار الخاليةالصامتةمتجاوبة الاصداء بالكلام الصاخب وقعقعة العجلات ودبدبة أناس ينقلون اشياء ثقيلة . لقد قدم أصحاب الدار من المدينة، وهم رهط بأجمعه من المحبورين المفاريح من شتى الاعمار: مكتملين ومحتلمين وصبية . وكلهم ثمل بالهواء والــدفء والنور فالبعض هاتف متصايح ، والبعض رافع عقيرته بالغناء والبعض مستضحك بنغمته النسوية الرخيمة

وتعرف الكلب أول ما تعرف الى غادة مليحة انحدرت الى الحديقة فى ثوب قرنفلى من ثياب الطالبات منسجم الهندام ، وهى تائقة فى لهف وشغف الى ضم كل ما تراه واحتضانه . وكانت ترمق بمجامع نظرها السماء الصافية وافنان الكرز المشربة بالاحمرار . وسرعان ما استلقت على الحشائش ووجهها الى الشمس المتقدة . ثم عادت فنهضت بغتة مثلما رقدت واهتزت ارتياحا وطــربا ، وقبلت بشفتيها النديتين نســيم الربيع . وقالت ، وهى جادة تعنى كل حرف مما تقول :

« يالله ! انه لشيء بهيج »

قالت ذلك ثم أدارت ظهرها فجاة . وفى هذه اللحظة

كان الكلب قد اقترب منها من غير أن يحدث حسا ، وانشب للحال أنيابه فى ذيل ثوبها المرسل مهتاجا فمزقه، ثم غاب من غير حس كذلك فى ادغال الاعناب الكثيفة المتهدلة

فصرخت الفتاة : « آه ، بئس الكلب ! » وولت من الحديقة وظل صوتها المضطرب فترة طويلة يسمع وهى تردد : « يا أماه ! يا أولاد لا تذهبوا الى الحديقة : ان فيها كلبا ، وأى كلب ! هائل من الكلاب مفترس ! »

ولما ان دجا الليل تسلل الكلب الى الدار وقد نام أهلوها . وأوى دون أن يسمع له أحد ركزا الى مرقده تحت الشرفة الواسعة ، وباتت الدار ــ بعد أن كانت مهجورة صفصفا ــ يستروح منها المستروح وجود الناس ، ويسرى مع النسيم من نوافذها المفتوحة ترديد انفاسهم فى الرقاد ، هادئة رقيقة ، هؤلاء هم القوم نيام لا حول لهم ولا قدرة ، وقد خرجوا عما كان لهم من بطش وسطوة ، وهذا الكلب هنالك .. وقد اقام عليهم من نفسه بالليل حارسا شديد الغيرة ، فكان ينام واحدى عينيه صاحية ، وكلما اختلج فى الشجر حفيف أطل برأسه وعيناه شاخصتان لا تطرفان وفيهما بريق فسفورى . وكانت الاصداء المثيرة للمخاوف كثيرة فى هذه الليلة الجياشة الحساسة من ليالى الربيع . فهنا خشخش فى الحشائش شىء صغير غير منظور ، وهفا على مقربة من أنف الكلب اللامع . وهناك تقصفت بعض الافنان الجافة من العام الغابر تحت اقدام الطيور المهومة . وفى الطريق المجاور تدرج عربة ثم تصرصر عجلات نقل مثقلة موقرة . ولقد تضوع من كل فج فى الهواء الساجى شذا صمغ الصنوبر ارجا منعشا يستهوى السارى الى الايغال فى جنح هذا الليل الاضحيان

وكان أصحاب الدار القادمون ، من أهـل المعروف والخير ، فكيف بهم الآن وهم عن المدن بعيدون ينشقون نقى الهواء ، وحيثما ولوا بصرهم يبصرون خضرة ناضرة وزرقة صافية وأمانا شاملا . يدب فيهم شعاع الشمس دفئا وحرارة ، ثم يصدر عنهم مرحا واريحية وعطفا على كل شيء حى . ولقد أرادوا فى باديء الامر طرد الكلب خشية أذاه ، بل أطلقوا النار عليه من مسدس حين عيل صبرهم وضاق ذرعهم به وهو مصر على البقـــــاء يأبى النزوح . غير انهم بعد ذلك ألفوا نباحه فى الليل . بل انقلبوا يذكرونه فى الصباح أحيانا متسائلين « ولكن ، أين صاحبنا العضاض ؟ »

ولصق به هذا اللقب الجديد وصارت تقع أبصارهم فى بعض الاحيان حتى بالنهار بين الشجيرات المتواشجة على خياله المتوارى ، ولكنه سرعان ما كان ينبطح على الارض اذا ما بدت حركة من يد أحدهم يرمى اليه بكسرة من الخبز ــ كأنها حجر يرمى به لا خبز ــ ولم يعتم القوم ان ألفوا العضاض كبيرهم وصغيرهم ، وصاروا يلقبونه « كلبنا » ويتفكهون بالنوادر يرتجلونها عن سبب أجفاله وخوفه من غير ما موجب . على أن العضاض أخذ يقتضب كل يوم خطوة بعد خطوة من الشقة التى تباعد بينه وبينهم ، وقد أنس الى مطالع وجوههم واصطنع عاداتهم . فكان اذا أزفت ساعة الغداء شوهد واقفا بين الشـجيرات يطرف بجفنيه وعليه سيماء المسالمة والسماح . وكانت الفتاة التلميذة هى نفسها التى سكنت من روع الكـــلب وطامنت من نفوره متناسية سابق عدوانه ، وهى التى أدخلته اخر الامر فى هذا الوسط السعيد بين قـــــومها الوادعين الطروبين ..

فكانت تناديه : « تعال هنا ، يا عضاض ، أيها الكلب

الطيب ، تعال . أتحب السكر ؟ انى معطيتك قطعة . هلم اذن »

وكان العضاض محجما عن التقدم . هو خائف يتوجس . فتربت الفتاة على ركبتها ، وتدنو من الكلب وهى تناغيه بكل ما فى الصوت الحلو والوجه المليح من حنان ولطف . على انها هى أيضا كانت خائفة . ولقد هم الكلب بالعض فجأة ، ولكنها لم تكن تكف عن منادأته وتأنيسه :

« انى بك جد مشغوفة يا عضاض ، يا عزيزى ما أبدع انفك الصغير ، وما ابلغ معنى عينيك . الا تطمئن الى ، يا جنس العضاضين ؟ »

ورفعت « ليليا » حاجبيها . وكان أنفها الدقيق غاية فى الحسن وعيناها غاية فى حلاوة المعنى ، حتى لقد أنصفت الشمس اذ أكبت على وجهها الصغير الغض الفزير المحاسن تغشاه بالقبل الحرار حتى توهجت وجنتاها

واستلقى العضاض على ظهره للمرة الثانية فى حياته وأطبق جفنيه وهو لا يدرى على وجه التحقيق ان كان نصيبه ركلة زاجرة أو مسحة عاطفة ملاطفة . ولكن المسح كان فى هذه المرة نصيبه . فان كفين رخصتين صغيرتين لمستا فى حذر وتردد هامته الكثيفة الوبر . وكأنما كان هذا ايذانا بما أصبح لها عليه من سلطان غير منكور ، فهى قد مضت تجرى راحتيها فى طلاقة واجتراء على سائر جسمه الاشعر دعكا ومسحا وتجميشا

وصاحت ليليا : « ياأماه ، يا أولاد ، تعالوا انظروا ، هاأنذى أمسح بيدى على العضاض »

واقبل الاولاد راكضين ، متصايحين ، عالية اصواتهم ، وهم فى توفزهم ولألائهم كأنهم قطرات الزئبق الرجراج .

فقبع العضاض مكانه فى خشية المذعور وانتظار المستسلم، علما منه بانه لو ضربه أحدهم الآن لما استطاع وهو على هذه الحال أن ينشب فى لحم المسىء انيابه المطرورة ، لقد استلت الفتاة غله المشبوب الدفين. ولما أن جعلوا أجمعين يتسابقون الى مداعبته وملاطفته ، لبث زمنا لا يتمالك نفسه من الانتفاض لكل لمسة من أكف ملاطفيه ، ويجد لهذا التجميش الذى لم يسبق له به عهد مسا موجعا كأنه وقع الضرب

***

وانبسطت من « العضاض » نفسه الكلبية كلها . فقد اصبح له الآن اسم يقبل عند سماعه مندفعا من أقصى خمائل الحديقة . وهو الآن ينتمى الى ناس ويقوم على خدمتهم . وماذا يحتاجه الكلب اكثر من هذا ليكون سعيدا!

وكان قد تعود القصد والقناعة بما أخذته به سنوات الجوع والتشرد ، فهو بعد قليل الاكل ، ولكن هذا القليل أبدله حتى لتتعذر معرفته على عارفيه . فهذا رداء فروته سابغ طويل ، وقد كان من قبل خصلات كزة متهدلة كشعر الثعلب على ظهره وفوق بطنه . وكانت على الدوام يعلوها الطين فأصبحت اليوم نظيفة ملساء كالقطيفة . ثم هو اليوم اذا هرول الى الباب الكبير — ولم يكن له ما يفعل خيرا من هذا — فوقف هنالك بالوصيد متطلعا يصعد نظره الى الطريق ويصوبه وعليه سيماء الوقار ، لم يقم بخاطر أحد أن يعاكسه أو يحصبه بحجر ..

ولكن هذا الاعتزاز وهذه الدعة كان لا يتملى بهما الا فيما بينه وبين نفسه . وذلك ان خوفه لما يتبخر كله من حرارة الملاطفة . فكلما طلع أناس أو دنوا منه اختفى متوقعا منهم الضرب والاذى . وما برحت بعد طول المدة

تقع عنده كل ملاطفة موقع المفـــاجأة والعجب بحيث لا يستطيع فهمها ولا مجاوبتها ، انه لا يدرى كيف يتلقى الملاطفة . ان غيره من الكلاب ليقف على رجليه الخلفيتين ويتمشى قائما ، بل ويبتسم مترجما بذلك عن مشاعره ، أما هو فلا يدرى الى ذلك سبيلا

والشيء الوحيد الذى يستطيعه « العضاض » هو أن يتقلب على ظهره ويطبق جفنيه ويسمع له هرير رفيق .

غير ان هذا لم يكن كافيا .. انه لا يفى بالاعراب عن ابتهاجه وشكره ومحبته . فاذا به يصنع شيئا كانه الهام ألقى عليه وفتح به عليه ، ولعله رأى بعض الكلاب تصنعه ثم نسيه منذ ذلك الحين . فكان يثب منقلبا فى الهواء المرة بعد الاخرى فى سخافة وربكة ، أو هو يدور وراء ذيله . ولم يكن جسمه كالعهد به على الدوام ناشط الحركة لين الاعطاف ، فلقـــد أصـــبح أخشب متيبس الاوصال وصار لعبه مثارا للضحك ومدعاة للزراية

فلا غرو تهتف ليليا وهى تشهق بالضحك :

« يا أماه ! يا أولاد ! انظروا ، العضاض يلعب لعب المسارح. هيه ياعضاض !اعد مرة اخرى ومرة اخرى. هوذلك

فيجتمعون حوله يضحكون . والعضاض دائب على دورانه وراء ذيله ، وعلى انقلابه فى الهواء ووقوعه . والكل لاهون لا يلتفتون الى ما فى عينيه من توسل عجيب . لقد كانوا من قبل يصـــيحون به ويزعقون لينظروا قرفه وخرفه اليائس ، وهم اليوم يلاطفونه متعمدين ليثيروا فيه فورة الحب المضحكة فى مظاهرها السخية الخرقاء . وما كانت تمضى ساعة الا ويهتف أحد الفتيان :

« والآن يا عزيزى العضاض ، العب لعب المسارح »

فيتلوى العضاض حول نفسه ويثب منقلبا فى الهواء

ويقع بين الطـرب والضحك الذى لا يغـالب . وكانوا يمتدحونه فى وجهه ومن وراء ظهره ولا يأسفون الا على شيء واحد ، وهو انه لا يعرض ألاعيبه على الغرباء القادمين لزيارة أهـل المنزل ، بل ينفلت لفـوره الى الحـديقة ويختبىء تحت الشرفة

ولم يلبث العضاض ان تعود شيئا فشيئا أن يعفى نفسه من تكلف الطلب لطعامه ، اذ كان الطباخ يوافيه فى الوقت المقرر بالفضلات والعظـام وهو راقـد فى دعة وطمأنينة فى مكانه تحت الشرفة . بل كان القوم هم الذين ينشدونه ويسعون اليه لكى يلاطفوه . ولقد اكتنز لحمه وثقل ، فلم يكن يبرح الدار الا فى القليل النادر . وكان اذا دمته الصبية للذهاب معهم الى الغابة يرعص بذيله مراوغا ويغيب عن العيان ، فأما نباحه فى الليل فقد ظل كعهده يقظا جهيرا

***

واخذ الخريف يشيع فى الشجـــر الوانه المشبـوبة المصفرة ، وطفقت السماء تبكى بوابل منهمر . فاذا المرابع تقفز من الناس وتهمد حركتها كأنها الشموع ألح عليها القطر الهاطل والريح الهوجاء فأخمداها الواحدة بعد الاخرى ..

وتســاءلت ليليــا حائرة : « ماذا نحن صــانعون بالعضاض » . وكانت جالسة وذراعاها معقودتان حول ركبتيها تتطلع الى خارج النـافذة حزينة والمطـر يسح ملتمع القطر ..

فقالت أمها : « اية جلسة تجلسينها يا ليليا ! ما هكذا يكون الجلوس » ثم اردفت : « لا مندوحـــة من ترك العضاض . مسكين ! »

فقالت ليليا فى بطء وأناة : «شيء ... يؤسف له »
وراجعتها الام : « ولـكن ما العمل ؟ لا فنـاء فى دارنا بالمدينة . وبقاؤه فى داخلها غير ممكن . هذا الامر يجب أن تفهميه جيداً »

فردت ليليا وهى تكاد تجهش بالبكاء : « انه شيء ... يؤسف له . واخسارتاه ! » ثم ارتفع حاجباها الفاحمان كأنهما جناحا غداف ، وتقلص أنفها الصغير اللطيف بهيئة أسيفة ، حين قالت أمها مواسية :

« لقد عرض على الكلابون جروا منذ حين ، وهم يقولون انه أصيل الوف للبيوت .. أفهمت ؟ ما هذا فكلب أفنية وأحواش »

فردت ليليا : «واخسارتاه» ولكنها ظلت حابسة دمعها

ووفـدت عـلى البيت مرة أخـرى وجـوه غريبة ، وصرصرت عربات النقل ، وأطت أرض الغرف الخشبية تحت وقع أقدام ثقيلة ــ ولكن الكلام كان قليلا هذه المرة ولا ضحك البتة . واجفل العضاض من هؤلاء الاغراب ، وتوجس فى نفسه شرا وتولى الى أقصى الحديقة ، وجعل يمد بصره من هناك خلال الافنان المتصوحة الناحلة ، الى هذا الركن من الشرفة المنكشف لناظره يرمق الاشخاص ذوى القمصان الحمراء يذهبون ويجيئون فوقها

واذا بليليا تهتف وقد خرجت من الدار : « انت هنا ، يا عضاضى المسكين ! » وكانت متجهزة للرحيل مرتدية سترة سوداء على ثوبها القرنفلى الذى سبق للعضاض ان مزق من ذيله مزقة : « تعال ! »

وخرج الاثنان الى الطريق . وظل المطر متقطعا يهمى ويحتبس . والفضاء ما بين السماء والارض المستوحلة متلبد بالسحب السارية المتدافعة . وان المتطلع اليها لا

يخطىء غلظها وتراكبها ، فهى لكثرة امتلائها بالماء مطبقة لا يرى فيها خلل ولا فتق يذر منه قرص الشمس ، بل الشمس منها وراء سد منيع

وكانت تنبسط الى يسار الطريق حقول داكنة لا زرع فيها الا بقايا الحصاد وأعقاب العيدان ، ولا يقع النظر الا على أشجار وشجيرات قصار غير متساوية فى بقاع متفرقة عند الافق القريب المتوائى بربواته المتطامنة وكثبانه المتعرجة . والى الامام على مسافة غير بعيدة يقع حد القرية ويقوم بابها ، وثمة الى جانبه حانوت خمار سقفه الاحمر من حديد ، وعنده رهط من الناس يعاكسون « يوشع » مخبول القرية

ويقول المخبول بصوت أخن وهو يمط كلامه : « اعطونا درهما » فتجاوبه أصوات شاغبة هازئة فى نفس واحد : « هلا احتطبت لنا خشبا ؟ »

***

فيقذفهم «يوشع» بالسباب مقذعا مستهترا ، فترتفع من هؤلاء قهقهة فيها صخب بغير سرور ..

ونفذ من الغيم المطبق شعاع من الشمس أصفر سقيم حتى كأن الشمس أدنفها داء عياء لا يرجى منه شفاء ، واتسعت مع الضوء رقعة النظر فى هذه المشاهد من الخريف المدجن ، وزادت مجاليه وحشة على وحشة

وجرت على شفتى ليليا كالعذب السلسال هذه الكلمات : « انى آسفة يا عضاض ! » ثم مضت لاحقة بذويها لا تلوى على شىء ، ولم تذكر الا وهى تستقل القطار انها لم تودع العضاض

واما العضاض فما زال يجرى فى اثر الظاعنين حتى المحطة ، ثم قفل راجعا الى البيت الخاوى مبتلا موحلا ، وهنا قام بلعبة أخرى جديدة ، ولكنها ما لها من شاهد ،

فهذا هو للمرة الاولى يمشي الى الشرفة ويقف على رجليه الخلفيتين ، ويتطلع الى داخلها من الباب الزجاجي ، بل يخمشه باظافره طلبا لفتحه ولكن الغرف كلها خاوية ولا من مجيب ..

وانهمر المطر كأفواه القرب ، واخذ ليل الخريف الطويل يقبل من جميع الارجاء مخيما مرخيا سدوله فامتلأ البيت الخاوي القفر بعتمته المعجلة الثقيلة الظل . وكان الظلام كأنما ينساب من الشجيرات ويفيض مع المطر من السماء المتجهمة . وكانت الشرفة بعد اذ نزعوا عنها الظلة ، تبدو فلاة بلقعا من معامي الارض ومجاهلها . ولقد كان النهار والظلمة فوقها وقتئذ مشتبكين في صراع طال برهة ، وظهرت في غبشه الكابي آثار الاقدام في الوحل محزنة مشجية . ثم سرعان ما غلب النهار على أمره وخيم الليل ..

ولما لم يبق من شك في ان الليل قد أناخ والقى بجرانه، أخذ الكلب ينبح ويردد النباح مثل النواح ، وكان نباحه الجهير الحاد كاليأس يتخلل صوت الوبل في انهماره الرتيب الملح الكئيب ، فيشق الظلام وتحمل الريح أصداءه المضمحلة الى الحقول الجرداء المحلولكة

وظل الكلب ينبح ــ دائبا ، ملحا ، مستيئسا ، صابرا ــ وانه ليخيل الى الساري الذي يسمع في الليل نباحه ان الليل الحالك نفسه هو الذي يئن ويحن الى النهار ، ويود الساري لو انه قبع في داره بقرب زوجته يصطليان دفء الموقد ..

وظل الكلب ينبح .. !

القبلة

« لأنطون تشيكوف »

فى مساء اليوم العشرين من مايو فى الساعة الثامنة كانت ست مدفعيات من فرقة المدفعية حرف « ن » فى طريقها الى المعسكر فنزلت فى بلدة ميستشكى على نية قضاء الليلة ..

وكان الهرج على أشده . فبعض الضباط لهم حول المدافع حركة وجلبة ، والآخرون فى الساحة الواقعة امام الكنيسة يتذاكرون مع كبيرهم . واذا براكب مقبل من وراء الكنيسة على صهوة طرف من الجياد الاصيلة . واقترب الفرس كميت اللون مضمر البطن ممشوقا مقصوص شعر الذيل أجيد عريض اللبان، يخطر فى مشيته، هزجا يترقص طوال الوقت ولا تستقر قوائمه كأنما تمس الرمضاء حوافره . ولما بلغ الراكب الى محاذاة الضباط جذب اللجام ورفع قبعته محييا وقال فى لهجة رسمية :

« الجنرال فون رابك ـ وداره هنا عن كثب ـ يتشرف بدعوة حضرات الضباط للشاى .. »

وهز الجواد رأسه ، وترقص ثم تمايل متراجعا . ورفع الراكب قبعته مرة أخرى وأدار عنان جواده العجيب ، وغاب وراء الكنيسة

فتردد على السن الضباط وهم يدلفون متفرقين الى المحلة « سحقا لها من دعوة . هذا النعاس يثقل اجفاننا

فيأتينا من يدعى فون رابك بشايه . وبئس الشاى . »

ان ضباط المدفعيات الست لا يزال يعلق بأدهانهم ويتمثل لعيانهم ذكرى دعوة سابقة . فقد اتفق فى أثنــاء بعض المناورات الاخيرة ان دعوا مع زملاء لهم من الموارق الى الشاى فى دار سيد من ساده الريف وهو ضابط قديم متقاعد يحمل لقب الكونت . فلقد بالغ فى اكرامهم هذا الكونت الكريم الوفادة الاريحى النفس ، فأطعمهم حتى الشبع ، وسقاهم من الفودكا حتى الرى واستبقاهم للمبيت . ولقد طاب لهم هذا كله والتذوه . ما فى ذلك ريب . ولكن الجندى القديم الى جانب مبالغته فى اكرامهم قد بالغ ايضا فى منادمتهم واطال سمرهم ــ وهنا الخطب . فلم يزل بهم حتى السحر يهضب ويسح بما كان من أخبار ووقائع ويجرهم من غرفة الى أخــرى ليظهرهم على صور نفيسة ونقوش قديمة وسلاح نادر المثــال ، جميعهم قد استولى عليهم التعب وأخذ الملل بمخنقهــم وهم يستمعون ويفغرون أفواههم وكلهم حنين الى الفراش يتثاءبون فى اكمامهم . حتى اذا اذن صاحب البيت وخلى عنهم كان قد انقضى وقت النوم

أيكون فون رابك كونتا آخر من الضباط المتقاعدين ؟ جائز جدا . ولكنه لم يكن من سبيل الى التخلف عن دعوته فاغتسل الضباط وارتدوا ثيابهم وخرجوا ييممون دار فون رابك . واستخبروا عنها فى ساحة الكنيســة ، فقيل لهم ان يهبطوا الربوة الى النهر ، ويسيروا والشاطىء حتى يوافوا حدائق الجنرال ، فيجدوا ممرا يؤدى سويا الى الدار . والا فان شاءوا أن يرتقوا الربوة فانهم يوافون بيادر الغلة الملحقة بدار الجنرال على مسيرة ثلثى الميل من البلدة وقد آثروا هذه الطريق

وتساءل أحدهم :

« ولكن من يكون فون رابك هذا ؟ أهو الذى كان قائداً لفرقة الفرسان حرف « ن » فى موقعة بليفنا ؟ »

ـ كلا لم يكن فون رابك وانما كان « راب » أى التسمية وحدها عاطلة من لقب الشرف

ـ ما أبدع الجو هذه الليلة

وحين وردوا اول البيادر اذا هم بمفـــرق طريقين أحدهما ذاهب قدما حتى يغيب فى ظلمة الغسق والآخر عارج الى اليمين يفضى الى دار الجنرال • وكان الضباط كلما دنوا منها يخافون من جلبة كلامهم • وكانت تمتد على الجانبين صفوف بيادر الغلة حمر الســقوف مبنية من الاجر ، ولها طلعة ثقيلة متجهمة كهيئة الثكنات فى بلاد الريف • وامام أعينهم تلتمع الانوار فى نوافذ دار فون رابك ••

وصاح أحد الشبان الضباط :

ـ بشرى ايها السادة هذا كلبنا الصياد ســابق فى الطليعة فنحن لا شك مقبلون على صيد

والكلب الصياد الذى يعنونه بكلامهم هو الملازم لوبتكر وكان طويل القامة بدينا أمرد الوجه اجرده ولم يطر له شارب ولم يخضر له عذار مع انه بلغ الخامسة والعشرين وقد اشتهر بين رفاقه بأنه يتنسم ريح النساء ويخبر عن قربهن بقوة سليقة فيه والهام غريزة • والتفت الملازم الى رفاقه حين سمع اشارتهم وقال :

ـ أجل ، نفسى تحدثنى ان هناك نساء ••

وعند باب الردهة طلع عليهم رجل وسيم الطلعة مدخر القوة فى الستين من عمره هو فون رابك فى غير ثوبه العسكرى وقد تقدم يستقبل مدعويه • وكان وهو يشد

على أيديهم يعتذر بانه على شدة سروره بهم لا يحتجزهم للمبيت فان عنـــده من الاضـــياف شقيقتيه وأولادهما وشقيقه ونفرا من اهل جيرته ــ وانه فى الواقع لم تبق غرفة خالية . على انه مع هذا الترحيب والاكثار من المعاذير واظهار التهلل والبشاشة فالواضح البديهى انه انمـــا دعاهم لان مراسم الادب تقضى بذلك . وصـــعد الضابط الدرج المفروش بالطنـــافس وقـــد سمعوا الى مضيفهم وادركوا الامر كل ادراكه وتمثل لهم ما هم مدخلوه على جو هذه الدار من شعور بالتهجم والازعاج وساءل كل نفسه أيكون فى وسع رجل جمع شقيقتيه وأولادهما وشقيقه وأهل جيرته ليحتفلوا ولا ريب بعيد عائلى ان يرتاح وينبسط لهجمة تسعة عشر ضابطا لم يسبق له قط رؤيتهم ؟

وعند باب قاعة الاستقبال وقفت تحييهم سيدة كبيرة السن مديدة الشطاط حسنة الصورة وجهها أميل الى الطول ، سوداء الحاجبين ، شديدة الشبه بالامبراطورة السابقة أوجينى . وكانت تهش لهم فى تادب ووقار وهى تؤكد لهم سرورها بهم وتأسف على اشتغال المكان عن مبيتهم ، ولكن الابتسامة المتأدبة الوقور غابت حين ولت منصرفة . وكان ظاهرا جليا أنها رأت ضباطا كثيرين فى سالف أيامها فليس لهم بعد فى عينها أدنى طرافة

وكان يجلس فى حجرة المائدة الفسيحة الى خوان ممدود عشرة من الرجال والنساء يشربون الشـــاى . وخلفهم وراء حجاب من دخان السيجار نفر من الشبان يلفطون بالحديث وبينهم شاب أصهب الشاربين مفرط النحافة يتكلم الانجليزية عالى الصوت وفى منطقه لثغة . وامتد نظر الضباط عبر باب مفتوح فاذا قاعة ساطعة

الانوار مكسوة الجدران بالورق الازرق

وقال الجنرال بصوت جهير وهو يتكلف الجذل والحبور :

« أنتم أيها السادة كثيرون يتعذر تعريفكم فردا فردا ، فلتعرفوا أنفسكم بعضكم الى بعض أرجوكم من غير تكلف مراسم »

فانحنى الزوار تحية وعلى وجوه البعض مسحة الجد بل التزمت والبعض الآخر يبتسمون ابتسامة فاترة مفتصبة وبالجملة كانوا كلهم فى حال من الارتباك والضيق وأخذوا مجالسهم الى المائدة وكان أشدهم شعورا بالربكة والضيق الكابتن ريابوفتش وهو ضابط ضئيل الجسم أفك المنكبين ذو عوينات وله شارب كشارب القطالبرى . واذا كان اخوانه الضباط تبدو عليهم سيماء الجد أو الابتسام المفتعل فلقد كانت سحنته وشاربه الذى يحكى شارب الهر وعويناته جميعا كأنما تقول : « أنا بين ضباط الفرقة أجمعين أشدهم استحياء واستخذاء وتفاهة » . وقد ظل طويلا بعد جلوسه الى المائدة لا يملك حصر وعيه فى شىء واحد . فالوجوه والملابس وقنانى الخمر المضلعة وأقداح الشاى الداخنة وزخارف البناء البارزة — هذه كلها كانت مختلطة فى احساس واحد يغمره ويستبد به فتغشاه منه روعة شديدة ويجعله يود لو حجب وجهه واغمض عينيه فهو هنا فى مثل موقف المحاضر للمرة الاولى فى حياته ، فهو يرى الاشياء ولا يحقق منها شيئا حتى ليصح القول انه قد اعتراه ما يسميه رجال الطب فى تشخيصهم « بالعمى الباطنى »

ولكنه أخذ يتغلب بعض الشىء على انكماشه واستخذائه فيستوضح الاشياء ويرقبها . وكان أول مااسترعى نظره

ــ شأن المنقبض عن الناس الخجول ــ هو تلك الجـراة المدهشة التى يبديها معارفه الجدد . فهذا فون رابك رعقيلته وسيدتان كبيرتان وفتاة فى ثوب بنفسجى وذلك الفتى الاصهب الشارب ، ولعله من فتيان آل فون رابك وقد جلسوا الى الضبـــاط الغرباء دون تكلف كأنهم قد استعدوا للحفل كالممثلين بالمرانة على الحركة والالقاء وسرعان ما خاضوا فى أحاديث حامية منوعة لم يلبثوا ان جروا اليها الضباط . فرجال المدفعية أسعد حالا من الفرسان ومن المشاة فيما تقرره ذات الثوب البنفسجى ويعارضها فى ذلك فون رابك والسيدتان الكبيرتان . وقد استحر النقاش من غير استقراء واطراد سياق . وكان ريابوفتش يستمع الى الفادة ذات الثوب البنفسجى وهى تستمر فى المناظرة والجدال فى موضوع لا علم لها به ولا تدرى ما هو ولا أمره ، وقد جعل يرقب الابتسام يظهر ويختفى فى اسارير وجهها .

وكان آل فون رابك ــ الى جـــانب براعتهم فى جر ضيوفهم الى النقاش والمساجلة ــ يرقبون كل فم وكل قدح . هل تناول الشاى كل مدعو ، وهل كانت حلاوته كافية . ولماذا لم يمد هذا يده الى الكعك . وذاك هل تراه أميل الى الكونياك ؟ وكان ريابوفتش كلما أصغى لهم وتطلع نحوهم زاد اعجابه بهذه الاسرة المصانعة التامة الدربة ..

وانتقل الضيوف بعد الشاى الى قاعة الاستقبال . أى والله ان غريزة لوبتكو لم تكذبه فقد كانت الحجرة غاصة بالغوانى والفتيات . ولم تمض دقيقة حتى كان « كلب الصيد » الضابط الى جانب فتاة فى ميعة الصبا شقراء الشعر فى ثوب أسود وهو ينادمها ماثلا فى وقفته كأنه مستند الى سيف غير منظور يهز كتفيه فى تظرف وعجب

ولا ريب فى أنه كان يلغو بكلام لاظل فيه للطرافة والايناس فان الفتاة الشقراء كانت ترنو الى وجهه المفتر الراضى بنظرة المسامح المتغاضى ، وكانت لاتزيد على أن تردد فى فتور « حقا » وكان فى « حقا » هذه الفاترة ما هو حقيق بأن يقنع كلب الصيد على الفور بأنه أخطأ الطريق وضـــل الاثر ..

وبدأت الموسيقى . وكانت نغمات مقطوعة الرقص الشجية تطفر الى خارج النافذة المفتوحة فاذا القوم يحسون بأن خارج النافذة ربيعا فى ابانه وأن الليلة من ليالى آيار . وكان الهواء عطرا يعبق برائحة أوراق شجر الحور والورود والبنفسج وكان كل من نغم الرقص والربيع صادقا خالصا. ودارت فى رأس ريابوفتش نشوة الكونياك مشعشـــعة بموسيقى الرقص فشخص بطرفه الى ناحية النافذة وعلى وجهه ابتسامة ثم جعل يتتبع حركات النساء وخيل اليه أن شذا الورود والحور والبنفسج لا يتضوع من الحدائق فى الخارج بل من وجوه أولئك الغوانى الناضرة وابرادهن الموشاة ..

وأخذ الرجال والنساء يرقصون . وقد دار فون رابك الشاب دورتين حول الغرفة مراقصا لفتاة شديدة النحول. وخف الضابط لوبتكو على خشب الغرفة الاملس الملمع وأقبل على الحسناء ذات الثوب البنفسجى فســمحت له برقصة . أما ريابوفتش فظل مع غير المراقصين واقفــا بجانب الباب ساكنا شاخص البصر . وكان دهشـــا لا تنقضى له دهشة من جرأة الرجال يخاصرون على مرأى الناس نساء لا يعرفونهن وحاول أن يتصــور أنه يصنع صنيعهم ولكنه كان يحاول عبثا . ولقد أتى عليه حين كان يحسد رفاقه على شجاعتهم واقتحامهم ويألم من دوام مراجعته

لنفسه ويحز في قلبه علمه أنه خجول ، أفك الكتفين • ليست له شارة من وجاهة وان شاربه كشارب الهر .

وانه لم يختص بالنحول خصره بل هو جميعه خصر مفرط الحول مديد • غير أنه على تطاول السنين رضي بتفاهة حظه واطمأن الى خفاء شأنه . فهو ينظر الآن الى الراقصين واللاغطين بشعور حزين دون أن ينطوى لهم على حسد ••

ولعبت الموسيقى توقيعا آخر للرقص ، وقدم الشاب فون رابك بعد المطلع الى ضابطين من غير الراقصين ودعاهما الى شوط بليارد وغادر ثلاثتهم القاعة • ولما كان ريابوفتش واقفا خامل الوقفة لا يأتى عملا فقد أحس بضرورة الحركة مع من يتحركون فخرج فى أثرهم واجتازوا حجرة المائدة ومروا بدهليز ضيق الجناب ممر الارض ثم بغرفة كان فيها ثلاثة من الخدم ناعسون على أريكة فوثبوا متفززين ، وبعد أن جاسوا — فيما خيل اليهم — جميع غرف القصر دخلوا حجرة للبليارد صغيرة •

وهنا أخذ فون رابك والضابطان فى اللعب • وجاء ريابوفتش — وكان لا يعرف الا لعبة الورق — فوقف الى المنضدة ينظر الى لعبهم الذى لا يدركه ، فى غير اقبال ولا احتفال • واللاعبون قد حلوا أزرار معاطفهم وجعلوا يلعبون بمضارب البليارد ، ويصولون ويجولون مازحين هاتفين بمصطلحات غامضة . ولقد تجاهل الجميع ريابوفتش ، الا حين يصطدم به لاعب منهم أو يلمسه مضربه فكان يلتفت اليه ويقول قولة موجزة « لامؤاخذة » ولم يمكث ريابوفتش حتى ينتهى اللعب فقد تملكه الضجر وثقل عليه الاحساس بفضول وجوده فى هذا الموضع وقلة لزومه ، فصحت نيته على الرجوع الى حجرة الاستقبال

فتحول وانصرف ..

وفى أثناء رجوعه وقعت له واقعته وما أدراك ماهى، ذلك انه لم يذهب بعيدا حتى تبين له أنه قد ضل الطريق فهو يذكر على وجه التحقيق الغرفة التى بها الخدم الثلاثة المهومون ، فلما أن مر بحجرات خمس أو ست ليس بها أحد بان له غلطه . فعاد أدراجه ثم عرج على يساره فاذا هو فى غرفة تسودها ظلمة ولم يسبق له أن مر بها ، فتردد لحظة ثم تقدم فى جرأة الى أول باب وجده ففتحه فاذا به يجد نفسه فى ظلام دامس ، وكان بصيص نور يتطرق من خلل باب فى الطرف الاخر من تلك القاعة وصوت الموسيقى من بعيد يخفق مخفوت الصدى بنغمة رقص شجية . وكانت النوافذ كنوافذ قاعة الإستقبال مفتوحة على مصراعيها وشذا الحور والبنفسج والورد يفيض على الهواء .

ووقف ريابوفتش متحيرا لايدرى ما يفعل . وظل السكون مخيما على المكان برهة ، واذا بوقع قدم متعجلة ، ومن حيث لا يحتسب ــ حف ثوب حريرى وهمس صوت ناعم مبهور الانفاس يقول : «وأخيرا» . وطوقت جيده ذراعان ناعمتان معطرتان هما حتما ذراعا امرأة ، وأحس خدا دفيئا يلتصق بخده ثم قبلة رنانة ، على أن القبلة ماكادت ترن فى السكون المخيم حتى صرخت السيدة المجهولة صرخة عالية وولت ــ كما خيــــــل الى ريابوفتش ــ مشمئزة نافرة . وكاد ريابوفتش نفسه يصرخ ثم هرع لا يلوى على شىء . ولما أن دخل قاعة الاستقبال كان قلبه يدق دقا شديدا ، ويداه ترتجفان ارتجافا ظاهرا جعله يشابكهما وراء ظهره . وكان أول ما ملكه من الشعور الخجل كأنما كل واحد فى القاعة قد عرف ما جرى له توا من العناق والتقبيل . فقبع فى جلده وجعل يتلفت وجلا ، فلما آنس أن أصحــاب الدار

والضيوف على حالهم من الاطمئنان يرقصون ويسمرزن تشجع وأسلم نفسه لاحاسيس يبلوها للمرة الاولى فى حياته • لقد وقع ما لا عهد له بمثله • وانه ليحس أن عنقه الذى طوقته ذراعان ناعمتان معطرتان منذ هنيهة رطب ندى كالممسوح بالزيت ، وعلى خده عند شاربه الايسرحيث موقع القبلة يتنمل برد خفيف لذيذ كلذع قرص النعناع وهو من فرعه الى قدمه فى غمرة من أحاسيس جديدة عجيبة ما تزال تشتد وتزيد •

وشعر بأن لابد له من أن يرقص ويسمر ويكر الى الحديقة ويضحك ما شاء من غير حرج•ونسى النسيان كله انه افك الكتفين لا ميسم له ولا جهارة ذو شارب مثلشارب الهر ، وبالجملة انه غفل الهيئة..على حد وصف له جرى يوما على لسان احدىالسيدات فسمعه عرضا واتفاقا ومرت مدام فون رابك فابتسم لها ملء شدقيه متلطفا غاية اللطافة • فأقبلت عليه ونظرت اليه متسائلة فقال وهو يصلح عويناته : « ما أبدع دارك » •

فردت مدام فونرابك على ابتسامته بمثلها وقالت: ان الدار لا تزال ملكا لوالدها . وسألتهعما اذا كان أبواه على قيد الحياة وكم مضى عليه فى الجيش وما السبب فى هزاله • وانصرفت بعد سماعها الى أجوبته • على أنه مع انتهاء الحديث وانصرافها ظل يبتسم ابتسامة الرضى ويتأمل مبلغ لطف القوم من معارفه الجدد •

وفى العشاء كان ريابوفتش يأكل ويشرب فى حركة آلية ما يوضع أمامه ولا يسمع حرفا من الحديث الدائر حوله منصرفا بكليته الى حل ألغاز واقعته الروائية الغامضة • ماذا عسى يكون تفسيرها ؟ أن الامر فيما يراه بديهى لايعدو أن أحدى الفتيات تواعدت وحبيبها على اللقاء فى الغرفة

المظلمة وبعد أن انتظرت برهة على غير جدوى صارت من الاضطراب وجهد الاعصاب بحيث التبس عليها ريابوفتش بحبيبها المنتظر ويشفع لخطئها أن ريابوفتش عند ولوجه الغرفة المظلمة توقف مترددا كأنما هو أيضا على موعد ..

لقد برح الخفاء واتضح المعمى حتى هنا ..

« ولكن أى الفتيـــات هى ؟ » تردد هذا السؤال فى خاطره فجعل يتصفح وجوه النساء .انها لاشك من الصبايا الغريرات لان العجائز لايتورطن فى مثل هذه المغامرات .ثم انها ليست من خادمات القصر فذلك ثابت ثبوتا لا يجوز الغلط فيه من حفيف ثوبهـــــا الحريرى ومن عطرها وصوتها ..

ونظر أول ما نظر الى الفتاة ذات الثوب البنفسجي فأعجبته وراقت فى عينيه، فان كتفيها وذراعيها جميعاسوية الخلق مفرغة فى قالب الجمال ولها وجه ذكى المعى وصوت ساحر . فضرع الى الله أن تكون هى . غير أنها ابتسمت ابتسامتها الماكرة ، فتقلص أنفهـــا الطويل وبدت أكبر سنا . فزوى ريابوفتش نظره عنها الى الشقراء ذات الثوب الاسود وهى أصغر سنا وأكثر بساطة وصدقا ولها طرر على جبينها تسبى اللب ، وكانت ترتشف قدحها فى لطف يفوق الوصف . فتمنى ريابوفتش أن تكون هى – ولكنه سرعان ما لحظ فى وجههـــا فرطحة فانثنى ينظر الى جارتها ...

« ان الامر مشكل لا حيلة فيه » وفكر مليا : لو أخذت ذراعى الفتاة ذات الثوب البنفسجى وكتفيهـــا مضـــافا اليهما خصائل الفتاة الشقراء وعينا الفتاة الجالسة الى يسار لوبتكو فعندئذ ... »

ولما تم له تأليف صورة من جملة هذه المحاسن تجلى

له منظر الفتاة التى قبلتــــــه ولكنه غير واجد لها فى المجلس أثرا ..

وانتهى العشاء .وقام الزوار وهم ملاء نشاوى فودعوا الداعين . وكرر صاحب الدار وصاحبتها الاعتذار من عدم احتجازهم للمبيت وجعل الجنرال يردد : « انى جد مسرور أيها السادة » وكان فى لهجته هذه المرة رنة الصدق .ولا ضير فان تشييع الضيف المرتحل أروح للنفس من استقباله بالترحاب ، وهو غير مرحب به .«اننى جد مسرور حقا وآمل الا تحرمونى من الزيارة فى العودة · أرجوكم – مع رفع الكلفة –اى طريق انتم الان سالكون ؟ اتصعدون الربوة ؟ لا بل انحدروا واجتازوا الحديقة · هذه الطريق أوجز » ·

واخذ الضباط برأيه · ولا غرو بعــــــد الجلبـــــــة والانوار الساطعة فى الدار أن ظهرت لهم الحديقـــــــة مظلمة ساكنة فظلوا حتى بابها الجانبى الصغير سكوتا لم يخرجوا عن صمتهم .لقد كانوا طربين ثملين جد مبسوطين الا ان ظلام الليل وسكونه يبعثان على مناجاة النفس وسبحات الفكر . وجرى فى خواطرهم جميعا مثلما جرى فى خاطر ريابوفتش هذا السؤال : « أو يأتى يوم يكون لى فيه مثل فون رابك دار كبيرة وأسرة وحديقة وتسنح لى مثل هذه الفرصة للتلطيف مع الناس ولو غـــير مخلص والوليمة لهم حتى يصدروا ملاء نشاوى مبسوطين ؟ »

فلما ان استدبروا الحديقة انطلقوا جميعا يتحـــدثون وتفجروا يتضاحكون لغير سبب . وكانت الطريق التى سلكوها تفضي أمامهم الى النهر فى غير التواء ثم تجـــرى والنهر مطردة معه فى محاذاته تداور ما يقوم على ضفته من خمائل وشعاب وأشجار صفصاف بأفنانه المتدلية . وكانت الطريق لا تكاد تبين والشاطىء الآخر مغرقا فى

ظلمة حالكة ، وكان يتراءى في سواد الماء أحيانا نجوم السما

ولولاها ماكانوا يتمثلون مسيل العباب وسرعة جريانه

وفى العدوة عبر النهر كان يزقو طائر وسنان وفى بعض الخمائل على مقربة منهم كان يهتف بلبل رافعا عقيرته غير حافل بجمعهم . فتألب الضباط واقتحموا الخميلة ولكن البلبل ظل على حاله ماضيا فى غنائه

وردد الضباط معجبين : « لله صفاقته انه لا يحفل بنا فتيلا هذا المستهتر المتصابى »

واستأنفوا المسير حتى اذا قاربت الرحلة آخرها اصعدت الطريق الى الربوة وافضت بهم الى السكة العامة غير بعيد من رحبة الكنيسة

وكان المرتقى قد نال منهم وبهر انفاسهم فتهالكوا على العشب وراحوا يستجمون ويدخنون . وكان يلتمع ضوء أحمر كامد فى الشاطىء الآخر من النهر ولما كان يعوزهم فى مجلسهم هنا موضع للحديث فقد جعلوا يتمارون ويتحاورون فى أمره أهو وقود زينة أو نور نافذة أو غير ذلك . وتطلع ريابوفتش فيمن تطلع الى الضوء فخيل اليه انه يبتسم وانه يغمز له كأنه يعرف خبر القبلة

ولما أن بلغوا محلتهم بادر ريابوفتش الى خلع حلته لا يلوى على شىء وآوى الى فراشه . وكان شريكاه فى المرقد لوبتكو والملازم مرزلياكوف وهو رجل طويل الصمت ظاهر الرصانة وله سمعة بانه من ذوى البسطة فى الثقافة والتحصيل ، ولا يرى اينما ذهب الا وفى يده رسالة « رسول أوربا » فهو أبدا يقرؤها ولا تنقضى أبد العمر قراءة فيها . وكان لوبتكو بعد خلع ثيابه يذرع المقصورة جيئة وذهابا نافد الصبر وقد أرسل الخادم فى طلب جعة له . واما مرزلياكوف فاضطجع واق

الشمعة على وسادته واحتجب راسه وراء « رسول أوربا » كعادته . « ليت شعرى اين هى الآن ؟ » بهذا السؤال تحركت شفتا ريابوفتش مغمغما يناجي نفسه وهو شاخص الى السقف المسود بالسناج

وكانت رقبته لا يزال بها هذا الاحساس الرطب الندى كالمسوحة بالزيت ، والى جانب فمه لا يزال موقع القبلة يتنمل بمثل برودة قرص النعناع. وكان يلتمع فى ذهنه على التعاقب كتفا الفتاة البنفسجية وذراعاها والطرر المزركشة على جبين الفتاة ذات الثوب الاسود وعيناها النجلاوان الصادقتان وما يلحق بذلك من خصور مائسة وابراد موشاة ومشابك مجوهرة . وعلى الرغم من مجاهدته فى اقرار هذه الصور الشاردة وتثبيتها فانها كانت تلتمع وتغمز له ثم تزول . وأخيرا حال لونها وانطمست رسومها فى ذلك الستار الكثيف الاسود الذى يخيم على أعين الناس عندما تدب فى أجفانهم ثقلة الكرى ويرين عليهم النعاس ، واخذ يدوى فى سمعه وقع أقدام معجلة وحفيف أثواب حريرية ورنين قبلة. واستولت عليه غبطة شديدة فياضة من غير ما سبب. وفيما هو مستكين لهذه الغبطة مسترسل معها رجع خادم الملازم لوبتكو يخبر سيده أنه لم يجد الى الجعة سبيلا . فعاد الملازم يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو نافذ الصبر مسلوب القرار

وتوقف الملازم عند ريابوفتش ثم عند مرزلياكوف هاتفا : « انه لرجل أبله ليس يمتنع الحصول على الجعة الا على المخابيل الاغبياء . وغد »

فقال مرزلياكوف معقبا وهو لا يرفع عن « رسول أوربا » عينيه : « الجميع يعلمون انه لا سبيل الى الجعة هنا »

فهتف لوبتكو : « أو تصدق ذلك يالله أقذف بى فى

فيافى القمر فانى لا البث خمس دقائق حتى أجد الجعة والنساء كليهما ، ولسوف أجدهما بنفسى هنا لأكونن نذلا ساقط الشرف ان لم أجدها »

وجعل يرتدى ثيابه على مهل وأشعل لفافة تبغ وخرج

ثم ارتفع صوته وقد وقف فى البهو مناديا : « رابيك، جرابيك ، لابيك فى سبيل الشيطان لست ذاهبا وحدى . ريابوفتش تعال معى نتمشى .. ماذا ؟ »

فلما لم يجب احد رجع ادراجه وجعل يخلع ثيابه على مهل ثم رقد فتنهد مرزلياكوف وطرح « رسول أوربا » جانبا واطفأ النور وتمتم لوبتكو وهو ينفخ دخان سيجارته فى الظلام : « حسن ! »

وجذب ريابوفتش لحافه حتى ذقنه ، وتكور تحته كالكرة وأخذ يجهد مخيلته ليضم اشتات المناظر المتلألئة ويجعل منها صورة واحدة متماسكة ولكن الرؤيا تأبت عليه وولت عنه ثم لم يعتم أن غلبه الكرى ، وكان آخر احساسه قبل السبات انه كان موضع ملاطفة واسعاد ومسرة وان حياته دب اليها شىء غريب شىء عجيب مضحك ، ولكنه جميل ومشرق على نحو غير عادى ولم يبرحه هذا الخاطر حتى فى أحلامه

واستيقظ مع الصباح ، ورنا كالمسحور الى زجاج النافذة يتوهج كالذهب من شعاع الشمس الطالعة وأنصت الى الضوضاء فى الخارج . وكان احساسه بالنداوة فى عنقه وبرودة قرص النعناع فى خده قد ذهب عنه ولكن الفرح بالليلة البارحة كان ملء جوانحه يسرى فى كل عرق من عروقه

حبيبها

((لمكسيم جوركى))

روى لى بعض معارفى هذه الواقعة :

اتفق لى وأنا طالب فى موسكو أن عشت فى جوار سيدة من اللواتى فى سمعتهن موضع للتهمة ومثار للريبة . وهى بولونية ويدعونها تريزا . وكانت سمراء قوية البنية ، الى طول فى القامة كثة الحاجبين فاحمتهما ، عريضة الوجه ، غير مصقولة الملامح كأنها منحوتة بالفأس . وكانت لمحة الحيوانية فى عينيها السوداوين ، ونبرة صوتها الغليظ العميق ومشيتها التى تحكى مشية الحوذى وصلابة عضلها الجديرة بامرأة من بائعات السمك ـ كانت هذه جميعا تملأ قلبى لها استكراها ومنها نفورا

وكنت أسكن الطابق الاعلى وغرفتها تجاه غرفتى وكنت لا اترك بابى قط مفتوحا اذا علمت بوجودها وهو أمر نادر الوقوع . ولقد القاها مصادفة فى السلم أو فى الفناء فتبتسم لى ابتسامة تبدو فى نظرى ماكرة مستخفة . كما انني بين آونة واخرى كنت أراها سكرى ، شعثاء الشعر ، عشواء العينين ، وقد بدا ناجذاها فى تهانف مستهتر فظيع . وفى أمثال هذه الحال كانت تخاطبنى :

« كيف حالك يا حضرة الطالب »

وتزيدنى ضحكتها السخيفة مقتا لها على مقت . ولم يكن احب الى من الانتقال من المسكن تجنبا لهذا اللقاء

وهذه التحية ، لولا ان غرفتى الصغيرة لطيفـــة تشرف نافذتها على منظر واسع شاسع والطريق تحتها يشمله السكون ـ فانا لهذا متحمل صابر . وفي صبيحة ذات يوم كنت مستلقيا على فراشي التمس لنفسى عـذرا عن الذهاب الى الدرس . واذا بالباب يفتح وصـوت تريزا السمجة المرذولة ـ صوتها الفليظ العميق يرن على عتبة بابى : « لا بأس عليك يا حضرة الطالب »

فبادرتها : «ماذا تريدين » واذا وجهها يعلوه اضطراب وتبدو عليه ضراعة .. وما عهدت لها قط مثل هذا الوجه:

ـ سيدى انى قصدت اليك فى مكرمة فهل تصنعها لى ؟

فلبثت في موضعى صامتا .وناجيت نفسي:«يالطيف! . تجلد يابنى » فمضت تقول وفى صوتها ضراعة : « أريد ان أبعث بخطاب الى بلدى . هذا كل مافى الامر »

فقلت فى نفسى : « خطفتك الشياطين » . على انى وثبت من فراشي وجلست الى منضدتى وتناولت قرطاسا وقلت : « تعالى أجلسى وأملى على »

ـ حسنا .. لمن تريدين الكتابة ؟ ..

ـ الى بولسلاف كشبوت ، ببلدة سفيبتريانا ، فى طريق وارسوفيا ..

ـ حسنا ، هاتى ما عندك

ـ عزيزى بولز .. يا قرة العين .. يا حبيبى الوفى . حرستك السيدة العذراء يامن قلبه من الذهب الخالص لماذا انقطعت هذا الوقت الطويل عن الكتابة الى حمامتك الصغيرة الهاتفة تريزا ؟

فكاد يغلبنى الضحك « حمامة صغيرة هاتفة » وهى فى طولها تنيف على خمس اقدام ، وقبضة يدها تزن خمس اقات وزيادة واما الوجه منها فأسحم كأنما الحمامـــة

الصغيرة قد عاشت طوال حياتها فى مدخنة ولم تغتسل فى يوم من الايام ..

وتملكت نفسي جاهدا . ثم سالتها :

ـ ومن بولست هذا ؟

فراجعتنى وكانما ساءها غلطى فى الاســـم « بولز يا حضرة الطالب ، هو بولز فتاى المحب »

ـ فتى ؟

ـ فيم دهشتك يا سيدى ؟ الا يصح ـ وانا فتاة ـ ان يكون لى فتى ؟

هى ؟ فتاة ؟ عظيم والله !

وقلت « ايه ، لا .. كل شيء ممكن . وهل هو فتاك من عهد طويل ؟ »

ـ ست سنوات

فتعجبت فى نفسى ثم قلت : «عظيم .. لنتم خطابك .. » ولا أكذبك القول . . لقـــد وددت لو كنت مكان بولز ولو كانت هذه التى تكاتبه ليست تريزا بل دونها ايضا

وفى الختام قالت تريزا مع انحناءة براسها تحية لى:

ـ اشكرك يا سيدى من صميم قلبى لحسن صنيعك . ولعلى أستطيع أن أؤدى لك خدمة اليس كذلك ؟

ـ كلا ولك منى فروض الشكر على كل حال

ـ سيدى ، قد تحتاج قمصانك أو سراويلك الى شيء من الاصلاح ..

فاحسست أن هـــذه الماثلة أمامى كالفيـــل فى زى امرأة قد جعلت وجهى يحتقن خجلا ، ولقد اجبتها فى غير قليل من الحدة انه ليس بى الى خدماتها ادنى حاجة فانصرفت ..

وانقضى اسبوع او اسبوعان ، وفى ذات مساء كنت جالسا الى نافذتى اصفر وافكر وانا متضايق برم بالحياة

والجو كدر عكر . ولم تكن بي رغبة في الخروج فأقبلت من السآمة — على نفسي أحللها واذهب مذاهب التأمل والنظر ، وذاك ايضا عمل خامد بليد ، ولكنى لم يكن يعنيني أن أصنع غيره واذا الباب يفتح ، واذا داخل يدخل ثم سمعت صوتا يقول : « ايه يا حضرة الطالب ارجو الا يكون عندك عمل هام يعجلك ؟ »

هى تريزا اذا .. وى .. وى ! ..

— كلا ما الخطب ؟

— كنت اهم — يا سيدى — أن أسالك أن تكتب لى رسالة أخرى ..

— حسنا جدا الى بولز ، اليس كذلك ؟

— كلا هى من بولز هذه المرة

— ماذا ؟

— ما أغبانى انها ليست لى يا حضرة الطالب ، أرجوك المعذرة انها لصاحب لى ، لا أعنى صاحبا وانما أحد معارفى أن له حبيبة مثلى تماما أسمها تريزا . هذه هى المسألة ، فهل لك يا سيدى أن تكتب خطابا الى تريزا هذه

فرفعت بصرى اليها — فاذا وجهها مضطرب وأصابعها مرتجفة . لقد غم على وجه الامر فى البداية ولكننى الان فطنت الى جليته ..

فقلت « اسمعى ياسيدتى ليس الامر امر رسائل بين رجال باسم بولز ونساء باسم تريزا على الاطلاق وانما كنت تختلقين لى الاكاذيب عمدا . فاياك ان تتسللى بعد اليوم الى غرفتى فليست بى أدنى رغبة فى أن تتصل بيننا الاسباب افاهمة انت ؟ »

فما راعنى الا هلع غريب يستولى عليها وحيرة تشتد بها وقد جعلت تنقل قدميها دون ان تنتقلا بها خطوة وتغمغم على نحو مضحك تريد ان تقول شيئا فلا تستطيع

وانتظرت ارقب ما تنجلى عنه هذه الحال فدلنى نظرى وهدانى احساسى الى أننى ــ على ما يظهر ــ اخطات خطأ كبيرا فى التظنن بانها تبتغى استدراجى والميــل بى عن الطريق القويم وصح عندى ان فى الامر شيئا خلاف ذلك

واستهلت تريزا « ياحضرة الطالب » ولم ترد ثم دارت على عقبها فجأة وهى تلوح بذراعيها واندفعت الى الباب وخرجت ، وبقيت فى موضعى متكدر الخاطر ، واصغيت فسمعتها تدفع بابهــا بشدة ، ولاشك ان المرأة المسكينة غاضبة أشد الغضب ، فراجعت نفسى فى الامر وقلبت فيه وجوه الفكر فاجتمع عزمى على ان اذهب اليها فأدعوها الى المجىء هنا لاكتب لها ماتشاؤه جميعا

ودخلت الى مسكنها وتلفت . لقد كانت جالســة الى المنضدة معتمدة على مرفقيها وراسها بين كفيهــا فقلت لها : « اصغى لى »

والحق اننى اليوم كلما بلغت الى هذا الموقف من حكايتى ما ازال احس بمبلغ ماكان من خرقى وغفلتى . . قلت : « اصــــغى الى »

فهبت من مقعدها واقبلت على وقد ابرقت عينــاها ووضعت راحتيها على كتفى وانشات تهمس أوعلى الاصح تهمهم بصوتها الاجش العميق :

ــ الآن ، الق بالك الى . هذه هى الحال : فليس من رجال باسم بولز على الاطلاق ولا نساء أيضا باسم تريزا

ولكن ماذا بك من ذاك ؟ أيشق عليك أن تجرى القلم على القرطاس ؟ ماذا ؟ حتى أنت ولمــا تزل فتى صغير السن غض الاهاب ، أجل ليس من أحد على الاطلاق لابولز ولا تريزا . لايوجد غيرى أنا . هذى هى واقعة الحال فاهنا الان !

بغتتنى هذه المقابلة ثم لم ألبث أن قلت « لا تؤاخذينى ،

فيم هذا كله ؟ تقولين بولز لا وجود له ؟ »

ـ هو ذاك ..

ـ ولا تريزا أيضا ؟

لم أفقه من الامر شيئا وحدجتها بنظرى أحاول أن اعرف أينافارق صوابه.. ولكنهاعادتالى المنضدةوجعلت تلتمس فوقها شيئا ثم أقبلت ثانية على وقالت بلهجة المستاء : « اذا كانت الكتابة الى بولز تشق عليك الى هذا الحد فهاك كتابك اليه خذه ، فغيرك يكتبون لى »

ورفعت نحوهابصرى فاذا فىيدها كتابىالى بولز .. اف لها !

ـ اسمعىيا تريزا هذا جميعه مامعناه ؟ لماذا تستكتبين الناس له ، وأنا قد كتبت له خطابا ولم ترسليه ؟

ـ أرسله اين ؟

ـ كيف .. الى بولز هذا الذى تذكرينه ..

ـ انه ليس بأحد

لم اعقل شيئا البتة ولم يبق لى الا ان أنفث عنصدرى ثم امضى ولكنها انطلقت تبين عن نفسها وتشرح حالهـــا فقالت وهى لما تزل مغضبة : ماذا فى الامر ؟ أقول لك أن هذا الانسان لا وجود له ..

وبسطت ذراعيها كأنهـــا هى نفســـها لا تدرى لم لا يكون لها أحد كالذى ذكرتومضت تقول : « على اننى اردته ان يكون .. ألست بانسانة كسائر الناس ؟ نعم ، نعم اننى أعرف بطبيعة الحال .. ولكن لا ضير على أحـــد اذا أنا كتبت اليه حتى أستطيع ان أرى ..

ـ ولكنه لا وجود له

ـ أواه ! أواه ! وماذا فى عدم وجوده ؟ هو لا وجود له ولكنه قد يوجد ! وانا كتبت اليه فيخيل الى انه موجود اما تريزاـ فهى انا وهو يرد على خطاباتى فأعيد الكتابةاليه

واخيرا فهمت واحسست من نفسي باللوعة والتعاسة والخجل — او ما اشبه ذلك — فها هنا بجواري وقاب قوسين او ادنى منى تعيش انسانة ليس لهـا فى الخلق اجمعين من يحنو عليها ويظهر لها المحبة فاختلقت هذه الانسانة لنفسها حبيبا

ومضت تريزا فى حديثها : « فانظر الان . . كتبت لى خطابا الى بولز فانا احملـه الى من يقرءونه لى فاذا قراوه لى اصغيت وتصورت ان بولز هناك ثم اطلب اليك بعدها ان تكتب ردا من بولز الى تريزا — اعنى الى انا فاذا قرىء على هذا الكتاب شعرت شعورا لا يخامره الشك بان بولز هناك بالفعل فتصبح الحياة انعم جنابا واندى مسا »

فقلت لنفسي حين سمعت « يالك من ابله » ومنـذ ذلك الحين وانا اكتب لها بانتظام مرتين فى كل اسبوع خطابا الى بولز ثم ردا من بولز الى تريزا . وكنت اجيد فى كتابة الردود خاصة وهى بطبيعة الحال تستمع اليهـا وتنتحب كما تنتحب عاشقة أو — على الاصح — تجار بصوتها الاجش العميق . وكانت تجزينى على شجوها وتحريك بكائها بالرسائل الحقيقية على لسان بولز الخيالى ، بما كانت ترتق لى من جواربى وقمصانى وسائر ملبسى . وقد حدث بعد اشهر ثلاثة من عهد بداية هذه الواقعة ، ان زجت فى السجن لامر من الامور ولا شك فى انها اليـوم من سكان القبور .

ونفض محدثى الرماد من سيجارته وتطلع الى السماء مفكرا ثم قائلا :

« اجل ، اجل ، كلما ذاق الانسان من الحياة مرها ، زاد نهمه الى حلوها . أما نحن ، نحن المتزملين فى أسمال فضائلنا فننظر الى الاخرين من سحابة اثرتنا واكتفائنا بانفسنا واقتناعنا بأننا المنزهون عن كل شائبة ، فلا نفهم من ذلك شيئا »

نزوة هوى

« ل : الكسندر كوبرين »

كانت لجج من الانوار الساطعة من ثريات ثلاث محلاة بقطع مدلاة من البللور الموشور تفيض على قاعة التمثيل فى دار الجامعة . وكان المسرح مزدانا بالاعلام والسعف والافنان المورقة ، وفى الصدر منه معزف كبير ملتمع الصقل مفتوح أعلاه . وكانت القاعة مزدحمة كل الازدحام كما هو ظاهر ، ومع ذلك فان الخلق ما برحوا يتدفقون من الابواب زرافات .

وان المرء ليسدر طرفه وهو ينظر الى هذه الجموع الجالسة نساء ورجالا من رءوس صلعاء وشعور مسترسلة فرعاء ، ومن السترات الرسمية السوداء المذيلة والبذلات العسكرية وأثواب السيدات الزاهية ، ومن مراوح فاخره تتحرك فى لطف ووناء فى أكف رقيقة مصونة فى قفازاتها البيضاء ومن حركات مستوفزة ... وابتسامات غزلة خنثة لاهية .

واذا بمغن وسيم تظهر عليه سيماء الاعتزاز بالنفس وان شئت فقل الخيلاء يرقى الى المسرح ويخطو الى مقدمه وهو لابس سترة سوداء مذيلة ، وفى صدره زهرة كبيرة متفتحة وتبعه على أثره العازف المصاحب غير ملحوظ كأنه الشبح . وخيم السكون على القاعة .

غير أن عددا من الطلاب المتظرفين الـــذين يحملون

الشارات على صدور سترتهم ، وهم لجنة التنظيم كما هو جلى ظاهر ، كانوا فى الغرفة الخارجية المتخذة لايداع المعاطف منهمكين يلغطون فى قلق وصبر نافد • فهم على لهف ينتظرون مقدم هنريت ديكروا المغنية الاولى للاوبرا الباريسية ، وقد نزلت على المدينة للغناء فى هذا الموسم من الشتاء ، ومع أنها لاقت وفدالطلاببلقاء جميلا ظاهر الايناس والبشاشة ، وأكدت لهم أنها تعتبر الغناء فى حفلتهم شرفا عظيما لها ، فقد حان الدور الذى كان مقررا ظهورها فيه ، ولم تحضر بعد • أو تراها تخلت عنهم ، هذا هو الخاطر المقلق المكتوم الذى كان يدور فى أخلاد أعضاء لجنة الاحتفال وهم فى الغرفة الخارجية يكادون من البرد يجمدون ، وقد ظلوا يختلفون الى النافذة يلصقون وجوههم الى زجاجها ويحدقون فى ظلمة هذه الليلة الشاتية ••

وطرقت الاسماع قرقعة عجلة تدرج مقتربة ، والتمع من النافذة مصباحاها الكبيران فهرولت اللجنة الى الباب يتصادمون ويتدافعون • انها بعينها « ديكروا » الفريدة • وتضوع فى الغرفة المعدة لخلع المعاطف شذا منها عبق .

وابتسمت للطلاب ، وأومأت باشارة معنوية الى حنجرتها الملفوفة بفراء السمور الثمين . وهى باشارتها تريد الابانة عن السبب فى تأخرها اذ كانت لا تستطيع فتح فمها بالكلام لشدة الزمهرير بالغرفة وخشيتها الاصابة بالبرد ••

وكان قد فات دور « ديكروا » من مدة ، وكان الناس الذين أخلفت شوقهم اليها قد قطعوا الرجاء من انتظارها ، فجاء ظهورها على المسرح مفاجأة سعيدةغمرتهم ،فانطلقت مئات الحناجر الفتية ، وانطلق ضعف هذا العدد من الاكف

القوية ، بتحيتها تحية طويلة يصم دويها الآذان حتى انها شعرت ــ وهى التى الفت عبادة الجمهور لها ــ بلذة غالبة متفززة من هذا الفيض من التمليق والاطراء

وقفت على المسرح ، وانحنت الى الامام انحناءة خفيفة ، وتصفحت عيناها السوداوان الضحوكان الصفوف الاولى من المتفرجين ، وكانت لابسة ثوبا من الاطلس أبيض لامعا ، وكان صدارها منوطا الى كتفيها بشريط دقيق وتبدو منه ذراعان بديعتان ، وينم على صدر مشرئب ناهد ، وتطول فتحته فيكشف عن نحر باذخ ناصع كأنما هو منحوت من رخام ..

وهدأ التصفيق مرات عدة ، ولكنها كانت فى كل مرة لا تكاد تدنو من المعزف حتى تتجدد موجة الحماسة فتردها الى صدر المسرح لرد التحية ٠ وفى آخر الامر أبدت حركة احتجاج ورجاء وابتسمت ابتسامة ساحرة وأقبلت على المعزف . وخفت الهتاف والتصفيق شيئا فشيئا ، وأشخصت اليها القاعة كلها أنظارها ، متيمة بها مفتونة ٠ وخيم السكون كأعمق ما يكون ، ولكنه سكون الاصغاء الحى وفى وسطه انبعثت طلائع نبرات من لحن شجى من وضع « سان سانس »

ووقف « الكساى صاميلوف » وهو طالب طب فى الفرقة الثانية على مقربة من المسرح ، مستندا الى عمود من الاعمدة ، يصغى الى الغناء وقد أطبق جفنيه نصف اطباق ٠ وكان كلفه بالموسيقى عجيبا يكاد يكون مرضا فليس يسمعها بأذنه ، وحدها ، بل يحسها بكل عصب من أعصابه وبكل نسيج من أنسجة كيانه ٠ وكان جرس هذا الصوت الجميل ينفذ الى أعماق نفسه ويرتد رجفة حلوة تشيع فى سائر بدنه ، حتى ليخيل اليه من آونة لاخرى أن

الصوت يغنى من داخله هو وفى الصميم من قلبه

وكان ما يشفعون به كل استعادة من ضجة التهليل والتصفيق تؤذيه ويعروه منها شبه ألم جسدى ، فينظر الى جمهرة السامعين نظرة المرتاع المحتج الراجى

واستهلت ديكروا لحنا آخر جديدا • فعاد الكساى يسبل جفنيه ويستسلم لامواج هذا الصوت الملعلع وتمنى فى لهف لو أن هذا الغناء يستمر أبدا

ولقد اضطروها الى ترديد الغناء مرات ومرات ، ولم يسمحوا لها بمزايلة المسرح حتى أشارت الى حنجرتها ، وابتسمت لهم ابتسامتها الحلوة وهزت رأسها فى احتجاج واعتذار وأصعد « الكساى صاميلوف » زفرة عميقة متقطعة كأنما استيقظ فى التو واللحظة من حلم جميل تراءى له فى اليقظة ..

وعند هبوطه الدرج احس فجأة بمن يلمس كتفه ، فالتفت فرأى « بيبر » طالب الفقه وزميله الاسبق فى المدرسة وهو نجل مثر مشهور من أصحاب صاميلوف ، وضمه اليه فى مودة وهمس فى أذنه « انها رضيت . وستكون العربات هنا بعد دقائق معدودات »

فتساءل صاميلوف : « من التى رضيت ؟ »

— هى • • • ديكروا . . . لقد أوصينا باعداد عشاء فى المطعم الاوروبى •••• انها رفضت بادىء الامر ••• ولكنها بعد قليل لانت •••• والعصبة ستكون هناك •••• ستاتى طبعا ، أليس كذلك ؟

ولم يكن صاميلوف من زمرة بيبر التى تضم « الشباب الذهبى » من طلاب الجامعة ، وأعنى بهم أنجال كبار الملاك وأصحاب المصارف والتجار • وبيبر يعلم هذا حق العلم ولكنه كان مأخوذا بهزة من التيه والاريحية بحيث أحب أن

يشمل بعطفه كل انسان . فاحتج على رفض صاميلوف :

ـ أوه ! تعال ، دع هذا اللغو ، لابد من ذهابك ... ما هى أوجه اعتراضك ؟

فتهاتف صاميلوف مرتبكا وقال :

ـ انت ترى ... أجل ، انت تعلم ... انى ...

ـ أوه .. لا عليك انبئنى عن التفاصيل فيما بعد .. والآن .. يا زميلى القديم أنت معنا

وفى هذه الاثناء وفدت العربات ... وكانت الجياد تصهل وتنفض رأسها فتجلجل الاجراس حول أعناقها جلجلة مفرحة . واستقل الطلاب العربات حالهم ونبالهم ، وانبعثت أصواتهم فى هواء الليل ذى الصقيع فارتدت صريرا ضابحا مجهودا . وجلس صاميلوف الى جانب بيبر ، وكان لا يزال فى غمرة تأثره بالموسيقى . وذهنه مستغرق فى سبحات من الاحلام عجيبة ، بينما كانت العربات تتسابق فى الشوارع الخالية المهجورة . وكان عزيف الريح وتوقيع سنابك الخيل على الثلوج ، وتداعى الطلاب وجلجلة الاجراس المستمرة ، كل هذه كانت تمتزج فى انسجام بديع ... وثمة كانت تمر بصاحبنا لحظات يذهل فيها عن نفسه ، أو ينسى مايجرى له والى أين يمضون به ..

وعلى مائدة العشاء تحلق الطلاب حول المغنية الحسناء وظلوا ينحنون على يديها لثما يزجون اليهاعبارات اعجاب جريئة فى لغة فرنسية رديئة . وكان ... وهى بادية النحر فتانة المحاسر ... أفعل بألبابهم من الشمبانيا .. وقد التمعت عيونهم بحرارة التوق والرغبة أجمل التماع .. وهى تحاول الاجابة على كلامهم فى نفس واحد ... وتكركر ضاحكة وقد استلقت برأسها على الاريكة المكسوة

بالاطلس ... وتقرع بمروحتها منادميها وخطاب ودهـا قرعا لطيفا ...

ولم يكن صاميلوف ممن تعودوا الشراب ... فـكان للقدحين اللذين شربهما سورة فى راسه . فانتحى ركنـا يحجب عن عينيه نور الثريات الساطع ، وجلس يرمـق ديكروا بلحاظ مفتونة . وكان يعجب فى نفسه من تهجم رفاقه واجترائهم على رفع الكلفة الى هذا الحد مع المغنية العظيمة ... وهو فى الوقت نفسه حاسد لهم نافس عليهم ... وان شئت فقل غيران ...

وصاميلوف ذو خفر بطبعه . وقد زاده استحياء على استحياء بالطبع نشوؤه فى أسرة دمثة محتشمة شديدة الحفاظ . وكان خلانه يسمونه « الهانم » لحيائه . والواقع أن به مشابه عدة من سذاجة الاطفال وغرارتهم ، وفيه طهر نادر فى تفكيره وشعوره ...

وتساءلت ديكروا وهى تشير الى الكساى : « من هذا السيد هنالك فى الركن ؟ لكانه خائف منا متوجس كالفار ... لعل السيد شاعر ... » وصاحت المغنية : « اسمع ياحضرة الشاعر .. تعال ! »

فدنا صاميلوف وهو بادى الارتباك ، ووقف امام المغنية ... وأحس فورة الدم فى وجنتيه . .

ــ يالله ! ان شاعركم لوسيم حقا !

وضحكت ديكروا ، واردفت : « ما أشبهه بآنسة من الاوانس المعلمات فى مدرسة عليا ... وايم الحق ! انه ليحمر من الخجل ٠٠ وما أجمل ذلك ! »

وظلت تستمتع الاستمتاع كله بالنظر الى هذا الماثل أمامها بقوامه المعتدل السمهرى ... وطلعته الواضحة الموردة وقد خط فيها عذار خفيف .. وشعره الذهبى

الناعم المتهدل على جبينه . وعلى حين فجأة امسكت المغنية بيده واجبرته على الجلوس الى جانبها على الاريكة . وقالت بلهجتها الباريسية :

ـ لماذا كنت راغبا عن الجلوس الى ؟ انت شديد الكبرياء .. اتنتظر من امرأة ان تفاتحك ؟

فظل الكساى ابكم لا يحير جوابا ، وانبرى أحد الطلاب ولم يكن قد رآه قط فى زمرتهم يقول فى خبث :

ـ سيدتى .. ان زميلنا لا يفهم الفرنسية ..

فوقعت هذه الكلمة من الكساى وقع السوط فالتفت بحدة وحدق فى المتكلم نظره وأجاب باقتضاب ولكن بلهجة فرنسية فصحى ـ بالفرنسية التى كانت فى وقت من الاوقات فخر العلية الروس ، ولم تزل كذلك فى بعض الاسر ـ « لا ضرورة مطلقا يامسيو لان تتكلم عنى ، وعلى الاخص انني لم أتشرف بمعرفتك . »

فهتفت المغنية : « مرحى ! مرحى ! » دون أن تفلت يده « وما اسمك ياشاعرى ؟ »

وكان صاميلوف قد هدأت ثائرته ، فعاوده الحياء وعلت وجهه حمرة الخجل وهو يجيب :

ـ الكساى

ـ ماذا ؟ .. ماذا ؟ الـ ..

فأعاد صاميلوف الاسم ..

ـ اوه ، هو ما يقابل عندنا الكسيس حسنا يا مسيو الكسيس . وعقابا لك على ابتعادك سيكون عليك أن تصحبنى حتى مسكنى ، انى فى حاجة الى نزهة .. والا أصبحت غدا وبى صداع .

ووقفت بهما العربة بازاء فندق فاخر فى المرتبة الاولى من الفنادق وساعدها على النزول وهم بالاستئذان منها

فنظرت اليه وعلى محياها حنو يسبى القلب ويغوى اللب وقالت له : « ألا ترى مقصورتى الصغيرة ؟ »

فتمتم منفعل الاعصاب : « انى أكون ... سعيدا .. جدا ولكنى أخشى .. ان الوقت جد متأخر .. »

فقالت : « تعال أريد ان يكون عقابى لك تاما ... »

وبينما كانت تبدل ثيابها تطلع الفتى حوله الى الغرفة فالفاها خلعت على هذا المسكن العادى أناقة رشيقة خليعة لا تحسنها الا باريسية . وكان الجو عاطرا بعبير رقيـق مما كان قد آنسه أول ما آنسه حين جلس الى جنبها فى العربة .

وعادت متوشحة فى مفضلة بيضاء فضفاضة مشبوكة بمشابك ذهبية ، وجلست الى اريكة شرقية منخفضـة وهى تلملم ثنايا جلبابها حول قدميها . ودعت الكساى بحركة آمرة الى الجلوس بجانبها فأطاع :

ـ اقترب منى ... اقترب .. اقترب أكثر من ذلك ... هكذا ! وبعد ، فلنتسار قليلا يامسيو الكساى ، أولا من أين لك هذا التمكن من اللغة الفرنسية ؟ انك تفصح عن نفسك بفصاحة مركيز

فقال صاميلوف انه كانت له مربية فرنسية منذ نعومة أظفاره وانه نشأ فى أسرة يتكلم أفرادها اكثر مايتكلمون بالفرنسية .

ثم جعلت تطرح عليه السؤال فى اثر السؤال عن اهله ودراساته وأصحابه ... دون أن تدع له الوقت للاجابة على سؤال واحد . وفجاة وفى صـــوت خفيض رخيم سألته : « قل لى .. ألم تحب امرأة قط ؟ »

ـ نعم .. حين كنت فى الرابعة عشرة حببت ابنة عمى .

ـ بشرفك .. ؟!

ـ بشرفي ..
ـ ولم تعلق بامرأة قط ... أية علاقة ... ؟
فأدرك المعنى . وعبثت أصابعه بهدب غطاء المائدة .
وقال همسا : « كلا أبدا » ..
« الا تحبنى ؟ » قالت بنفس الهمسة الخـافتة ، ومالت عليه حتى أحس بحرارة وجنتيها ثم هتفت به فى احتجاج عابث : « انظر حين تخاطب الى وجه من يخاطبك» وامسكت براسه بين راحتيها وجعلته ينظر فى عينيها .. لقد راعته وقدة نظرتها فى أول الامر .. ثم أشجته .. واخيرا اذكت فيه مثل وقدتها ... فمال عليها ... وكانت شفتاها مخضلتين ملتهبتين

***

ـ هل مدام ديكروا هنا ؟
ـ لا ..
فأعاد الشاب السؤال : « هل أنت متأكد ؟ ربما تكون قد عادت فى هذه الاثناء »
فقال الحاجب البدين المحشور فى زيه الرسمى ، ذو الوجه المحقن المنتفخ الناعس ، وهو يحك ظهره :
ـ ماذا تعنى ؟ هل أنا متأكد !! انه شأنى انا أن اعرف اذا كانت هنا ام لا . لماذا انت على حر الجمر اهتماما بها ؟ لقد سعيت الى هنا طوال هذين الاسبوعين ملحفا تعنتنى بالسؤال عنها .. ومادمت أقول لك انها ليست موجودة ، ليست موجودة فذلك يفض الموضوع .. هى لاتريد رؤيتك .. أفاهم أنت ؟ ... هو ذاك الامر كله ..
الامر كله لقد احس الفتى بقلبه يجب وجيبا موجعـا ويحز فيه حنين موله بغير جدوى .. انه يضطرم غيظا . لماذا صنعت به هذا ؟ ...

مبارزة

« لنيقولاى ليسكوف »

كان ذلك فى بكرة الصباح ..

و « فلاديمير كلادينوف » فتى وسيم ، مديد القامة ، فى الثانية والعشرين من عمره ، كالفلمان مظهرا ، له وجه مليح وشعر وافر أشقر ، يرتدى حلة الضباط ، وينتعل نعال الركوب الطويلة . وكان واقفا فى مرج معشوشب لساه متساقط الجليد ، وهو شاخص الى ضابط آخر . وذلك الاخر رجل أسبل الشاربين ، بائن الطول ، محمر الوجه ، وكان مواجها له على مسافة ثلاثين قدما ، وهو يرفع على مهل يده حاملة فى قبضتها مسدسا الى فلاديمير

وكان فلاديمير واضعا ذراعيه متشابكتين على صدره . حاملا كذلك فى احدى كفيه مسدسا وهو ينتظر ـ انتظار من لايبالى ـ طلقة النار يطلقها عليه خصمه . وكان وجهه الناضر الصبيح ، وان غشيته مسحة من شحوب ، ترتسم الشجاعة فيه ويعلوه ابتسام المستخف . وكان موقفه المستهدف ومايبدو على غريمه من تصميم مبرم لارحمة فيه ، وذلك الانتباه الشديد من جانب الشهود الواقفين صفا واحدا لاحس لهم ولاحراك ، كل هذه مجتمعة جعلت اللحظة مروعة بالغة الروع مستغلقة غامضة الكنه ، رهيبة فاجعة الوقع . انها قضية شرف يجب هنا القضاء فيها . والجميع بجلالها شاعرون . وكانت اللحظة تزيد هولا

بمقدار بعدهم عن ادراك ماهم صانعون

وانطلقت رصاصة . وسرت فى فرائص الجميع رعدة . هذا فلاديمير يرخي ذراعيه ويثنى ركبتيه ويخر فى مكانه فهو على الثلج منطرح وقد نفذت الرصاصة فى راسه . انه مستلق وذراعاه متباعدتان وشعره ووجهه ومتوسد الثلج تحت رأسه كلها مضرجة بالدم . وهرول اليه الشهود فاحتملوه وفحصه الطبيب فقرر وفاته . لقد انحلت مشكلة الشرف وانفض امرها . ولم يبق الا ابلاغ الخبر الى الفرقة التى يتبعها الضابط وابلاغ النعى بقدر ما يستطاع من التلطف والتحرز الى الام التى أصبحت من بعده فى الدنيا مفردة وحيدة فان الفتى القتيل وحيدها . وهى لم تخطر لاحد فى بال قبل المبارزة اما الان فالكل يفكرون فيها ويطيلون التفكير . فالكل يعرفونها ويحبونها ، ويدركون انه لابد من التقديم لهذا النبأ الفظيع عندها والتمهيد له قبل القائه والتدرج فى مساقه ، وفى النهاية وقع الاختيار على « ايفان جوليوبنكو » بوصف انه أصلحهم جميعا لتبليغ الخبر للام وتهوين الخطب جهد المستطاع

كانت « بيلاجيا بتروفنا » قد استيقظت ساعتئذ من نومها . وكانت تجهز لنفسها شاى الصباح حين دخل الى غرفتها « ايفان جوليو بنكو » مكتئبا مرتبكا

وهبت السيدة العجوز للاقاة ضيفها قائلة : « لقد جئت فى الاوان والشاى مجهز يا ايفان ؟ » ثم أردفت : « انك قادم لامحالة لترى فلاديمير ؟ »

فغمغم جوليو بنكو مجفلا : « لا . . انما كنت مارا . . »

ــ انت لابد عاذره انه لا يزال نائما . لقد قضى سحابة الليلة الماضية يذرع غرفته جيئة وذهابا وقد أوصيت الخادمة الا توقظه فان اليوم عطلة العيد . ولكن لعلك

آت فى مهمة مستعجلة ؟

ــ كلا وانما عرجت عليكم فى مرورى لحظة ...

ــ ان شئت رؤيته أمرت بايقاظه

ــ كلا .. كلا .. لا تكلفى نفسك

ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد استقر فى وهمها انه قادم ليرى ابنها فى امر من الامور فخرجت وهى تفمغم فيما بينها وبين نفسها .

وجعل جوليو بنكو يذهب ويجىء مضطربا ، ويقلب كفيه ، وهو لا يدرى كيف يبلغها الخبر الفظيع . لقدازفت اللحظة الحاسمة ، ولكنه لم يعد مالكا لنفسه بل ملكه الروع ، فهو يلعن الحظ الذى ورطه شر مورط فى الامر كله ..

ولم تلبث بيلا جيا بتروفنا ان عادت واستهلت تقول وهى تدخل الفرفة مخاطبة زائرها ، سليمة السريرة طيبة النحيزة :

ــ وبعد فكيف للمرء أن يثق فيكم معشر الشبان ؟ كنت كما رأيتنى أحاذر ان يسمع للاقداح واطباقها ادنى حس والتمس الاعذار لابنى فى اطالته الرقاد ، واستسمحك فى عدم ايقاظه ، فاذا هو قد خرج منذ برهة طويلة ولم يخلف أثرا ولا ترك خبرا ! ولكن لم لا تجلس وتشرب قدحا من الشاى ؟ لقد أهملتنا شر الاهمال فى هذه الايام الاخيرة ..

وابتسمت كأنما تبتسم عن سرور مخامر ، واسترسلت بصوت خافت :

ــ كانت الاخبار كثيرة عندنا فى تلك الاونة ، وما أحسب أن فلاديمير استطاع كتمانها ولابد انه افضى بها

اليك بحذافيرها كاملة حتى يومنا هذا . ان ابني مستقيم الطبع مفتوح القلب . والليلة البارحة دارت بخـــلدى الظنون مع مابها من اثم ! فقد قلت فى نفسى اذا كان فلاديمير يذرع الغرفة طيلة ليلته فمعناه انه يفـــكر فى « لينوتشكا » صبا بها مشوقا اليها ، وانه لمن مألوف عادته وديدنه اذا ذرع الغرفة الليل طوله أن يمضى لا محالة فى الغداة . آه يا ايفان ، لست أتمنى شيئا على الله الا أن يرزقنى هذه الفرحة من لدنه يقر بها عينى فى هـــرمى وخاتمة ايامى . وماذا تطلبه امرأة عجوز أكثر من هذا ؟ ليس لى غيرها امنية وبشرى . وانه ليخيل الى ان ليس ثمة سؤال ارتجيـــــه من الله بعد اذ يتزوج فلاديمـــير ولينوتشكا . ان فى ذلك كل الغبطة لى ، والسعادة التى مابعدها سعادة . مالى سوى فلاديمير من حاجة وليس شيء أحب الى من هناءته

وكان تأثر السيدة العجوز شديدا ، فجعلت تكفكف الدمع تفرغرت به عيناها ، واسترسلت تتحدث اليه : « أو تذكر ؟ لم تكن الامور فى البداية جارية على أحسن حال سواء فيما بينهما او فيما يتعلق بالمال . فانكم معشر الشبان الضباط غير مسموح لكم حتى بالزواج من غير عتاد من المال المرصود . حسن ، لقد تم الان اعداد كل شيء : حصلت على خمسة الالاف روبية اللازمة لفلاديمير . وفى الامكان ذهابهما الى المحراب لعقد الزواج غداة غد .. اجل ولقد كتبت لى لينوتشكا خطابا ما اعذبه والطفه . انقلبى لجذلان مبتهج »

واخرجت بيلاجيا بتروفنا ــ وهى مسترسلة في كلامها ــ خطابا من جيبها واظهرته لجوليو بنكو ثم أعادته : « انها لفتاة محببة ! وناهيك بطيبة نفسها »

وجلس ايفان جوليو بنكو ينصت الى كلامها وهو على مثل الجمر . وقد اراد ان يقطع عليها هذا الفيض من الاحاديث ويقول لها ان كل شيء قد انتهى وان فلاديمير ابنها مات واصبح فى خبر كان وبعد ساعة واحدة لن يبقى لها شيء من هذه الامال الزاهية البهيجة الالوان . ولكنه لم يفعل وجعل ينصت اليها ملتزما الصمت . ونظـر الى وجهها الطيب اللطيف فاخذ منه الاشفاق عليها مأخـذه واذا حركة تشنج تأخذ بكظمه

واخيرا سألته السيدة العجوز : « ولكن مالى اراك اليوم متجهما ؟ مابالك ان وجهك يبدو مكفهرا كامدا كالليل »

وود ايفان لو يقول : « نعم ! وسيكون وجهك كذلك حين أخبرك الخبر ! » ولكنه لم يخبرها حرفا واستعاض من ذلك بأن أشاح بوجهه ، وجعل يفتل شاربيه

ولم تلحظ بيلاجيا بتروفنا شيئا واستطردت وهى فى افكارها مستغرقة : « ان لك عندى تحيـــة لقد كتبت لينوتشكا فيما كتبته لى توصينى بأن ابلغ تحياتها الى ايفان وان ارجوه الذهاب مع فلاديمير لزيارتها . فأنت ترى بنفسك يا ايفان مودتها لك . وايم الله لا يظهر اننى لا أستطيع الاستئثار بهذا وحدى لابد من اطلاعك على الخطـــاب ولتنظرن انت لنفسك مبلغ مافيه من محبة وعذوبة »

وعاودت بيلاجيا بتروفنا البحث عن حزمة الخطابات فى جيبها وسحبت منها طرسا رقيق الورق مقرمط الكتابة ونشرته أمام ايفان وحاول ايفان ان يدفع عنه القرطاس الممدود ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد أنشأت تقرؤه :

« عزيزتى بيلاجيا بتروفنا — متى يئين الاوانُ الذى أخاطبك فيه غير هذا الخطاب فأدعوك بيا امى العزيزة المحببة ! اننى أرقب ذلك اليوم متلهفة وان املى لعظيم

بقرب حلوله حتى لقد اليت الا ادعوك منذ الان باسم غير
ــ يا امى ! »

ورفعت بيلاجيا بتروفنا رأسها ، وتوقفت عن التــلاوة ونظرت الى جوليو بنكو بعينين تملؤهما العبرات

وقالت : « أترى يا ايفان » ولكنها رأت جوليو بنكو يعضض شاربيه بناجذيه، ورأت عينيه هو ايضا مغرورقتين فقامت وأقبلت عليه ووضعت يدها المرتعشة على شعره وقبلته في هينة واناة فوق جبينه هامسه من شدة التأثر : شكرا يا ايفان ، لقد كنت دائما اعتقد انك وفلاديمير أقرب الى الاخوين الشقيقين منكما الى مجــــرد صــديقين . لا تؤاخذنى . اننى سعيدة ايما سعادة والحمـــــد لله سبحانه ! »

وفاضت الدموع على خديها . واشتد بايفان جوليــو بنكو اضطرابه وارتباكه ولم يسعه الا أن يأخذ بين راحتيه يدها الباردة المعروقة ويكب عليها تقبيلا

وكان مختنقا بالعبرات فلم يستطع ان يلفظ حرفا ولكن هذه الفورة من الحب الاموى أشعرته بالتبكيت الشــديد حتى لقد آثر انه كان هو الصريع على الساحة وقد نفذت الرصاصة في دماغه فذلك أهون عليه من سماع عبــارات الحمد له والتنويه بصداقته وخالص أخوته تجرى على لسان هذه المرأة وهى بعد هنيهة قصيرة سيتضح لهـــا حقيقة الواقع وجلية الامر ماذا يكون رأيها فيه وقتئذ ؟ الم يقف ــ وهو الصديق وفى حكم الشقيق ــ ساكنا جامدا حين كان المسدس مسددا الى فلاديمير ؟ اليس هذا الشقيق نفسه هو الذى قاس المسافة بين الغريمين وهــو الذى حشا المسدسين ؟ كل هذا صنعه بنفسه ، وقــد صنعه وهو يعى مايصنع ، وهاك الصديق بل الشقيق يجلس الان

صامتا ولا يتقدم حتى هنا للقيام بواجبه

انه جزع مرتعب يحتقر فى هذه اللحظة نفسه ولايستطيع مع ذلك مغالبتها ليقول ولو كلمة واحدة . وان احساسا غريبا بالتناقض يحرج صدره ويزهق روحه فهو فى كرب واختناق . والوقت يمر مسرعا . انه يعلم بمروره وكلما زاد به علما وهت عزيمته ولم يقو على حرمان بيلاجيا بتروفنا مما بقى لها من لحظات سعيدة اخيرة . فماذا هو قائل لها ؟ وكيف يقدم الخبر ويهيؤها لسماعه ؟ حار ايفان جوليو بنكو فى أمره واسقط فى يده

***

ولقد انفسح له الوقت هنا ليلعن فى سره جميع المبارزات وجميع المشاحنات وكل ضرب من ضروب البطولة وسائر مايسمونه قضايا الشرف على اختلاف الوانها . واخيرا هب من مجلسه وهو موطن النفس على التصريح أو الفرار . واقبل فتناول ـ معجلا ومن غير كلام ـ يد « بيلاجيا بتروفنا » وانحنى يلثمها فأخفى بذلك وجهه عنها واذا سيل من الدمع السخين المدرار ينهمر فوقها . ثم انتزع نفسه وانطلق لايلوى على شيء ، وأخذ عند الباب معطفه الكثيف وخرج من البيت دون أن يقول كلمة

وتطلعت بيلاجيا بتروفنا وراءه مندهشة ، وقالت فى نفسها « لاشك أيضا عاشق ، مسكين .. كان الله فى عونه . أنها لوعة الصبا تلوعهم ومن بعدها السعادة »

ثم سرعان ما نسيته وغاب أمره عن بالها ، واستغرقت العجوز فى أحلامها بالسعادة تتراءى لها محققة كاملة !

الصمت

« ل : ليونيد أندرييف »

في ليلة مقمرة من ليالي ايار ، والبلابل يلعلع صوتها في القمراء شادية مشجية ، اقبلت اولجا ستبانو فنا على زوجها الاب اجناتي وهو جالس الى مكتبه . وكانت أسارير وجهها ناطقة بأمض الحزن واوجعه والسراج في يدها مهتز مرتجف . فلما دانته ، لمست براحتها منكبه وقالت مختنقة الصوت مجهشة :

ـ أبتاه ، لنصعد الى ابنتنا فيروتشكا !

فتجهم الاب اجناتي وقطب حاجبيه من فوق عدساته ولم يلتفت اليها ، وظل شاخصا ببصره في الفضاء طويلا حتى أسقط في يدها فقلبت كفها تقليب المهموم الجزع وتهالكت على أريكة منخفضة هناك وقالت :

ـ ما أقساكما كليكما !

قالت ذلك بصوت متئد وشددت على لفظ « كليكما » أبلغ التشديد وافجعه وقد تقلص وجهها المطهم الحنون بأمارات من الالم والعنت وكانما أرادت ان تفصح بسيماها وامارات محياها عن مبلغ ماتعاني من قسوة القوم : زوجها وابنتها.

وأرسل اجناتي ضحكة فاترة ونهض . ثم أطبق كتابه وخلع عدساته ودسها في علبته واطال التفكير مكتئبا . وقد استرسلت على صدره أجمل استرسال لحية جثلة

وخطها المشيب وكانت تعلو وتهبط فى هوادة مع أنفاسه المرددة العميقة . وبعد هنيهة قال : « حسن . نذهب »

فهبت أولجا واقفة . وقالت تناشده بصوت متوجس متزلف : « وانما رجائى اليك يا ابتاه الا تعنفها انت تعرف طباعها » ..

وكانت غرفة فيروتشكا على سطح المنزل ، والدرج المؤدى اليها خشبى ضيق فكان ينيخ ويصر تحت أقدام الاب اجناتى وخطاه الثقيلة . وقد اضطر الرجل لطول قامته وعظم جرمه ان ينحنى حتى لاتصطدم هامته بسقف السلم . وكانت زوجته فى ثوبها الابيض فلمس ردنها وجهه فانقبضت أساريره وعبس متململا متبرما وولج الغرفة وراءها وهو موقن انهما لن يخرجا من الحديث عن ابنتهما فيرا بأدنى طائل

وقالت فيرا : « ياالله هذا انتما ؟ » ورفعت الى عينيها ذراعا عارية . وبقيت ذراعها الاخرى على اللحاف الصيفى الابيض تتميز عنه لفرط بياضها وشفوف لونها وبرودة مجسها ..

فابتدرتها الام بندائها « فيروتشكا » وخنقتها العبرة فسكتت . وقال الاب اجناتى وهو يجاهد للتلطيف من خشونة صوته وجفوته : « فيرا أخبرينا ماذا بك ؟ »
فظلت فيروتشكا صامتة

وعاود الاب اجناتى خطابه : « فيرا .. أترين أمك وانا غير أهل لمناجاتنا بأمرك والاستراحة الينا بذات صدرك ؟ السنا نحبك ؟ وهل لك من أحد هو أقرب اليك وامس بك منا ؟ بنى الينا شجوك وصدقينى ـ انا الشيخ المجرب ـ انك واجدة بعدها بعض الراحة ، وكذلك نحن انظرى الى أمك العجوز وكيف عذابها . فيروتشكا ، وآنا .. » وهنا

تهدج صوته وكأنما انشعب شيء فيه وانصدع شطرين « .. وانا أيهون ذلك علي ، تحسبينه يهون ؟ كأني لست أبصرك نهب لوعة ... ولكن ماهي ؟ وانا ابوك تتركيني على جهل بها ايصح هذا ؟ »

ولكن فيروتشكا مابرحت صامتة والاب اجناتي جالس حيالها يعبث بلحيته ويمسح عليها في تحفظ ظاهر كأنما يخشى أن تنالها بالنتف اصابعه المضطربة من حيث لايشعر ومضى في حديثه يقول :

« خالفت مشيئتي وذهبت الى بتروغراد — فهل لعنتك على مخالفتك اياي ؟ اكنت عليك يوما بالمال ضنينا ؟ اتقولين انى لم اك برا بك ، حدبا عليك ؟ اذن لم لا تتكلمين ؟ انظرى اى خير اصبت من بتروغراد ! »

وانقطع الاب اجناتي عن الكلام فجأة ، وتمثل لخاطره كالعيان بناء من الجرانيت هائل رهيب حافل باخطار راصدة كامنة مكتظ بخلق غريبة اطوارهم جاسية مشاعرهم وهنا ذهبت فيروتشكا وحيدة ضعيفة ، وهنا كان تلفها وضياعها . فجاشت في نفس الاب اجناتي نقمة على تلك المدينة الهائلة الغامضة تشوبها النقمة على ابنته تلك التي ما فتئت صامتة في تشبث وعناد ..

أما هي فأجابته بجفاء وقد أطبقت جفنيها :

— لا دخل البتة لبتروغراد فيما انا فيه . على انه لا شيء بي . والاولى أن تذهبا للنوم فالساعة متأخرة

فأنت الام: «فيروتشكا اطمئني الى بسريرتك يابنيتي!»

فقاطعتها فيروتشكا نافدة الصبر : « كفى يا أمي »

وجلس الاب اجناتي على مقعد وجعل يضحك ، ثم قال متهكما : « حسن والله ! ليس في الامر شيء بعد هذا كله ؟ »

فأجابت فيروتشكا بلهجة حادة وقد اقامت صــــعدتها واستوفزت فى فراشها :

« أبت انت تعلم حبى لك ولامى ولكنى انما اشعر بخمود شديد وسيزول هذا كله .. والحق انه أولى لكما الذهاب للنوم وانى لراغبة فيه أيضا ٠٠ غداً او فى يوم من الايام سيكون لنا متسع للحديث »

فهب الاب اجناتى قائما قومة واحدة حتى ارتج مقعده وصدم الحائط وراءه واخذ بذراع زوجته قائلا «لنذهب»

فانت هذه « فيروتشكا ... »

فصاح بها الاب اجناتى : « قلت لك لنـذهب . واذا كانت قد نسيت الله ، فهل ننساه مثلها ولماذا ٠٠ »

واجتذبها للخروج فى شيء من العنوة والقســـوة . وكانت ــ وهما يهبطان السلم ــ تجر اقدامها جــرا يزداد تثاقلا وضعفا . وغمغمت المرأة فى همسة مغضبة « اف ! انت ايها القس الذى جعلتها كذلك . عنك دون سواك أخذت هذا الطبع ، انك لمسئول عنه ٠٠ آه يارَبى ما اتعسنى ! »

وجعلت تولول واكفة الدمع مطروفة الجفن حتى لم تعــد تتبين مواقع خطاها بل كانت تاركة قــدمها تهبط الدرج كأنه هاوية ترغب فى التردى فيها .

ومن ذلك الحين صحت عزيمة الاب أجناتى الا يكلم ابنته . وكانما لم تفطن الابنة الى هذا التغيير منه وظلت كعهدها تضطجع آونة فى غرفتها وآونة تعمد الى الخروج . وكانت كثيرا ما تمسح بالراحتين عينيها كأن عليهما غشاوة . ولكن صمت الاب وابنته كان يثقل على الام وتكربها فباتت وهى ــ بالامس ــ المولعة بالمزاح والضحك ابعد أهل الارض

منهما فتراها ذاهلة منقبضة لا تكاد تعرف ماذا تقــول او ماذا تفعل ..

كانت فيروتشكا ــ كما تقدم القول ــ تخــرج احيانا تتمشى وتعود . فحدث بعد أسبوع من المقابلة الآنفــه الذكر ان خرجت خروجها المعتاد كل مساء . وشـــاء القدر أن تكون هذه آخر رؤيتهما لها حية ، فانها فى ذلك المساء ألقت بنفسها تحت عجلات القطار فشطرها نصفين .

وقام الاب اجناتى بدفنها ولم تشهــد زوجه حفــلة الصلاة فى الكنيسة لان صدمة نعى فيروتشكا أصــابتها بالفالج فقدماها وذراعاها ولسانها جميعا مشلولة الحركة فبقيت طريحة الفراش فى غرفة محجوبة الضوء . وعلى مقربة منها تدق الاجراس فى القباب معولة نادبة . وانها لتسمع موكب الجنازة خارجا من الكنيسة وتسمع المرتلين ينشدون فى مرورهم امام المنزل ولقد همت لترفع يدها وترسم اشارة الصليب فلم تطاوعها يدها . وارادت ان تقول « الوداع يا فيروتشكا » ولكن لسانها لصب فى فمها هامدا مورما ثقيلا . وهكذا بقيت طريحة بلا حراك حتى ليحسبها الرائى هاجعة فى ثقلة الكرى لولا عيناها المفتوحتان

وشهد الجنازة فى الكنيسة جمع حافل من معــارف الاب اجناتى والفرباء عنه . وكلهم مترحم على فيروتشكا متوجع لمصرعها . وهم فى الوقت نفسه يتتبعون حركات الأب اجناتى ونبرات صوته ليستدلوا بهــا على عميــق حزنه ولاعج جواه اذ كانوا فى قرارة نفوسهم لا يحبون القس لما فى خلقه من عنجهية وعجرفة ، ولشـــدته وصرامته مع من أذنب منهم ــ ثم أراد على يديه التوبة والانابة ــ فضلا عن أنه حسود جشع لا تعرض له فرصة الا انتهزها ليتقاضى من دائنيه أكثر من حقــه • فــهم

جميعا يودون التشفى برؤيته متألما كسيرا ، يودون أن يروا منه الاقرار على نفسه بذنبه المضاعف فى مصرع ابنته ـ بصفته ابا فظا غليظ الطبع ثم بصفته قسا ظهر عجزه عن وقاية لحمه ودمه وفلذة كبده من الخطيئة .. وهم قد أمعنوا فى ملاحظته والتطلع اليه . ولكن الاب اجناتى كان قد آنس اتجاه انظارهم اجمعين الى كاهله العريض المكين ليروا كيف تنحنى قنـــاته ويطاطىء اشرافه تحت وقـــر الفادحة فلم يأل جهدا فى نصب قامته واقامة صعدته . وكان فى تلك الساعة اقل تفكيرا فى فقد ابنته منه فى صون كرامته

والمع كرزنوف وقد انفض رأسه الى ناحيته : « قس صلب منيع » وكرزنوف هذا نجار يدين القس بثمن بعض الاطر

وعلى هذه الحال من رباطة الجاش واستقامة الشطاط سار الاب اجناتى الى المدفن وعلى هذه الحال نفســـها عاد منه ، حتى اذا كان باب غرفة زوجته انحنى كاهلـــه قليلا ـ وقـــد يكون ســـبب ذلك ان الباب دون قامته ارتفاعا . وكان الرجل قادما من وضح النور فلم يتبين وجه زوجته عند دخوله عليها فلما ان تبينه وجـــدها هادئة . ووجد انه لا مدمع فى عينيها ، وليس بهما نقمة ولا حزن فهما خرساوان صامتتان صمت ألم وعناد وكذلك كان جسمها البدين المتراخى المسند الى حاجز الفراش.

فسألها : « والآن ماذا ؟ .. كيف حالك ؟ » ..

ولكن شفتيها ظلتا خرساوين وعينيها ما زالتا صامتتين فوضع الاب اجناتى راحته على جبينها فاذا هو خصر رطب ولم يبد من اولجا ستبانفنا ادنى دلالة على انهـــا احست لمسته فلما ان رفع راحته عن جبينها كانت عينان غائرتان سوداوان تشخصان اليه منهما دون ان يطرف لهما هدب وتكاد تكون حدقة العينين فاحمة كلها بسبب

تمدد انسانهما ولم يكن فيهما حزن ولا نقمة .

فغمغم الاب اجناتى وقد بردت اطرافه وارتعدت فرائصه : « حسن انا ذاهب الى غرفتى »

واجتاز قاعة الاستقبال حيث كل شيء كعهده نظيف مرتب والمقاعد الكبيرة مسربلة فى اغطيتها البيضاء كانها الموتى فى اكفانها . وفى احدى النوافذ قفص معلق ولكنه كان خاويا وبابه مفتوح .

ونادى الاب اجناتى « نستاسيا » فبدا له ان صوته اجش واحس انه يسيء صنعا بعيد جنازة ابنته ان يرفع الصوت الى هذا الحد فى تلك الحجرات الهادئة فعاود النداء بصوت أكثر تلطفا وخفوتا :

« نستاسيا اين الكنارى ؟ »

فاقبلت الطاهية وانفها من كثرة النحيب منتفخ وارم ولونه قان كالجزر واجابت بجفاء « لا أدرى لقد طار » فقطب الاب اجناتى حاجبيه مغضبا وصاح بها : « وكيف تركته يطير ؟ » .

فاجهشت تبكى وتمسح دموعها بذوائب المنديل المعصوب به رأسها وقالت : « انه الروح الجميلة العزيزة لسيدتى الصغيرة الراحلة فكيف لى بحبسه ؟ »

وخيل الى الاب اجناتى نفسه ان الكنارى الصغير الفاقع اللون السعيد الذى كان دأبه التغريد شامخا برأسه كان حقيقة روح فيروتشكا وانه لو لم يطر الكنارى لما صح القول بموت فيروتشكا .

فاشتدت نقمته على الطاهية وصرخ بها : « اغربى عن وجهى » ولما لم تبادر الى الباب توا زاد : « مجنونة » .

ومنذ يوم الجنازة والصمت مخيم على هذه الدار الصغيرة .. وليس المراد بالصمت هنا السكون ،

فالسكون انما هو عدم الجلبة . واما الذى هنا فهو الصمت وذلك أنه يشعر ان الذين التزموه فى مقدورهم الكلام لو شاءوا . وهذا الشعور يقع فى نفس الاب اجناتى حين يلج غرفة زوجته فيلاقى نظرتها الشاخصة ملحة ثقيلة حتى لكأنما استحال هواء الغرفة رصاصا يضغط على رأسه وينقض على ظهره . وهذا الشعور يقع فى نفسه حين يتأمل معزف ابنته الذى انطبع عليه صوتها الحى ، وحين يتطلع الى كتبها ويقبل على صورتها — وهى صورة لها بالالوان جاءت بها معها من بتروغراد — ولقد اخذ على نهج خاص يتفرس فيها .

فهو يقبل أول ما يقبل من الصورة على عنقها يتأمله وهو منها بمطرح الضوء ، فيخيل اليه ان عليه فى الصورة خدشا كالذى كان على جيد فيروتشكا الميتة . وانه لفى حيرة من أمر هذا الخدش ومنشئه ، وهو فى كل مرة يعمل الفكر للاهتداء الى سببه وعلته . فلو ان القطار هو الذى صدمها فى هذا الموضع لكان هشم راسها باكمله ، وراس فيرا الميتة سليم كل السلامة .

أترى بعضهم وطأها برجله وهم يرفعون الجثة لحملها الى المنزل أم انه اثر ظفر خدشها من غير قصد ؟

ولكن اطالة التفكير فى تفصيل مصرعها كان يشق على الاب اجناتى ويروعه ، فيتحول عندها الى تأمل عينيها فى الصورة . وكانتا سوداوين نجلاوين وكان لاهدابهما الوطفاء ظل وريف تحتهما يزيد بياض المقلتين نصوعا فتبدو العينان وكأنهما فى اطارين من اطر الحداد السود وقد جعل لها المصور المجهول — وهو لاشك من الفنانين الموهوبين — معنى غريبا . فقد كان يخيل ان بين هاتين العينين وبين ماتقعان عليه غشاء رقيقا شفيفا ، كما تعلو

غطاء معزف البيانو اللامع السواد غشاوة من غبار الصيف خفيفة لا تكاد تبين وهي على خفائهـــا تكمــد من لألاء الخشب المجلو . وكان الاب اجناتي في حيثما وضـــع الصورة تابعته عيناها غير ناطقتين ، بل ابدا صامتتين . وبان للصمت في المنزل وجود ظاهر حتى ليخيــل أن في الامكان سماعه . وما زالت الحال على هذا المنوال حتى وقر في نفس الاب اجناتي انه يسمع الصمت .

وكان الاب اجناتي بعد تأدية القربان المقدس في كل صباح يقصد الى قاعة الجلوس ويأخذ بصره لمحة واحدة قفص الكنارى الخاوى وسائر الاثاث في ترتيبه المعهود فيجلس في أحد المقاعدالكبيرة ويطبق جفنيه ويستمع الى صمت المنزل . وكان امرا عجبا فالقفص صامت في وداعة ولطف وفي هـــذا الصمت كان يحس الاسي والدمــوع والضحك الفقيد البعيد جميعا . ثم صمت الزوجة وكان مع قيام الجدران من دونه واثر اعتراضهـــا في تخفيف وطأته لا يزال ملحا ثقيلا كالرصاص .. ومرعبا ، مرعبا حتى ليأخذه برد القرور في أشد الايام وقدة قيظ . اما الابنة فكان صمتها لا آخر له باردا كالقبر غامضا كالموت ، ثم كان الصمت كأنما يشقى بنفسه وكأنمــا يتلهف على التحول الى نطق لولا أن شيئا له قوة الالة وجمـــودها يمسكه عن الحركة ويمده كامتداد السلك . واذا السلك يهتز من مكان بعيد لا يعرفه على وجه التحديد ، ويصدر عنه صوت ناعم خافت حنون . فيحفز الاب اجناتي حافز من الرغبة المشوبة بالرهبة التى تسقط بادرة هذا الصوت فيشد بكفيه على جانبي المقعد ويمد رأسه متسمما مترقبا بلوغ الصوت اليه، ولكن الصوت ينقطع وينطوى في غمرة الصمت

ويهتف الاب اجناتي وقد ركبه الغضب « عبث باطل

واضغاث أحلام » ويهب من مقعده مديد الشطاط ناصب القامة كعهده على الدوام .

وكانت نافذة القاعة تشرف على ساحة السوق السابحة فى وضح الشمس والساحة مرصوفة بحجارة مصقولة الاطراف ممردة . وفى الناحية الاخرى يقوم سور حجرى ممدود لا نوافذ له وهو لمخزن من مخازن البضاعة . وكانت فى الركن مركبة واقفة كأنها نصب من الطين قائم ولم يكن السبب مفهوما فى استمرار وقوفها هناك مع ان الساعات الطويلة تنقضى ولايظهر عابر واحد فى هذا الطريق.

وكان على الاب اجناتى فى خارج البيت أن يتحدث الى الكثيرين : مع مرؤوسيه من رجال الدين ومع السكان فى دائرته الكنسية فى أثناء قيامه بفرائضه وأحيانا مع معارفه يحاورهم فيما هو مأثور ومحمود ، ولكنه كان حين يؤوب وتحتويه غرفته يخيل اليه أنه قضى سحابة نهاره صامتا ذلك أنه لم يكن ليتحدث الى واحد من هؤلاء عن المسألة التى هى عنده أم المسائل واهمها والتى تهيج كل ليلة بلابله وتلج خاطره : فيم ميتة فيروتشكا ؟! ..

ولقد أبى الاب اجناتى التسليم بينه وبين نفسه باستحالة حل هذه المعضلة ولم يزل على اعتقاده بامكان كشفها وجلاء غامضها

فكان يحيى لياليه مسهدا تعاوده كل ليلة ذكرى اللحظة التى وقف فيها وزوجته فى جوف الليل الى فراش فيروتشكا وهو يستعطفها ويسوق اليها الرجاء أن «تكلمى» فاذا بلغت به الذكرى الى هذه الكلمة تمثلت له بقية المشهد على خلاف ما وقع . ولقد ادخرت عيناه المطبقتان فى ظلامهما صورة حية لا لبس بها من تلك الليلة ، فهما تمثلان فى جلاء فيروتشكا وقد استوفزت فى فراشها وقالت مبتسمة ولكن ماذا قالت ؟ .. ان تلك الكلمة التى لم

تلفظها والتى بها جلاء المشكل كله تلك الكلمة تبدو كأنهــا قريبة جد قريبة •• فلو أنه يرهف سمعه ويسكت خفقان قلبه اذن لسمعها — ولكنها فى الوقت نفسه كانت بعيدة بلا حد وبغير أمل ••

عندها يهب الاب اجناتى من فراشـــه ويبســط يديه مضمومتين معا فى توسل وضراعة مناديا : «فيروتشكا» ..

ولا جواب على ندائه الا الصمت ••

وفى ذات مساء قصـــد الاب اجناتى الى غرفـــة أولجا اسيبانفنا زوجته بعد انقطاعه عنها زهاء أســبوع وجلس عند فراشها وهو مشيح بوجهه عن ناظريها الشاخصين الفاجعين وقال :

«أيتها الام أريد التحدث معك عن فيروتشكا أتسمعين ؟»

فظل ناظراها صامتين فرفع الاب اجناتى عقيرته واشتد مثل شدته مع المعترفين فى خطابها :

« أعرف انك تحملين على الذنب فى مصرع فيروتشكا • ولكن مهلا أكنت أقل منك حبا لها ؟ انك لغريبــة الرأى — لقد كنت متزمتا متشدداً ولـــكن هل حال ذلك بينها وبين ما شاءت ؟ لقد تغاضيت عما لى عليهـــا من حق الوالد فى الحرمة والاعتبار فطأطأت صاغرا حين ارتحلت — غير حافلة نقمتى واستنزال لعنتى — الى هنالك ، وأنت —أيتها الام— ألم تضرعى اليها باكية تناشدينها البقـاء حتى أمرتك أن تكفى ؟ أمسئول أنا عن أنها ولدت قاسية القلب ؟ ألم أعلمها ما ينبغى علمه عن الله والطاعة والحب ؟ »

وأدار الاب اجناتى ناحية زوجته نظرة خاطفة الى عينيها الشاخصتين ثم أشاح مستأنفا :

« ماذا كنت صانعا معها وقد أوصدت دونى مغاليق صدرها وأبت الكشف لى عن شجوها • أكنت آمرها ؟لقد

أمرتها • أكنت أستعطفها ؟ لقد استعطفتها • ماذا ؟ أترين أنه كان على أن أجثو عند قدمي الصبية راكعا وأنتحب كالمرأة العجوز ؟ •• ما الذى قام بعقلها ، ومن أين أصابها ما أصابها ، لست أدرى • يا لها من ابنة عاقة لا قلب لها !!

ودق الاب اجناتى على ركبتيه بجمع يديه

« لقد تجردت من الحب ــ هو ذاك • انى أعرف ما كانت تصفنى به ، مستبد غشوم • وأنت كانت تحبك أليس كذلك ؟ أنت التى بكيت و •• تذللت ؟ »

وضحك الاب اجناتى ضحكة خافتة :

« تحبك أى نعم ! وهي ــ برا بك ــ قد اختارت هذه الميتة ، ميتة شنيعة شائنة ! فماتت على القضض والحصى المفروشة به السكة الحديدية ، ماتت على الاقذار •• كالكلب جندلته رفسة بالنعل على خطمه »

وغمغم الاب اجناتى بصوت هامس أبح :

« ما أشد خزيى ! انى ليتولانى الخزى اذا خرجت الى الطريق ، يتولانى اذا خرجت من المحراب ، يتولانى بين يدى الله • يا لك ابنة قاسية خسيسة •• انك لتستحقين اللعنة فى قبرك »

وألقى الاب اجناتى على زوجتـــه نظرة ثانيـــة فاذا هى مغشى عليها ولم تفق من غشيتها الا بعد ساعات . ولما أفاقت كانت عيناها صامتتين ، هيهات يعلم الناظر اليهما ان كانت فقهت أو لم تفقه مقال الاب اجناتى لها

وفى تلك الليلة ــ وكانت ليلة مقمرة من ليـــالى تموز ساجية دافئة يخيم السكون عليها ــ قام الاب اجناتى يدب على أطراف قدميه حتى لا تسمعه الزوجة ولا ممرضـــتها وصعد السلم الى غرفة فيروتشكا وكانت نافذتها من يوم وفاة ابنته لم تفتح،وكان فى جوها حرارة وجفاف تشوبهما

رائحة احتراق خفيفة من حديد السقف المستهدف طـوال النهار لوقدة الشمس • وكان احساس الوحشة والاقواء مخيما على الغرفة التى طالت غيبة الانسان عنها ، وكانت الالواح الكاسية لجدرانها وسائر ما بها من الاثاث وغـيره يتفاوح منها مثل ريح العطن والانحلال

وكان ضياء القمر ينفذ من زجاج النافذة وينبسط على أرض الغرفة كشريط وضاء ،وكانت تعكسه المناضدبطلائها الابيض الناصع فينير أركان الغرفة بنور كليل شعشانى ويبـدو الفـــراش الابيض النظيف بوســـادتيه الكبرى والصغرى وكأنه شبح من عـالم الاطيـــاف • وفتح الاب اجناتى النافذة فاندفع الى داخل الغـرفة تيـــار غمره من الهواء النقى يستروح فيه التناشق تراب النهـر المجـاور وعبق الزيزفونة المزهرة ويحمـــل الى المستمع المصغى نشيدا خفيضا لعله لقوم فى قارب على النهر يجدفون وفى تجديفهم ينشدون ••

ودب الاب اجناتى عارى القدمين كأنه الطيف لا يحدث صوتا ودنا من الفراش الخاوى وخر مكبا على وجهـه فوق الوسائد يضمها ــ فى حيث كان متوسد وجه فيروتشـكا

وظل على هذه الحال طويلا ••• وتعـــالى النشيد فى الخارج ثم أخذ يخفت حتى لم يعد مســـموعا ••• والاب اجنـــاتى لا يزال فى مكانه وشعره المرسل مشعث مهدل على كتفيه وعلى الفراش

ودلف القمر فى مسراه مجتـــازا فأظلمت الغــــرفة واستفاضت العتمة ، ورفع الاب اجناتى رأسه وهتف بصوت أفرغ فيه كل حبه الذى كبته وأطال كظمه بلا بث ولا تصريح • وكان يهتف وينصت لما يقول وكأن المنصت ليس هو وانما هى فيرا : « فيرا يا ابنتى ! أتدركين معنى

ابنتى ؟ يا بنيتى ! مهجتى ! دمى حياتى ! هذا أبوك ،أبوك الشيخ المسكين وقد علاه الشيب وخذلتـــه القـــوى » ٠

وانتفض منكباه وسرت رجفة فى كيانه الضليع من فرعه الى أخمص قدمه . ثم همس متهدجا فى صوت رفيق لين كأنما يناغى طفله :

« أبوك الشيخ المسكين يسائلك ٠٠ نعم يافـــيرا انه يستعطفك ٠ انه ليبكى ولم يكن البكاء قط من شأنه ٠ ان الملك يا بنيتى ولوعتك يحزان فى نفسى كما لو كانا بى ٠ بل أشد وأنكى »

وهز الاب اجناتى رأسه :

«أشد وأنكى يا فيرا٠وما يكون الموت عندىأنا الشيخ ؟ ولكن أنت ٠٠٠ آه لو علمت ما كان من رقتك ولطافة بنيتك ومبلغ حيائك وتهيبك ! أتذكرين اذ وخزت ابرة أصبعك ونضح منها الدم فطفقت تصرخين ٠ نعم يا بنيتى ! وكنت تحبيننى حقا بل تشغفين بى حبا ٠ أعلم ذلك ، وكنت فى كل صباح تقبلين يدى ٠ تكلمى ، خبرينى عن هذا الذى يحزنك . فانى بهاتين اليدين خانق حزنك ٠ انهما مابرحتا قويتين هاتان اليدان يا فيرا »

واهتزت خصائل شعره : « تكلمى »

وشخص بعينيه الى الحائط وبسط يديه وصاح :

« تكلمى » ٠٠

ولكن الغرفة صامتة ٠ ثم حملت الريح اليها من بعد سحيق هتفات مديدة ومقتضبة من صفير قطار عابر ٠٠

فأدار الاب اجناتى عينين اتسع حملاقهمـــا كأن أمامه شبح الجثة مبتورة الاشلاء ممثلا لعيانه ٠ ثم نهض من ركوعه على مهل متساندا ، ورفع كالذاهل الى رأسه يدا مشنجة منفرجة الاشاجع ممدودة الاصـــابع ٠ ومضى الاب اجناتى الى الباب وفى خروجه همس فى حدة : « تكلمى »

فكان جوابه الصمت ..

في اليوم التالي تناول الاب اجناتي غذاءه على انفراد مبكرا ثم أخذ سمته الى المدفن لاول مرة بعد وفاة ابنته . وكان المدفن موصدا مهجورا لا تحس فيه نأمة حتى لكأن النهار القائظ لفرط هدوئه ليلة منـــيرة اضحيانة على أن الاب اجناتي نصب قامته كدأبه مجاهدا ، وأدار بصره من جانب لاخر بجفوة وصرامة وهو يزعم أنه كعهده بنفسه لم يتغير ولم يفطن الى تخاذل طارئ فظيع يفت في ساقيه ولم ير الى لحيته المسترسلة قد اشتعلت شيبا كأنما أصابهـا صـقيع هتون . وكانت الطريق الى المدفن طويلة ممتدة مستقيمة الامتداد آخذة في ارتفاع لطيف المـرتقى وفي اخرها باب المدفن من خشب الزيزفون يظلله سقف أبيض ملتمع فكأنه فم مسود الحلق فاغر الشدقين وعلى حافتـــه أنياب قواطع لوامع

وكان قبر فيرا موغلا في جـــوف المدفن بعد أن تنتهي المماشي المفروشة بالحصـــباء . فكان على الاب اجناتي أن يطيل الطواف في مسالك ضيقة مجتـــازا بمنعرجات من كثبان صغيرة من الاجداث ناتئة بين الحشـــائش مهمـلة منسية من الجميع . وكان يلتقي هنا وهناك بأنصـــاب متداعية حائلة اللون مخضرة من القدم وحواجـــز مقوضة متهدمة ورجام من الحجارة ثقال ضخام ملقاة تبهظ صدر الثرى كأن بها عليه حقدا كحقد الشيخ باسرا متجهما

وعلى مقربة من بعض هذه الرجام كان قبر فيرا . وكان المدر المعشوشب فوقه مصفرا ذابلا على حداثة عهده وعلى حين كان ما حوله كله يانعا ناضرا

وكانت هناك دوحتان متشابكتان ، والى ناحية منهما خميلة ممتدة من شجيرات البندق وارفة الظـــل تبسط

أفنانها اللينة الاعطاف بأوراقها المخشوشنة الوبراء على القبر

فجلس الاب اجناتى على ضريح تجاه ضريح ابنته وهو يتنهد بين الفينة والاخرى وجعل يتلفت حواليـــه والقى نظرة على صحراء السماء الضاحية • وكان قرص الشمس المتقد معلقا فى مكانه جامدا بغير حراك فأحس الساعة فقط عمق ما يرين على المدفن من سكون ليس كمثـله ســكون والريح هامدة لا تهفو لها نسمة فى الاوراق الجافة الميتة وقام فى خاطر الاب اجناتى مرة اخرى أن هـــذا ليس بالسكون ولكنه الصمت وفاض الصمت فاض وطم حتى بلغ أسوار المدفن نفسها وتسورها متثاقلا وانساح يغمر المدينة واما آخر طرفه الاخر فانما هو هنـــالك فى هاتين العينين السوداوين الشاخصتين المصرتين فى تعنت وعناد على الصمت ••

هز الاب اجناتى كتفيه وقد سرت البرودة فيهمـــا • وسرح نظره على قبر فيرا • وطال تأمله لعيدان الحشائش القصيرة المصوحة وقد كان انتزاعها من منـــابتها ببعض الرياض النزهة الفيحاء فلم يتهيأ لها تأصل وترعرع فى هذه التربة الجديدة

ولقد عز على الآب اجناتى أن يعقل انه من تحت هذه الحشائش هنا وعلى بعد بضعة أشبار منه ترقد فيرا ربدا له أن تدانى الشقة الى هذا الحـــد أمر غير معقول • وان نفسه ليخامرها من ذلك حيرة وتوجس غريب فتلك ا... تعود التفكير فيها على أنها طويت فى ظلام الابدية السحيق طى الابد كيف تكون هنا قريبة ؟ وأنه لعسير على الفهم أن تكون مع هذا القرب كله قد غابت عن الوجود وانها لن تعود

وخيل الى الاب اجناتى أنه لو نبس بكلمة •• بالكلمة التى يكاد يحسها على شفتيه أو أنه لو أومأ باشارة لاقبلت عليه

من القبر ووقفت أمامه ممشوقة القد جميلة كعهده بهـا . ثم انها لا تقوم وحدها بل ان الموتى أجمعـين الذين نحس بهم ونرتاع من رهبة صمتهم وبروده كل هؤلاء أيضا يقومون

وخلع الاب اجناتي قبعته السوداء العريضة الحاشية ومسح بيده على ذوائبه المشعثة وهمس مناديا : « فيرا »

ثم أوجس أن يكون بمسمع منه غريب فاعتلى الضريح وتطلع من فوق الصلبان ولم يكن على القرب أحـد فأعاد النداء رافعا صوته : « فيرا »

وكان صوته صوت الاب اجناتي المعهود من قديم جاثما آمرا فكان عجيبا أن نداء بهذه القوة يبقى بغير جواب: « فيرا »

***

ومضى الصوت ينادى عاليا ملحا ، فلما أن سكت لحظة خيل للاب اجناتى أن جوابا غامضا دوى من تحت أطباق الثرى .. فتلفت حواليه مرة ثانية ، ورفع مسترسل لحيته عن أذنيه وألصقهما على المدر المخشوشن الشـائك فوق القبر ونادى : « فيرا تكلمى »

فأحس الاب اجناتى وهو فزع أن شيئا له برودة القبر قد نفذ الى أذنه وجمد له عقله وان فيرا تكلمت ولكن كلامها هو الصمت الطويل نفسه وظل الصمت يزيد روعة وهولا. ولما اجتذب الاب اجناتى رأسه عن الارض ووجهه شـاحب كوجه الميت خيل اليه كأنه الهواء يهتز وينبض بصمت ذى صدى مرنان وكأن ريحا عاتيـة ثارت على ذاك العيلم المخوف . لقد أخذ الصمت بكظمه وأزهق أنفاسه وجعلت موجاته الثلجية تتدفع فى رأسه جيئة وذهابا فيقف لهـا شعره أشعث مستطارا ثم تتدفع فى صدره وتتكسر عليـه فيئن ويتأوه من وقع صدماتها . ولقد ظل مرتعد الفرائص يقلب الحاظا عصبية خاطفة من ناحية لاخرى ثم قام متحاملا

فى اتئاد وبطء ، وجاهد أشد الجهد واتكاه ليرفع قامته ويرد الى بدنه المرتجف مشية الكبرياء المعهودة • وقــد أفلح بعد لأى وأخذ ينفض التراب عن ركبتيه متمهـــلا متروويا ولبس القبعة ورسم آشارة الصليب ثلاثا على القبر ثم دلف بخطوات متزنة ثابتة على أنه مع ذلك لم يكن ليتبين وجه الطريق • لقد تنكرت عليه معالم المدفن وهو العليم بها واختلطت عليه فضل السبيل

***

وعند مفترق المســـالك وقف جامدا فى مكانه وهو يضحك : « ضللت السبيل »

وطالت وقفته برهة ثم عرج من غير تفكير الى يساره ذلك أنه ما كان ليطيق الوقوف هنا جامدا ينتظر • لقــد انحدر الى اليسار وتبعه الصمت على الاثر • ان الصمت فى أثره يخرج من اللحود المعشوشبة وتتنفس عنه الصلبان الداكنة المتجهمة وتتصاعد هبوات دقيقة خانقة من الارض المتشبعة برمم الموتى والاب اجناتى يضاعف خطاه مسرعا • لقد سدر بصره وذهل عن نفسه فهو يطوف فى المســـالك بعينها المرة بعد الاخرى واثبا فوق القبور متعثرا بالحواجز متشبثا بالاكاليل وهى من صفيح شائك الاطراف مكسو فيتمزق قماشها الرقيق الناعم فى يديه • انه ذاهل لا يلوى الا على شيء واحد : الخروج من هذا المكان • فهو يندفع من ناحية الى أخرى فى كل صوت وأخيرا انطلق يعدو فى سكون سبحا مديد القامة لا تكاد تتعرفه فى برنسه الخافق وراءه وشعره المتهدل مرسل فى الهواء

ان رؤية ميت قائم من القبر لأخف هولا من ملاقاة هذا الرجل طالعا عليك بمنظره الاشعث راكضا واثبا ملوحا بذراعيه تتبين وجهه ممسوخ السحنة مجنونها وتسمـع

حشرجة أنفاسه تتدافع فى لغط أجش من فمه الفاغر ٠

وانتهى الاب اجناتى وهو فى أقصى سرعته الى الرحبة الصغيرة التى تقوم كنيسة المدفن فى طرفهـــا متطامنة مجصصة ٠ وكان على المقعد الطويل عند مدخلها شيخ مهوم يلوح كالحاج من بعيد ، والى مقـــربة منه امرأتان من العجائز المتسولات فى عراك وشجار تتلاحيان وتتباهلان ٠

***

ولما أن بلغ الاب اجناتى منزله كان الليــــــل قد دجا والمصبـــاح قد أسرج فى غرفة أولجـــا استبانفنــــا فأقبل عليها دون أن يبدل ثيابه أو ينزع قبعته الممزقة المتربة وترامى على قدمى زوجته راكعا وهتف منتحبا :

« أيتها الام – أولجا – رحماك رقى لحالى أكاد أفقـد صوابى » ٠٠

وضرب حافة المائدة برأسه وارتفع له عويل صـــاخب وجيع شأن الكظيم ينتحب لاول مرة ٠ ثم رفع رأسه وهو على يقين جازم من وشك وقوع معجزة بعد ذلك فتتكلم زوجته وترق لحاله : « يا زوجتى العزيزة »

وأقبل عليها بكل جسمه الضخم ضارعا اليها مستعطفا اياها فالتقى بالنظرة الشاخصة من عينيها السوداوين ولم يكن فيهما رحمة ولا نقمة ٠٠ أو قد صفحت عنه زوجته ورقت لحاله ؟ ولكن عينيها لا رحمة فيهما ولا مغفرة ٠ انهما على حالهما خرساوان صامتتان ٠٠

والبيت كله موحش ، صامت ٠٠ !

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL

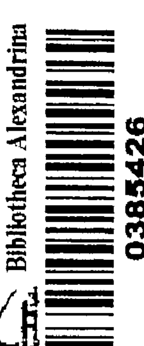
هذا الكتاب

تعرض هذه المجموعة نمـــاذج من ألوان الحب ، منذ ميلاد «فينوس» ربة الحب ، وذلك من خلال الأساطير التي روتها العصور السحيقة ، عن يونان وبلاد الشرق البعيدة ... ومن خلال التواريخ التي دونهـــا المؤرخون عن الشخصيات التاريخية قديما وحديثا ... وأخيرا وليس آخرا ماقدمه لنا أعلام فن القصـــة العصرية في مختلف الأمم ، من تحاليل نفسية للتجربة الغرامية التي انفعل بها شخوص تلك القصص المعتبرة خيالية ، وهي ـ فيما عدا الأسماء وربما الأزمنة والأمكنة ـ أقرب من وقائع التاريخ في الصدق والواقعية.

وقد روعي في مسلسلات هـــذه المجموعة ، أن تعم للحب ، هذه العاطفة المركبة في الطبيعة البشرية ، والمركوز كلها من حيوان ونبات ، حتى الجماد من طريق الجاذبية

وسيرى القارئ فيما تعرضه هذه المجمـــوعة ، ألوانا الحب ، حتى لايكاد يتشابه حبان ، لما بينهما في هذه ا الفروق ..

أما أسلوب الكتابة عند صاحب هذه المجموعة ، فما بطابع البلاغة والدقة والجمال ..



١٢ قرشا